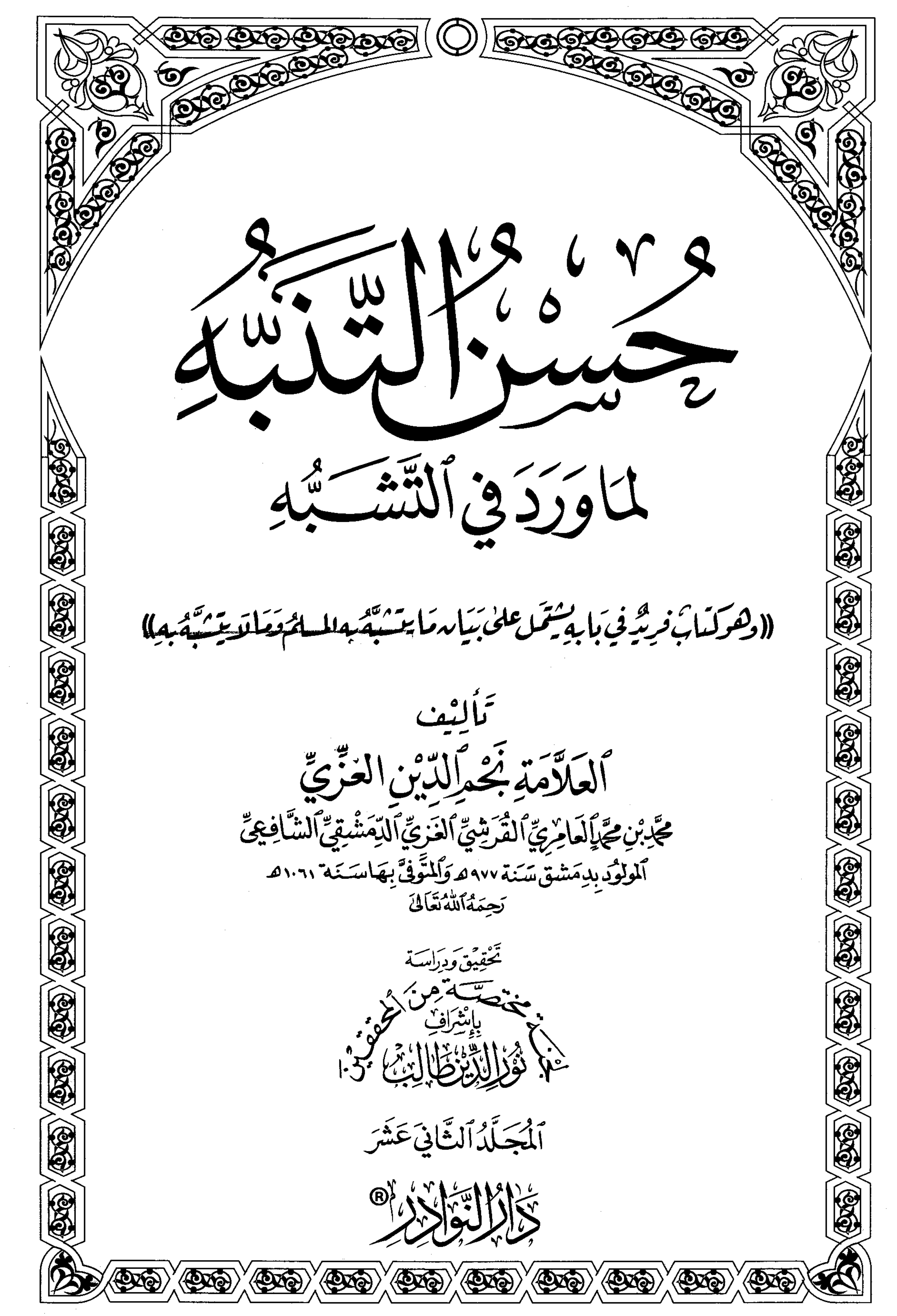


حسن التنبه

لما ورد في التشبه

((وهو كتاب فريد في بابه يشتمل على بيان ما يتشبه به المسلم وما لا يتشبه به))

تأليف

العلامة نجم الدين الغزي

محمد بن محمد العامري القرشي الغزي الدمشقي الشافعي

المولود بدمشق سنة ٩٧٧هـ والمتوفى بها سنة ١٠٦١هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

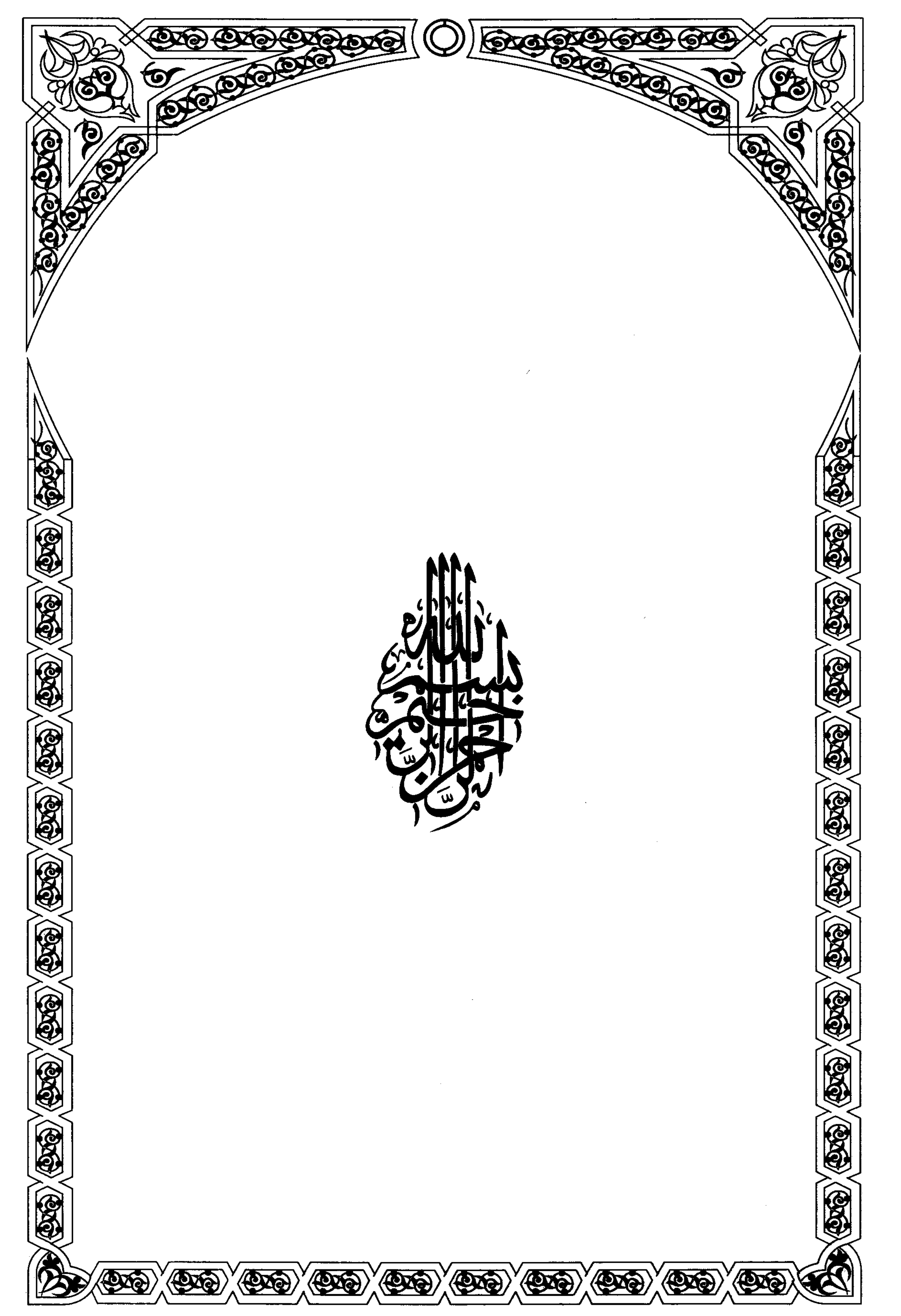
لجنة مختصة من المحققين

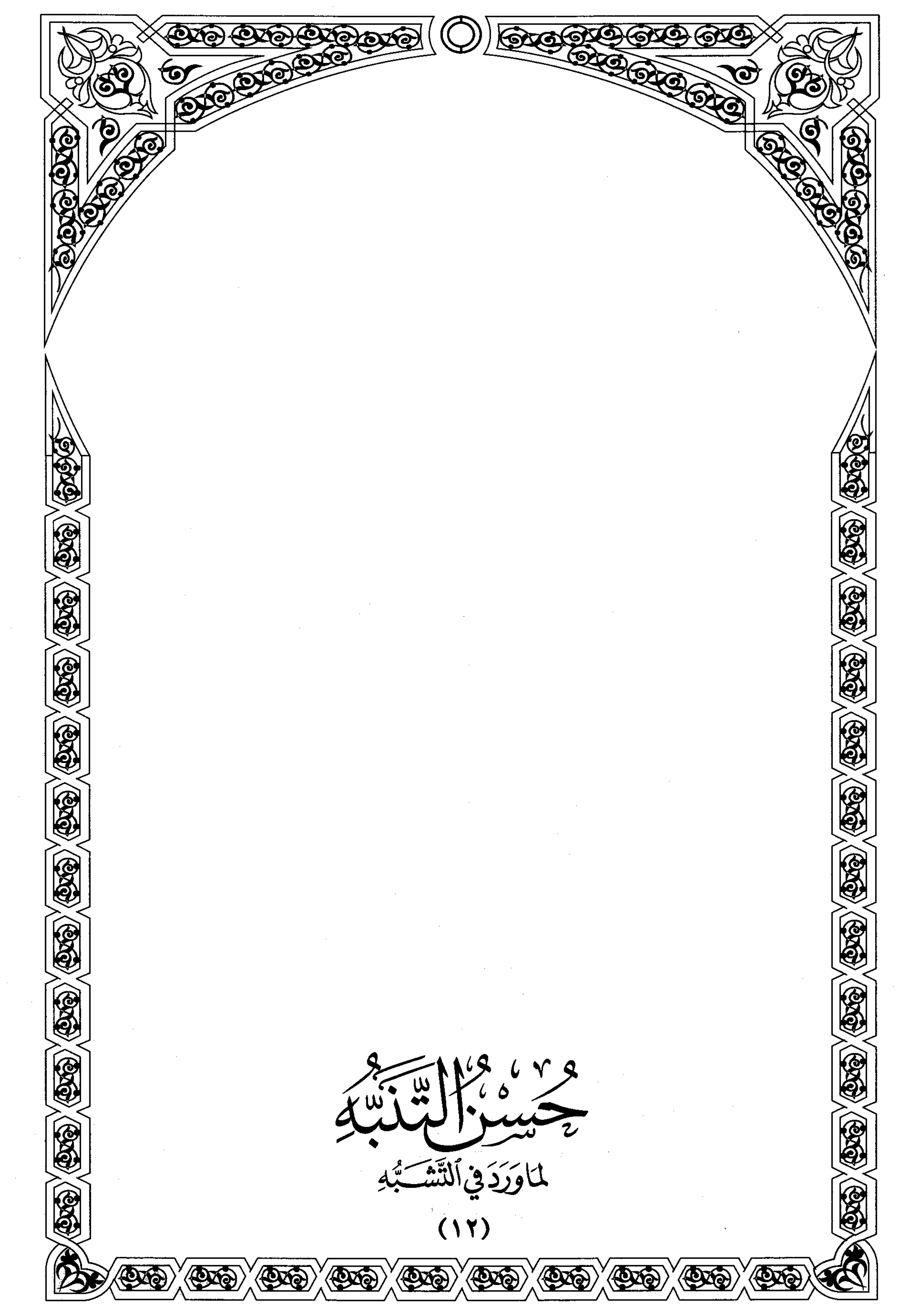
بإشراف

نور الدين طالب

المجلد الثاني عشر

دار النوادر ®


بسم الله الرحمن الرحيم



حُسْنُ التَّنَبُّهِ

لِمَا وَرَدَ فِي التَّشَبُّهِ

(١٢)



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ردمك: ٧ ـ ٨٤ ـ ٤١٨ ـ ٩٩٣٣ ـ ٩٧٨ :ISBN
9789933418847

سورية - لبنان - الكويت

مُؤسَسَة دَارُ النَّوَادِر م.ف - سُورِيَة * شَرِكَة دَارُ النَّوَادِرِ اللُّبْنَانِيَّة ش.م.م - لُبْنَان * شَرِكَة دَارُ النَّوَادِرِ الكُوَيْتِيَّة ذ.م.م - الكُوَيْت

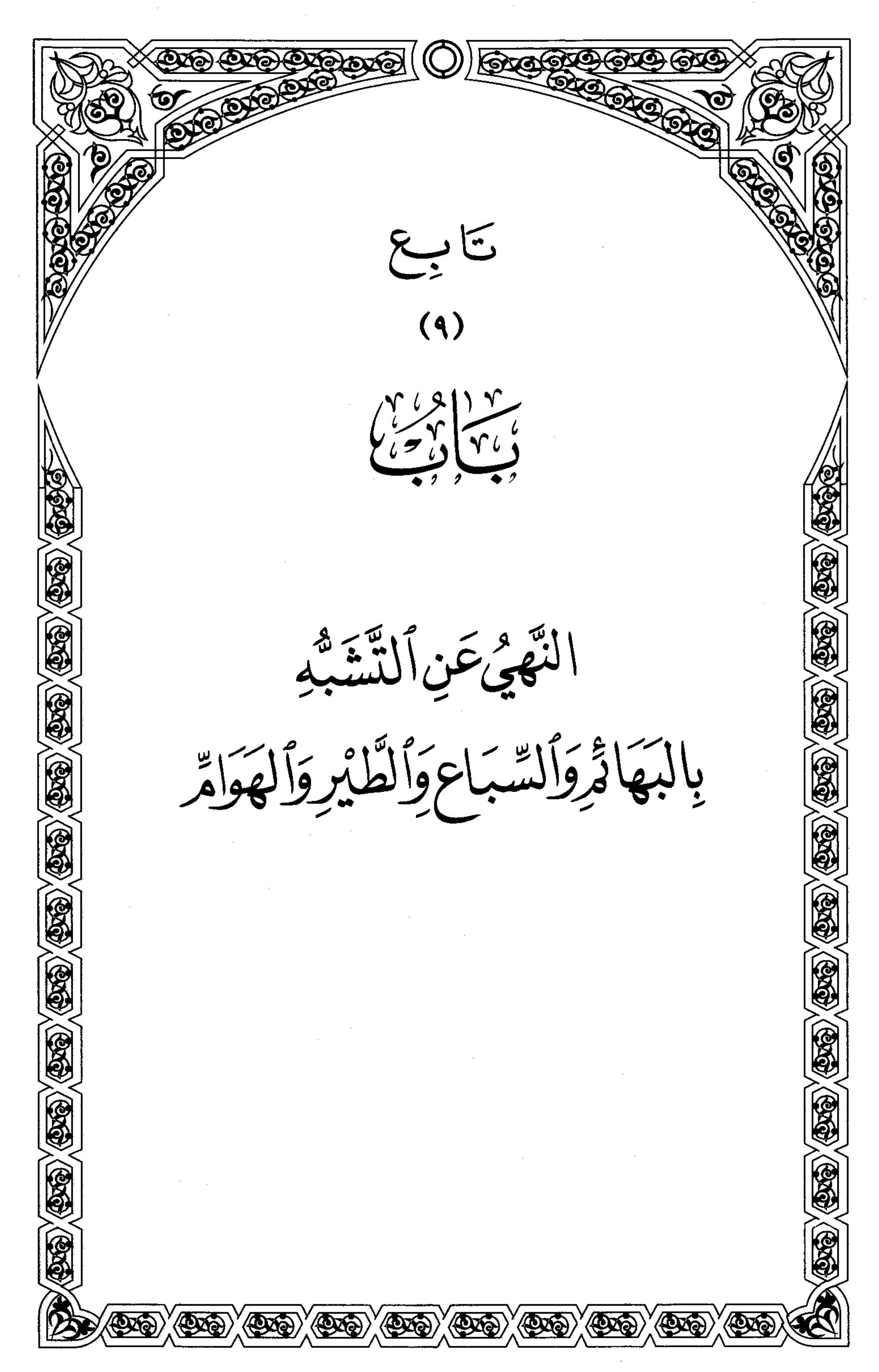
سورية ـ دمشق ـ ص. ب: ٣٤٣٠٦ ـ هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ ـ فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان ـ بيروت ـ ص. ب: ١٤/٥١٨٠ ـ هاتف: ٦٥٢٥٢٨ ـ فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت ـ الصالحية ـ برج السحاب ـ ص. ب: ٤٣١٦ حولي ـ الرمز البريدي: ٣٢٠٤٦
هاتف: ٢٢٢٧٣٧٢٥ ـ فاكس: ٢٢٢٧٣٧٢٦ (٠٠٩٦٥)

www.daralnawader.com info@daralnawader.com

أسسها سنة: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م نُورُ الدِّين طَالِب المدير العام والرئيس التنفيذي



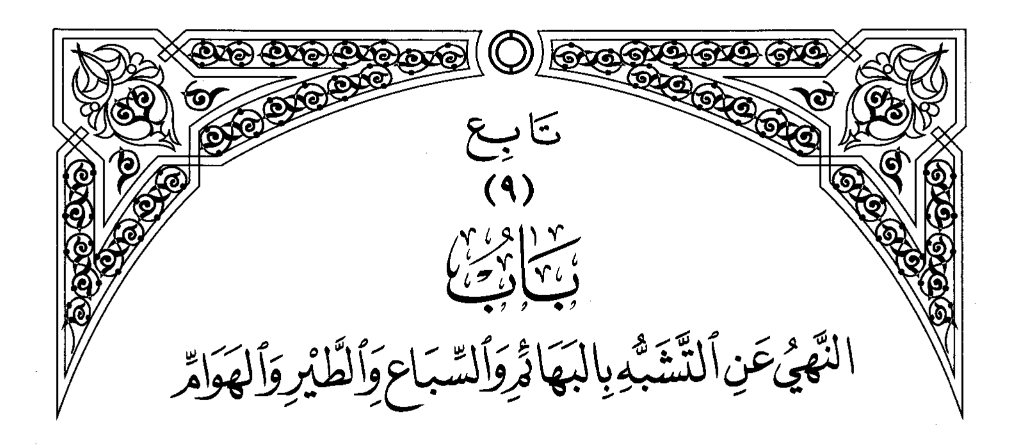
تابع

(٩)

باب

النَّهيُ عنِ التَّشبُّهِ بالبهائمِ والسِّباعِ والطَّيرِ والهوامِّ





ـ **ومن ذلك: الحُمَّرة** ـ بضم الحاء المهملة، وفتح الميم المشددة وقد تخفف ـ: وهي طائر كالعصفور.

روى أبو داود الطيالسي، والحاكم وصححه، وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في سفر، فدخل رجل غيضة، فأَخرج منها بيض حُمَّرة ـ وفي رواية: أو فرخي حمرة ـ فجاءت الحمرة ترفُّ على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ فَجعَ هَذِهِ؟».

فقال رجل: يا رسول الله! أنا أخذت بيضها، ولفظ الحاكم: فَرْخيها.

فقال رسول الله ﷺ: «رُدَّهُ رُدَّهُ رَحْمَةً لَهَا»[١].

قيل: كانوا محرمين، فأمر بردها لذلك، وإلا فهي حلال في الأشهر، كما قاله الرافعي.

---

(١) رواه الطيالسي في «المسند» (٣٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥٩٩)، وكذا أبو داود (٢٦٧٥).

وقيل: لمَّا استجارت به أَجَارها، وهذا أقرب، وهو مفهوم من رَفِّها على النبي ﷺ دون غيره، أو فهم هو ﷺ ذلك بالوحي.

والحديث داخل في معجزات النبي ﷺ.

والتشبه بها في ذلك يكون بالتوسل بالنبي ﷺ، وهو حسنٌ مقبول، وقد تقدم بيانه في التشبه بالأنبياء عليهم السلام.

- ومن ذلك: **الزرزور**: طائر صغير كالعصفور، وهو نوع منه سمي بذلك لأنه يزرزر؛ أي: يصوت، ويقال له: الزرزر، كما في «القاموس»[1].

وكأن صوته زجل بتسبيح الله تعالى وذكره، فينبغي للعبد أن لا يكون أعجز منه، ولا يزال لسانه رطباً بذكر الله تعالى، وقد شُبهت به الطير التي فيها أرواح المؤمنين لما ذكر.

روى ابن أبي شيبة، والطبراني عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: أرواح المؤمنين في جوف طيرٍ أخضر كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة[2].

وقلت في الحث على ذكر الله تعالى: [من السريع]

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٥١٢) (مادة: زرر).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٩٧٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٢٩): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه يحيى بن يونس، ولم أجد من ذكره، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

زَرْزِرْ خَلِــيلاً ثُــمَّ زَرْزِرْ إِذا زُرْتَ بِــذِكْرِ اللهِ كَــالزَّرْزَرِ
وَأْنَــسْ بِــذِكْرِ اللهِ فِــي لَيْلِــهِ وَلا تَكُــنْ أَعْجَـزَ مِـنْ صُرْصُـرِ

والصرصر ـ كهُدهد، وفدفد ـ ويقال فيه: صرصر، وصرصار، وصرار الليل: هو الجدجد ـ بالضم ـ وهو طائر أكبر من الجندب، أكثر صياحه بالليل، والصرصر أشد الصوت، ومنه سمي.

وأكثر صياحه بالليل يصوت إلى الصباح، فإذا طلبه الطالب لم يره، ولذلك قالوا في المثل: أكن من جدجد[1].

ـ ومن ذلك: **الصعو**: وهو من صغار العصافير أحمر الرأس، والواحدة: صعوة؛ تقدم قول الأرجاني: [من الكامل]

كَالصعوِ يَرْتَعُ فِي الرِّياضِ وَإِنَّما حُبِـسَ الْهِـزارُ لأَنَّـهُ يَتَـرَنَّمُ

والمعنى فيه: أن الصعو خامل متروك لا يلتفت إليه، فهو راتع لخموله في واسع الرياض، ويانع الغياض، وكذلك ينبغي للمؤمن في هذه الأزمنة أن يؤثر الخمول على الشهرة، والظهور متى استغنى.

ـ ومن ذلك: **الوصع صغير العصافير**، من شأنه التضاؤل والتصاغر خصوصاً إذا رأى جوارح الطير.

كذلك ينبغي للمؤمن التضاؤل في هذه الأعصار الشديدة، بل ينبغي له في كل زمان وحال أن يكون متواضعاً في نفسه متصاغراً، وبذلك يرفعه الله تعالى، ويُعظم قدره.

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ١٧١).

وقد روى الإمام عبدالله بن المبارك عن ابن شهاب هو الزهري رحمه الله تعالى: أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته، فقال جبريل عليه السلام: إنك لن تطيق، فخرج رسول الله ﷺ إلى المصلى في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل عليه السلام في صورته، فغشيَ على رسول الله ﷺ حين رآه، ثم أفاق وجبريل مسنده، وواضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه، فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ هَكَذَا».

فقال جبريل عليه السلام: فكيف لو رأيت إسرافيل عليه السلام؛ إنَّ له لاثني عشر جناحاً، جناح منها في المشرق وجناح في المغرب، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل الأحيان لعظمة الله حتى يصير مثل الوصع حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته[1].

قال الجوهري: الوصع: طائر أصغر من العصفور، واستدل بالحديث[2].

وقال صاحب «القاموس»: الوَصْع، ويحرك: طائر أصغر من العصفور[3].

ذكراه في مادة: (و ص ع) بالصاد المهملة، وكذلك ضبطه

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٧٤).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٣٤٠٠) (مادة: صعو).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٩٦) (مادة: صعو).

المحدثون، وضبطه في «حياة الحيوان» بالضاد المعجمة، وذكر الحديث، ولعله ظنه من الصفة.

قلت: ولو قيل: إنه مقلوب الصعو لم يبعد.

وقلت: [من الرجز]

كُنْ خافِياً كَالوصعِ أَوْ كالـصعوِ ... حَتَّى يَـتِمَّ لَـكَ وَصْـفُ الـصفوِ

إِنَّ الظُّهــورَ لِلظُّهــورِ قاصِـــمٌ ... وَالْخامِلُ الْخـافِي حَـراً بِـالعفْوِ

ـ **ومن ذلك: الفرفر** ـ على أوزان هدهد، وزبرج، وعصفور ـ: وهو العصفور بعينه، أو نوع منه سمي بذلك لفرفرته؛ من: فرفرت الشيء: إذا حركته، وفرفر: تحرك لشدة حركته، وأكثر ما يكون العصفور فرفرةً إذا وقع في الشبك.

فكذلك ينبغي للمؤمن إذا وقع في قنص الخطايا وشبك الذنوب أن يحزن لذلك، ويضطرب له، ويَضرع إلى الله بالتوبة.

روى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لنفس المؤمن أشد ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يغدف به[1]؛ أي: اضطراباً وفراراً.

ويقال: أغدف بالصيد: إذا ألقى عليه الشبكة؛ قاله الزمخشري في «الفائق»[2].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٤).

(٢) انظر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (٢/ ٨٢).

وفي «الصحاح» نحوه[1].

وأغدف: بمعجمتين بينهما مهملة.

وفي معناه قول النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ». رواه الطبراني في «الكبير» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه[2].

- **ومن ذلك: البلبل**: وهو نوع من العصافير حسن الصوت والتغريد.

قالت العرب: البلبل يعندل؛ أي: يصوت، وهو من الأمثال السائرة يُضرب لصاحب الفضيلة لا بد أن تظهر عليه، ولمن لا فضيلة له يدعيها فلا تظهر عليه شواهدها، فيفتضح ويظهر عليه؛ أي: لو كان بلبلاً لعندل.

وقلت: [من الرجز]

لا تَعْتَبِرْ مَنْ يَدَّعِي بَيانا ... حَتَّى تَرى شاهِدَهُ عيانا

فَإِنْ يَكُنْ لَهُ بَيانٌ بانا ... يُعَنْدِلُ البُلْبُلُ حَيْثُ كانا

وتقدم قول الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى: [من الكامل]

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٠٩) (مادة: غدف).

(٢) ورواه البزار في «المسند» (٣٠٦٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٦): رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح ما خلا المطلب بن عبدالله فهو ثقة ولكنه يدلس، ولم يسمع من أبي موسى، فهو منقطع.

أَنا بُلْبُلُ الأَفْـراحِ أَمْـلأُ دَوْحَهـا وَفِــي العَلْيــاء بــازٌ أَشْــهبُ

وروى الأصبهاني في «الترغيب» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى: أن سليمان بن داود عليهما السلام مرَّ على بلبل على شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: إنه يقول: أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء[١]؛ أي: الدروس وذهاب الأثر.

وقيل: التراب.

والمؤمن أولى بالقناعة بالكفاف، والقدوة في ذلك بسيد المرسلين ﷺ الذي كان يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً».

وفي رواية «قُوتاً» كما تقدم[٢].

وذكر ابن عبد ربه في «العقد» أنه قيل لأبي نواس: قد أرسلوا وراء أبي عبيدة والأصمعي ليجمعوا بينهما.

فقال: أما أبو عبيدة فإن خلوه وسفَره قرأ عليهم أساطير الأولين، وأما الأصمعي فبلبلٌ في قفص، يطربهم بصفيره[٣].

وكذلك ينبغي لمن له حفظ إذا جلس بين قوم أن يفيض عليهم

---

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٨٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٩٤).

من فوائده وعلومه إلا أن لا يكونوا من أهلها، فينبغي أن يمسك.

- **ومن ذلك: الهزار، والعندليب**: وهما واحد، ويقال: عندليل، وجمعها عنادل.

وذكر في «القاموس»: أن الهزار معرب، فارسيته: هذار دستان[1].

- **ومن ذلك: الشحرور** - كسحنون -: طائر أسود فوق العصفور يصوت أصواتاً، وهو والبلبل والهزار ألطف الطير أصواتاً، وأطيبها نغمة وتغريداً.

قال الشيخ علاء الدين الباجي: [من الرجز]

بِالبُلْبُـلِ وَالْهَـزارِ وَالـشحْرُورِ   يَسْبِـي طَرباً قَلْبَ الشَّجِيْ الْمَهْجُورِ

فَانْهَضْ عَجِلاً وَانْهَبْ مِنَ اللَّذَّةِ ما   جاءَتْ كَرماً بِـهِ يَـدُ الْمَقْـدُورِ[2]

فينبغي التشبه بهذه الأطيار في حسن الصوت بالقرآن، وإملاء العلم من غير تصنع ولا تشقيق ولا تمطيط، ولا تغيير لألفاظ القرآن والذكر، ولا تغيير لأجل الألحان والأنغام، بل على طبعه الذي أوتيه من غير تصنع؛ فإن ألحان هذه السواجع كذلك.

- ومن طباع هذه السواجع وكثير من الطير: ارتياحها في زمن الربيع، والإكثار فيه من التغريد والترجيع.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٦٤٠) (مادة: هزر).

(٢) انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٢١/ ٢٩٩).

قال الشيخ عبدالله بن محمد بن إبراهيم الأرموي : [من البسيط]

وافَــى الرَّبْــيعُ فَعــادَ الــرَّوْضُ مُبْتَــسِماً
وَطالَمـــا انْتَحَبَــتْ فِيــهِ سَــحائِبُهُ

وَالغُـصْنُ مِــنْ فَوْقِــهِ الــشُّحْرُورُ تَحْـسِبُهُ
يَتْلُــو الزَّبُــورَ بِــأَعْلى الــدَّيْرِ راهِبُــهُ

وَشــاطِئُ النَّهْــرِ قَــدْ دبَّــتْ عَوارِضُــهُ
وَافْتَــرَّ مَبْــسَمُهُ وَاخْــضَرَّ عارِضُــهُ

وَصَــفَّقَ الــدَّوْحُ لَمَّــا أَنْ رَأى عجبــاً
مِــنْ أَجْــلِ ذَلِــكَ قَــدْ شــابَتْ ذَوائِبُــهُ

وقال بعضهم في الهزار : [من الطويل]

وَخَرســـاءَ إِلاَّ فِـــي الرَّبـــيعِ فَإِنَّهـــا
نَظِيـــرَةُ قِـــسٍّ فِـــي العُـــصُورِ الـــذَّواهِبِ

أَتَــتْ تَمْــدَحُ النَّــوَّارَ فَــوْقَ غُــصونِها
كَمــا تَمْــدَحُ العُــشَّاقُ حُــسْنَ الْحَبائِــبِ

تُبَـــدِّلُ أَلْحانـــاً إِذا قِيـــلَ بَـــدِّلِي
كَمــا بَــدَّلَتْ ضَــرْباً أَكَــفُّ الــضَّوارِبِ

وقال: [من الكامل]

ضَحِكَ الثَّرى فَبدا لَكَ اسْتِبْشارُهُ
وَاخْضَرَّ عارِضُهُ وَطَرَّ عِذارُهُ

وَدَنَتْ حَدائِقُهُ وَأَوْرَد نَبْتُهُ
وَتَعَطَّرَتْ أَنْوارُهُ وَثِمارُهُ

وَاهْتَزَّ ذابِلُ كلٍّ ما بِقَرارِهِ
لَمَّا أَتى مُتَطَلِّعاً آذارُه

وَتَعَمَّرَتْ صُلْعُ الرُّبَى بِنَباتِها
وَتَرَنَّمَتْ مِنْ عُجْمَةٍ أَطْيارُهُ[1]

وقلت: [من السريع]

لِلَّهِ ما أَزْهى رِياضَ الرُّبَى
لَمَّا كَساها النُّورَ زاهِي الرَّبِيعْ

هَواؤُهُ حَرَّكَ حُكْمَ الْهَوى
مِنْ كُلِّ قَلْبِ مُسْتَهامٍ صَدِيعْ

---

(١) الأبيات لأبي بكر بن القوطية، انظر: «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٥/ ٣٩١).

إِذْ غَـــرَّدَ الـــشُّحرُورُ وَالـــوُرْقُ فِـــي الـــ

ـــأَوْراقِ بِـــاللَّحْنِ العَجِيـــبِ البَـــدِيعْ

وَصَـــفَّقَ النَّهْـــرُ لَهـــا إِذْ شَـــدَتْ

كَيْـــفَ تَـــرى مـــا صَـــنَعَتْ بِالـــسَّمِيعْ

وَاسْـــتَرْقَصَ الغُـــصْنَ نَـــسِيمُ الـــصَّبا

كَأَنَّـــهُ فِـــي الـــرَّوْضِ صَـــبٌّ خَلِيـــعْ

مـــا شِـــئْتَ أَنْ تُبْـــصِرَ مـــا راعَ مِـــنْ

شَـــيْءٍ تَـــرى فِـــي كُـــلِّ وادٍ وَرَيْـــعْ

تُـــسْقَى بِمـــاءٍ واحِـــدٍ وَهْـــيَ فِـــي

أَلْوانِهـــا شَـــتَّى بَراهـــا البَـــدِيعْ

يـــا مَـــنْ قَـــدِ ارْتـــاحَ لِمـــا قَـــدْ رَأَى

وَاشْـــتَمَّ أَنْفـــاسَ عَبِـــيرِ الرَّبِـــيعْ

لَـــوْلا تَـــذَكَّرْتَ بِـــهِ جَنَّـــةَ الـــ

ـــمَأْوَى الَّتِـــي قَـــدْ أُزْلِفَـــتْ لِلْمُطِيـــع

وينبغي للمؤمن أن يكون في زمان الربيع أكثر طاعة لله منه في غيره؛ فإنه فصل تعتدل فيه الأبدان لاعتدال الأخلاط فيه.

ومن الطاعات التي تكون أقرب إلى القابليه فيه التذكر والتفكر: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

ولذلك قال الأستاذ أبو الحسن بن سمعون رحمه الله تعالى: الربيع أرضه حرير، وأنفاسه عبير، وأوقاته كلها أوقات وعظ وتذكير، والذكر والفكر من أفضل العبادات.

ولقد سمَّى الله تعالى الجامعين بينهما أولي الألباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وروى ابن حيان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّيْنَ سَنَةٍ»(١).

ورواه الديلمي من حديث أنس بلفظ: «ثَمَانِيْنَ سَنَةٍ»(٢).

فإذا خرجْتَ أيام الربيع إلى الصحاري والروابي كان مجالك في الذكر والفكر فيها أوسع منه في غيرها؛ فإنك تنظر في ألوان الربيع المختلفة خضرة، وحمرة، وصفرة، وزرقة، وبياضاً وسواداً، مع أنها تُسقى بماءٍ واحدٍ، وتنظر إلى نضارته واخضراره وريعانه، ثم إلى ما يعود إليه من اليَبَس والقحول، فتعتبر به حال الدنيا وفنائها كما قال الله

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٣٠٠). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١١٩٣): إسناده ضعيف.

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٣٩٧). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١١٩٣): إسناده ضعيف جداً.

تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وفي هذه الآية زيادة على ما في الآية السالفة الإشارة إلى أن الدنيا على أن مصيرها إلى الفناء والزوال، وقد تفجأ صاحبها المَنِيَّة قبل بلوغ الأمنية كالزروع التي تجتاحها الآفة وقد قارب حصادها، وآن جذاذها وتوقع صاحبها أن يبلغ مُراده منها.

وقرأ الآية أُبي بن كعب رضي الله عنه: فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس وما أهلكناها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات. رواه ابن جرير، وابن المنذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي رضي الله عنه[1].

وقال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وتنظر إلى بهجة ما طلع في الأغصان من الورق والزهر والثمر

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١١/ ١٠٣).

بعدما كان ذلك داوياً[1]، فتعتبر بذلك البعث والنشور بعد الموت والفناء كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وروى الإمام أحمد، وغيره عن أبي رزين رضي الله تعالى عنه: أنه قال للنبي ﷺ: كيف يُحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟

قال: «هَلْ مَرَرْتَ بِوادٍ أَهْلِكَ مَحْلاً ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خُضْراً».

قال: نعم.

قال: «كَذَلِكَ يُخْرِجُ اللهُ الْمَوْتَىٰ، وَذَلِكَ آيَتُهُ فِيْ خَلْقِهِ»[2].

وكذلك تعتبر حال الإنسان إذا يُولد غضّاً طرياً ناعماً، ثم يتكامل في صباه وشبابه، ثم يشيخ، ثم يَهْرَم، ثم يموت، ثم يبعثه الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨].

وقيل: [من الطويل]

وَما الْمَـرْءُ إِلاَّ كَالنَّبـاتِ وَزَهْـرِهِ ... يَعُودُ رُفاتاً بَعْـدَما كـانَ ناضِـرا

ولنا في هذا المعنى وهو من نظم الصبا: [من مخلَّع البسيط]

---

(١) لعل الصواب: «ذاوياً» بدل «داوياً».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١١)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٨٦٨٢).

انْظُـرْ إِلَـى الْمَـرْءِ فِـي صِـباهُ ... كَأَنَّــهُ الــرَّوْضُ فِــي نَمـاهُ

تَــراهُ فِــي بَهْجَــةٍ وَحُــسنٍ ... يَــرُوعُ طَــرْفَ الَّــذِي يَــراهُ

تَـضُوعُ فِيــهِ الزُّهــورُ نَـشْراً ... كَالْمِــسْكِ وَالنــد فِــي شَــذاهُ

وَالغُــصْنُ فِيــهِ غَـضٌّ وَرِيــقٌ ... يَهْتَــزُّ فِــي ذِكْــرِ مَــنْ كَـساهُ

وَالنَّهْــرُ يَجْــرِي وَالــشَّطُّ يَزْهُــو ... كَمِعْــــصَمٍ زانَــــهُ حَــــلاهُ

وَالطَّيْــرُ فَــوْقَ الغُــصونِ تَـشْدُو ... كَــسائِقِ العِــيْسِ فِــي حــداهُ

أَوْ خاطِــــبٍ قـــالَ إِذْ تَرَقَّـــى ... يُوْصِــــيكُمُ اللهُ فِـــي تُقـــاهُ

حَتَّــــى إِذا آنَ آنُ قَطْــــفٍ ... وَطـــابَ لِلْمَـــرْءِ مُجْتَنـــاهُ

ابْــيَضَّ لَوْنــاً وَاسْــوَدَّ حَبَّــاً ... وَكـــانَ لِلفَـــرْكِ مُنْتَهـــاهُ

فَقِيــلَ بهـــرا كـــانَ هَـــذا ... لَــمْ يُغْــنِ بِــالأَمْسِ مُزْدَهـــاهُ

كَــذَلِكَ الْمَــرْءُ حِــينَ يَنْـشا ... يُرَوِّعُــــهُ حُــــسنُ مُنْتَــــشاهُ

وَيَزْدَهِـــي بِالـــشَّبابِ تِيهـــاً ... أَزْهَــى مِــنَ الــرئمِ فِــي فَـلاهُ

حَتَّــى إِذا شــانَهُ مَــشِيبٌ ... وَانْهَــدَّ مِــنْ ضَــعْفِهِ قُــواهُ

كــانَ كَــأَنْ لَــمْ يَكُــنْ شَـبابٌ ... سُــبْحانَ مَــنْ لَــمْ يَــدُمْ سِـواهُ

فَلْيَتَّــقِ العَبْــدُ مَــنْ بَــراهُ ... يَبْلُــــغْ بِتَقْــــواهُ مُنْتَهـــاهُ

ـ ومن ذلك: **الدراج**: وهو جمع، مفرده: دِرَجَة ـ كعنبة ـ للذكر والأنثى.

وحكى ابن قتيبة عن بعضهم أن واحده: درُّوج؛ كفرُّوج.

وهو طائر أسود باطن الجناحين، أغبر ظاهرهما على خلقة القطا إلا أنه ألطف من القطا، وهو من جملة الطير المبشرة بالربيع.

ذكر الدميري، والسيوطي أنه يقول في تصويته: بالشُّكر تدوم النعم، وصوته على وزن هذه الكلمات.

والاعتبار في ذلك أن يتلقى العبد نعمة الربيع وكل نعم الله تعالى المسبغة عليه بالشكر.

- وكذلك الطير المعروف في بلاد الشام والروم بدائم اشكر، وهو من أنواع الحمام شبيه بالقمري؛ فإنه سمي بذلك لأن صياحه على مثل هذا الوزان: الدائم اشكر؛ أي: اشكر الدائم؛ بذلك تعرفه عوام الناس، ويعرفون القمري بالكريم لأن صياحه على وزن: يا كريم.

والاعتبار في ذلك أن يكون مستديم الشكر كما أن الله تعالى يتداومه بالنعم ويتداركه بها، فالشكر يحصل بالطاعات، وأظهرها فيه اللسان، والحمد أظهر ما ينطق به اللسان فيه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رَأْسُ الشُّكْرِ الْحَمْدُ لله»[1].

- ومن ذلك: القطا: وهو جمع قطاة، ويُجمع على قَطَوات، وقَطَيات كما قاله الجوهري[2]، وهي نوعان: كدرية، وجونية.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٩٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٧٨٤) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٤٦٤) (مادة: قطو).

فالكدرية: غبر اللون، رقش البطون والظهور، صغار الحلوق، قصار الأذناب، وهي ألطف من الجونية.

والجونية: سود بطون الأجنحة والقوادم، وظهرها أغبر أرقط يعلوه صفرة، وهي أكبر من الكدرية.

والكدرية فصيحة تنادي باسمها: قطا قطا مفسرة.

والجونية تغرغر بذلك من حلقها؛ ولهذا سميت جوني.

والقطا شديدة الطيران، وتوصف بالهداية لأنها تبيض في القفر، وتستقي من بعيد بحيث إنها تقطع من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبع مراحل حتى تقع على الماء، فتستقي وتأتي به في حواصلها لفراخها، وتعود في الظلمة، فإذا كانت حيال أولادها صاحت: قطا قطا، وبه سميت، فتجيبها أولادها فلا تخطىء مكانها بلا عَلَم ولا شجر ولا إشارة، ومن هنا ضُرب بها المثل في الهداية.

وربما طلبت الماء من مسيرة عشرين ليلة وأكثر وأقل، وتعود من ليلتها، ولذلك اختار العباس بن الأحنف التمثيل بالقطا في قوله: [من الطويل]

أَسِرْبَ القَطا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَناحَهُ ... لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوِيتُ أَطِيرُ

فَجَاوَبْنَنِي مِنْ فَوْقِ غُصْنِ أَراكَةٍ ... أَلا كُلُّنا يا مُسْتَعِيرُ يُعِيرُ

وَكُلُّ قَطاةٍ لَمْ تُعِرْكَ جَناحَها ... تَعِيشُ بِذُلٍّ وَالْجَناحُ كَسِيرُ

وقال مزاحم العقيلي في القطا وفرخها: [من الطويل]

وَلَمَّـا دَعَتْـهُ بِالقَطَـاةِ أَجابَهـا بِمِثْلِ الَّذِي قالَـتْ بِـهِ لَـمْ يُبَـدِّلِ

وتوصف بحُسن المشي، ويمثل مشي النساء الخَفِرات بمشيها كما قالت هند بنت عتبة يوم أُحد: [من المجتث]

نَحْـــنُ بَنَـــاتُ طَـــارِق نَمْـــشِي عَلَـــى النَّمـــارِق

مَـــشْيَ القَطـــا النَّقـــانِق[1]

أي: الكثيرات الأولاد.

وقالوا في المثل: أصدق من القطا، وأنسب من القطا؛ فإنها إذا صوتت تنسب باسم نفسها، فصدقت لما سبق أنها تقول: قطا قطا.

والاعتبار في التشبه بالقطا بالصدق وحسن الرعاية، والفطنة والهداية، والهوينا في المشي مع علو الهمة، وحسن التشبه بالآباء في المكارم والمناقب ومحاسن الأخلاق والآداب.

وقالوا في المثل: ليس قطا مثل قطي؛ يُضرب في قصور الأصاغر عن بلوغ مراتب الأكابر في الإغناء في الأمور المهمة[2].

ونظيره قول بعض العلماء في حق بعض الظلمة وقد تصدى لما لم تبلغه حاله وعلمه: فلان فروج، لكنه يتدايك.

وقالوا في المثل: لو ترك القطا ليلاً لنام؛ يُضرب لمن لم يتهيج

---

(١) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٢/ ٤٨).

(٢) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٣٠٦).

حتى هيج كما قال الشاعر: [من الوافر]

أَلا يـا قَوْمَنـا ارْتَحِلـوا وَسِـيروا   فَلَـوْ تَـرَكَ القَطـا لَـيْلاً لَنامـا

قالته امرأة لقومها ولهم عدو يريدهم، وقد ساروا عنه يوماً وليلة، فنزلوا وهم يظنون أن العدو بعيدٌ عنهم، فهم نيام والقطا تنفر، فقالت لقومها: ارتحلوا؛ فإني رأيت القطا تنفر من أوكارها، فلولا أثارها مثير لَمَا ثارت، لو ترك القطا ليلاً لنام القطا[1].

وقال آخر: [من الطويل]

وَإِنِّـي وَإِيَّـاكُمْ كَمَـنْ نَبَّـهَ القَطـا   وَلَوْ لَمْ تُنَبَّهْ باتَتِ الطَّيْرُ لا تَسْرِي[2]

ويُضرب أيضاً لمن حُمِل على مكروه بغير إرادته، ولو لم يبدأ بالشر ويلجأ لم يرده.

ـ **ومن ذلك: الدرة**: وهي البَبْغَاء ـ بموحدتين؛ الأولى مفتوحة، والثانية ساكنة ـ كذا ضبطها ابن السمعاني في «الأنساب».

وضبطها غيره بفتح الثانية مشددة.

وجعله في «القاموس» قليلاً[3].

وهي طائر أخضر معروف، وقد يكون أحمر وأصفر وأبيض، له منقار كبير، ولسان كذلك، تسمع كلام الناس وتحكيه بأي لغة كان.

---

(١) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٣٤٠).

(٢) انظر: «الأغاني» للأصبهاني (٢٢/ ٢١٩).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٠٠٦) (مادة: ببغاء).

والذي يحسن من التشبه بها إعادة المتعلم ما يُمْلِيْه العالم عليه مما يتعلق بالألفاظ وغيرها، والإخبار في تعلم العلم معروفة، وقد تقدمت في محالِّها.

وهي من الطير التي تُحبس لسماع أصواتها ولا يسعها إلا الصبر.

كذلك ينبغي للإنسان إذا ابتُلِيَ بحبسٍ أو غيره من مصائب الدنيا أن يصبر ويطلب الفرج والتيسير من الله تعالى، ولْيَسَل نفسه بأن البلاء ولع بالأكابر، وأشد الناس بلاءً الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الأمثل فالأمثل.

ومن لطائف القاضي الأرجاني: [من السريع]

تَقْصِدُ أَهْلَ الفَضْلِ دُونَ الوَرَى ... مَصائِبُ الدُّنْيا وَآفاتُها

كَالطَّيْرِ لا يُحْبَسُ مِنْ دُونِها ... إِلاَّ الَّتِي تُطْرِبُ أَصْواتُها[1]

ـ **ومن ذلك: فاقد إلفه**: روى ابن خميس في «مناقب الأبرار» عن السري السقطي قال: بتُّ في بعض قرى الشام، فسمعت طول الليل طيراً يصيح ويقول: أخطأت لا أعود، فلما أصبحت سألت أهل القرية: إيش اسم هذا الطير؟

فقالوا: فاقد إلفه[2].

وذكر اليافعي في «روض الرياحين» هذه الحكاية عن السري

---

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ١٥٤).

(٢) وانظر: «المدهش» لابن الجوزي (ص: ٤٠٧).

رحمه الله تعالى قال: كنت ليلةً في قريةٍ من قرى الشام، فإذا بصوتٍ فصيح: أسأت فلا أعود، فلما أصبحتُ سألتُ عن الصوت، فقيل لي: إنه طائر.

فقلت: ما يقال له؟

فقيل: فاقد إلفه.

قال: ثم سمعت في الوقت صوتاً ولا أرى شخصاً، وهو ينشد ويقول: [من البسيط]

طَيْــرٌ نَحِيــلٌ بِــأَرْضِ الــشَّامِ أَقْلَقَــهُ
ذِكْــرُ الْحَبِــيبِ لَــهُ نُطْــقٌ بِإِضْــمارِ

يَقُــولُ أَخْطَــأْتُ حِــينَ الــصُّبْحُ يُــسْعِدُهُ
صَــوْتٌ شَــجِيٌّ يُبَكِّــي وَقْــتَ إِسْــحارِ

قلت: كثيراً ما يُسمع بالشام الآن طائران بالليل يصيحان، أحدهما صياحه على وزان حق، والآخر صياحه على وزان يعقوب، والعوام يقولون: هما طائران فقد كلٌّ واحد منهما رفيقه ولا يجتمعان، أحدهما اسمه إسحاق، والآخر يعقوب، فالثاني يصيح: إسحاق، والأول يصيح: يعقوب.

والناس ينزلون أصوات الطير كل منهم على ما يليق بحاله، ولعل الطائر الذي سمعه السري يقول: أخطأت لا أعود هو الذي يحسب العوام أنه يقول يعقوب.

والاعتبار بفاقد إلفه: أن ينوح الإنسان على ما فاته من الخير بسبب خطيئته.

كما روى ابن أبي الدنيا في «البكاء» عن ابن عباس قال: نزل آدم بالحجر ـ يعني: الأسود ـ يمسح به دموعه حين أُهبط من الجنة، ولم ترقأ عينُ آدم تبكي منذ خرج من الجنة حتى رجع إليها[1].

قلت: ومن هنا جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال عند الحجر الأسود: «هَاهُنَا تُسْكَبُ الْعَبَرَاتُ»[2].

فبكاء آدم عليه السلام كان لفقد مألوفه في جوار الله تعالى من الملائكة، وما في الجنة من النعيم والأنس بسبب أكل الشجرة حيث أُخرج من الجنة فهو يُريد العود إليها، فينبغي للعبد أن يبكي لفقد مألوفاته إذا عوقب بفقدها على خطيئة فعلها، وينبغي أن يتوب ولا يعود.

وقد قلت ملمحاً بقصة السري مع فاقد إلفه: [من الوافر]

أَنُوحُ عَلى ذُنُوبِي كُلَّ وَقْتٍ كَفاقِدِ إِلْفِهِ وَأَنا وَحِيدُ
أَقُولُ كَما يَقُولُ: لَعَلَّ رَبِّي سَيَغْفِرُ لِي أَسَأْتُ فَلا أَعُودُ

وقلت: [من المجتث]

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٣٠٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٩٤٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧١٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يـــا رَبِّ يـــا مَجِيـــدُ	يـــا بَـــرُّ يـــا حَمِيـــدُ
انْظُـــرْ إِلَـــيَّ وَاعْطِـــفْ	عَلَـــــيَّ يـــــا وَدُودُ
لَقَـــدْ عَـــصَيْتُ لَكِـــن	العَفْـــوُ مِنْـــكَ جـــودُ
فَتُـــبْ عَلَـــيَّ حَتَّـــى	أَتُـــوبَ يـــا مَجِيـــدُ
أَقُـــولُ فِـــي اعْتِرافِـــي	وَلَـــيْسَ لِـــي جُحـــودُ
أَخْطَـــأْتُ لا أَعُـــودُ	أَخْطَـــأْتُ لا أَعُـــودُ

ومن ذلك الطير من حيث هو؛ فإنه يوصف بالتوكل، بل وكذلك سائر البهائم والوحوش وبقية الحيوانات؛ فإنها لا توسع الحيلة في الطلب ولا تهتدي لذلك.

روى الإمام أحمد في «الزهد» عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح، لا تحرث ولا تحصد، الله يرزقها، فإن قلتم: نحن أعظم بطوناً من الطير، فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحش والحمر تغدو وتروح، لا تحرث ولا تحصد، الله يرزقها، اتقوا فضول الدنيا؛ فإن فضول الدنيا رجس[1].

وروى الترمذي ـ وقال: حسن صحيح ـ وابن ماجه، والحاكم وصححه، عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ

---

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٩١).

قال: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُوْنَ عَلَىْ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُوْ خِمَاصَاً وَتَرُوْحُ بِطَاناً»[1].

وهذا الحديث ليس فيه رفض الأسباب بالكلية نوبة واحدة، ألا ترى أن الطير تغدو وتروح، وهذا سبب، لكنها لما لم تقصد موضعاً معيناً وصفت بالتوكل؟

وروى الدينوري في «المجالسة» قال: حدثنا أبو القاسم بن الحنبلي قال: سألت أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، فقلت: ما تقول في رجلٍ جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟

فقال أحمد: هذا رجلٌ قد جهل العلم، أما سمعت قول النبي ﷺ: «جَعَلَ اللهُ رِزْقِيْ تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِيْ»[2].

وحديثه الآخر حين ذكر الطير فقال: «تَغْدُوْ خِمَاصَاً وَتَرُوْحُ بِطَاناً».

فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق.

وقال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤١٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٩٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٥٠)، وذكره البخاري (٣/ ١٠٦٧) معلقاً عن ابن عمر رضي الله عنه.

وقال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتّجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم(١).

وروى الإمام أحمد، والبزار ـ وسنده جيد ـ عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه، والطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» ـ ورواته ثقات ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سُئل رسول الله ﷺ: أي الكسب أفضل؟ ـ وقال رافع: قيل: يا رسول الله! أي الكسب أطيب؟ ـ ثم اتفقا، قال: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُوْر»(٢).

وروى هؤلاء عن جميع بن عمير، عن خاله ـ يعني: بردة بن نيار ـ رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الكسب، فقال: «بَيْعٌ مَبْرُوْرٌ، وَعَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ»(٣).

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٤١)، والبزار في «المسند» (٣٧٣١) عن رافع بن خديج رضي الله عنه.
والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢١٤٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٦١): رواه الطبراني في «الأوسط»، و«الكبير» ورجاله ثقات.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٦)، والبزار في «المسند» (٣٧٩٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢/ ١٩٧).

وروى الحاكم ـ وصححه ـ عن سعيد بن عمير، عن عمه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الكسب أطيب؟

قال: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ كَسْبٍ مَبْرُوْرٍ».

قال يحيى بن معين: عم سعيد هو البراء رضي الله عنه[1].

نعم، ينبغي للعبد إذا كسب أن يكون ثقته في كسبه بربه عز وجل لا بسبب، وأن يُجمِل في الطلب ولا يتهالك فيه، وأن يفضل من كسبه على من يليه، فبذلك يتم له العمل بالسنة.

روى ابن أبي الدنيا في «القناعة» ـ واللفظ له ـ والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنِّيْ لا أَعْلَمُ شَيْئاً يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إِلاَّ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلا أَعْلَمُ شَيْئاً يُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلاَّ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوْحَ الأَمِيْنَ عَلَيْهِ السَّلامُ نَفَثَ فِيْ رُوْعِيْ أَنَّ نَفْسَاً لَنْ تَمُوْتَ حَتَّىْ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوْا اللهَ وَأَجْمِلُوْا فِيْ الطَّلْبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ عَلَىْ أَنْ تَطْلُبُوْهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ عز وجل لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَةٍ»[2].

وروى ابن ماجه ـ واللفظ له ـ والحاكم ـ وصححه ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوْا اللهَ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢١٥٩)، وكذا البيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٦٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (٥٧).

وَأَجْمِلُوْا فِيْ الطَّلَبْ؛ فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوْتَ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوْا اللهَ وَأَجْمِلُوْا فِيْ الطَّلَبِ، خُذُوْا مَا حَلَّ وَدَعُوْا مَا حَرَّمَ»[1].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أَجْمِلُوْا فِيْ طَلَبِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ كُلاًّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

ولفظ الحاكم وصححه: «فَإِنَّ كُلاًّ مُيَسَّرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا».

وبهذا اللفظ أخرجه أبو الشيخ في «الثواب»[2].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن خلف بن تميم قال: التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق بمكة، فقال ابراهيم لشقيق: ما بدو أمرك الذي بلغك هذا؟

فقال: سِرْتُ في بعض الفَلَوات، فرأيتُ طيراً مكسور الجناحين في فلاةٍ من الأرض، فقلت: انظر من أين يرزق هذا؟ فقعدتُ حذاءه، فإذا أنا بطائرٍ قد أَقْبل في منقاره جرادة وضعها في منقار الطير المكسور الجناح، فقلت لنفسي: يا نفس! الذي قيض هذا الطير الصحيح لهذا الطير المكسور الجناحين في فلاةٍ من الأرض هو قادرٌ أن يرزقني حيثما كنت، فتركتُ الكسب واشتغلتُ بالعبادة.

فقال له إبراهيم: يا شقيق! ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذي أطعم العليل فتكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي ﷺ «الْيَدُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٢٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٣٣).

الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىْ»؟

ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار.

فأخذ يد إبراهيم فقبلها، وقال له: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق[1].

وفي هذه القصة إشارة إلى أنَّ من الطير من يفضل على غيره، ويكون في معونته وحاجته، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون أعجز من الطير في ذلك.

وروى أبو داود في «مراسيله» عن أبي قلابة رحمه الله تعالى: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحبٍ لهم خيراً، قالوا: ما رأينا مثل هذا قط، ما كان في مسير إلا كان في قراءة، ولا نزلنا منزلاً إلا كان في صلاة.

قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ كَانَ يَكْفِيْهِ ضَيْعَتُهُ حَتَّىْ ذَكَرَ مَنْ كَانَ يَعْلِفُ جَمَلَهُ أَوْ دَابَّتَهُ».

قالوا: نحن.

قال: «فَكُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ»[2].

وروى الطبراني بإسناد صحيح، عن زيد بن ثابت، عن النبي ﷺ قال: «لا يَزَالُ اللهُ فِيْ حَاجَةِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِيْ حَاجَةِ أَخِيْهِ»[3].

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٦٤).

(٢) رواه أبو داود في «المراسيل» (ص: ٢٣٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٨٠١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٣): رجاله ثقات.

ورواه مسلم، وغيره[1].

وللشيخ العلامة أحمد بن أحمد بن أحمد الطيبي الشافعي رحمه الله تعالى، وسمعته منه: [من الطويل]

وَخَيْرُ عِبادِ اللهِ أَنْفَعُهُمْ لَهُمْ ... رَواهُ عَنِ الأَثْباتِ كُلُّ نَبيهِ

وَإِنَّ إِلَهَ العَرْشِ جَلَّ جَلالُهُ ... يُعِينُ الفَتَى ما دامَ عَوْنَ أَخِيهِ

وقلت: [من مجزوء الرجز]

أَعِنْ أَخاكَ فِي الَّذِي ... لَيْسَ يَكُونُ الإِثْمُ فِيهِ

فَاللهُ فِي عَوْنِ الفَتَى ... ما كانَ فِي عَوْنِ أَخِيهِ

ـ ومن أحوال الطير: التبكير بالطاعة والذكر، وطلب الرزق.

روى الخطيب عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الطَّيْرَ إِذَا أَصْبَحَتْ سَبَّحَتْ رَبَّهَا وَسَأَلَتْ قُوْتَ يَوْمِهَا»[2].

وتقدم عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه: إِنَّ الْعَصَافِيْرَ قَبْلَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَسْأَلُ قُوْتَ يَوْمِهَا[3].

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يُباكر ذكر الله تعالى وطاعته؛ فقد امتنَّ الله تعالى على المستغفرين بالأسحار، وأرشد إلى التَّسبيح بالعشي والإبكار.

---

(1) رواه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١١/ ٩٧).

(3) تقدم تخريجه.

ثم ينبغي له أن يُبكر في طلب الرزق بعد الفراغ من وظيفة الصلاة والذكر بعدها.

روى أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجه، وصححه ابن حبان، عن صخر بن رفاعة الغامدي رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِيْ بُكُوْرِهَا».

وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار.

وكان صخر تاجراً، وكان يبعث بتجارته من أول النهار؛ فأثرى وكثر ماله[1].

وفي رواية أشار إليها ابن عبد البر: «بُوْرِكَ لأُمَّتِي فِيْ بُكُوْرِهَا»[2].

وروي هذا الحديث عن جماعة منهم علي، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو هريرة، وأنس، وعبدالله بن سلام، والنواس ابن سمعان، وعمران بن الحصين، وجابر، ونبيط بن شريط، وبريدة، وأوس بن عبدالله، وعائشة، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

وقد جمعها الحافظ عبد العظيم المنذري في جزء، وأشار إليها في «الترغيب»[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢) وحسنه، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٣٣)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥٥).

(٢) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٧١٦).

(٣) انظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٢/ ٣٣٦) وقال: وفي كثير من أسانيدها مقال، وبعضها حسن، وقد جمعتها في جزء وبسطت الكلام عليها.

وروى البزار، والطبراني في «الأوسط» بإسناد ضعيف، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «بَاكِرُوْا فِيْ طَلَبِ الرِّزْقِ وَالْحَوَائِجِ، فَإِنَّ الْغُدُوَّ بَرَكَةٌ وَنَجَاحٌ».

ولا ينبغي له التبكير إلى غير الطاعة كالذين يبكرون إلى بيوت القهوة قبل المسجد، فيتعوضون بالغناء واللهو عن الذكر والصلاة، فيكونون ممن اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة.

وإذا بكر في طلب الخير وابتغاء الرزق فليكن تبكيره بالنية الصالحة والإخلاص في العمل؛ فربَّ مُبكر في الخير صورةً ونيته غير ممدوحة ولا مشكورة.

وقد روى الطبراني في «معاجمه» الثلاثة ـ وقوَّاه المنذري، وضعفه العراقي، وهو صحيح المعنى يشهد له الكتاب والسنة ـ عن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم، فنظر إلى شاب ذي جَلَد وقوة وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا لو كان جَلَده وشبابه في سبيل الله!

فقال النبي ﷺ: «لا تَقُوْلُوْا هَذَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَىْ عَلَىْ نَفْسِهِ لِيَكُفَّهَا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَيُغْنِيهَا عَنِ النَّاسِ فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىْ عَلَىْ أَبَوَيْنِ ضَعِيْفَيْنِ أَوْ ذُرِّيَّةٍ ضِعَافٍ لِيُغْنِيهِم وَيَكْفِيَهُمْ فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىْ تَفَاخُراً وَتَكَاثُراً فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ الشَّيْطَانِ»[1].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ١٢٩)، و«المعجم الأوسط» =

ـ ومن أحوال الطير: استئناسه بجنسه ونفوره عن غير جنسه.

والمطلوب من العبد أن يأنس بأهل الذِّكر والطاعة، ويفر من أهل الغفلة والمعصية.

كما روى أبو نعيم عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: أن عبد الملك بن مروان قدم المدينة، فبعث حاجبه إلى سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى فقال: أجب أمير المؤمنين.

قال: وما حاجته؟

قال: لتتحدث معه.

فقال: لست من حدَّاثه.

فرجع الحاجب إليه، فأخبره، فقال: دعه[1].

وروى ابن جهضم في «بهجة الأسرار»: أن بشر بن الحارث ذكر أن الأوزاعي كتب إلى إبراهيم ابن أدهم: إني أحب أن أصحبك.

فكتب إليه إبراهيم: إن الطير إذا طار مع غير شكله من الطير طار وتركه.

والمعنى في ذلك: أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى خرج عن الدنيا، وأقبل على الاشتغال بالله تعالى، والعمل له على وجه دقيق

= (٧٨٣٥)، و«المعجم الصغير» (٩٤٠). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٢): رجاله رجال الصحيح.

وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٤١٧).

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٩).

الورع واجتناب خفي الشبه، والأوزاعي رحمه الله تعالى ـ وإن كان من زهاد العلماء ونقاد الحكماء ـ إلا أنه لم يكن من شكل إبراهيم، ولا إبراهيم من شكله، وكفاك لذلك نظيراً قصة موسى والخضر عليهما السلام، وقول الخضر لموسى عليهما السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[الكهف: ٧٨].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: الناس أشكال كأجناس الطير؛ الحمام مع الحمام، والبط مع البط، والصعو مع الصعو، والغراب مع الغراب، وكل إنسان مع شكله[1].

وحُكِيَ أنه كان يتكلم قبل ذلك، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى حمامةٍ تمشي مع غراب، فعجب من ذلك، وقال: اتفقا وليسا من جنس واحد، فلما طارا إذا هما أعرجان؛ قال: لذلك اتفقا.

والإشارة بذلك إلى أن الإنسان ـ وإن كان جنسه واحداً ـ فإن النوع يكون مع مثله من ذلك النوع كالعربي مع العربي، والفارسي مع الفارسي، والرومي مع الرومي، وكالعالِم مع العالِم، والتاجر مع التاجر، والعامي مع العامي، فإذا اتفق واحد من هذا النوع مع آخر من غير ذلك النوع فإنهما يتفقان لمعنى فيهما، إذا فتشت عنه رأيته.

ـ ومن أحوال الطير: خلو قلوبها لأمثالها من أجناسها من الحقد

---

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤٢٥).

والغل إلا ما كان من الديكة والكباش، ونحوهما في بعض الأحيان.

وسبب ذلك: أن الطير لمَّا كان مسيرها في الهواء ومَرَاحها في الفضاء اتسعت أخلاقها، وسلمت قلوبها.

وكذلك ينبغي للعبد أن يكون واسع الأخلاق دمثها، سليم القلب من الغل والحقد والحسد، والشقاق والنفاق.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[الحجر: ٤٧].

وروى الإمام أحمد، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ»[١]؛ أي: فارغة من كل شيء سوى ذكر الله تعالى، وطلب ما يعنيها.

- ومن أحوال كثير من الطير: الاستئناس بالله تعالى والانفراد عن الخلق.

وذلك مطلوب من الآدمي في محله على ما سبق بيانه.

وروى الدينوري عن وهب قال: أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل إن أردتَ أن تسكن معي غداً حظيرة القدس فكن في الدنيا وحيداً فريداً مهموماً محزوناً كالطائر الوحداني، يطير في رياض الفلا، ويَرِدُ ماء العيون، يأكل أطراف الشجر، فإذا جَنَّ عليه الليل آوى وحده استيحاشاً من الطير، واستئناساً بربه[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣١)، ومسلم (٢٨٤٠).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٠٩).

وروى الحارث بن أبي أسامة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لا يَسْلَمُ لِذِيْ دِينٍ دِيْنُهُ إِلاَّ مَنْ فَرَّ بِدِيْنِهِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ، وَمِنْ جُحْرٍ إِلَىٰ جُحْرٍ كَالطَّيْرِ بِأَفْرَاخِهِ، وَكَالثَّعْلَبِ بِأَشْبَالِهِ»[1].

ومن شواهده حديث الأئمة مالك، وأحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبي داود، والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يُوْشِكُ أَنْ يَكُوْنَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَماً، يَتَتَبَّعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِيْنِهِ مِنَ الْفِتَنِ»[2].

وروى البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «يُوْشِكُ أَنْ يَكُوْنَ خَيْرَ النَّاسِ رَجُلٌ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسِهِ، يُجَاهِدُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَيَعْتَزِلُ شِرَارَ النَّاسِ، وَرَجُلٌ بَادٍ فِيْ نَعْمٍ لَهُ يُؤَدِّيْ حَقَّهَا وَيُقْرِيْ الضَّيْفَ»[3].

ومن الطير ما يأنس بالناس كاليمام، وهي التي تألف البيوت من الحمام كما قال الكسائي[4].

والفواخت والعصافير؛ فإنها إذا خلت مدينة من أهلها ذهبت معها العصافير، فإن عادوا إليها عادَتْ كما تقدم.

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٧٧٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٩٦).

(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١٢/ ٦٤٨) (مادة: يمم).

والخطاف؛ روى الثعلبي، وغيره: أن آدم عليه السلام لمَّا أُخرج من الجنة شكا إلى الله الوحشة، فآتاه الخطاف، فأسكنها البيوت، وألزمها إياه، فهي لا تفارق بني آدم أُنساً بهم[1].

وكذلك شأن المؤمن التآلف، وفي حديث عامر المتقدم: «الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلا خَيْرَ فِيْمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ»[2].

وروى الإمام أحمد، ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِيْنَ فِيْ تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَىْ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىْ»[3].

ويجمع بين هذا الخُلق والذي قبله بأن ألفة المؤمن بالمؤمن محلها إذا كانت للإفادة والاستفادة، والنفع والانتفاع في غير إثم ولا إرادة [غير] وجه الله تعالى.

وفرار المؤمن من الناس حين لا يجد في الاجتماع فائدة أُخروية، وحين يكون الاجتماع شاغلاً للقلب عن الطاعة، أو سبباً للوقوع في المعصية.

وفي مثل ذلك قال إبراهيم بن أدهم وغيره:

---

(١) وانظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٦٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٠)، ومسلم (٢٥٨٦).

اتَّخِــــذِ اللهَ صــــاحِباً وَكُــنْ مِــنَ النَّــاسِ جانِبــا[1]

ومن لطائف الخطاف ما ذكره الدميري، والسيوطي أنه من الطير القواطع إلى الناس، تقطع من البلاد البعيدة إليهم رغبةً في القرب منهم، ثم إنَّ الخطاطيف تبني بيوتها في أبعد المواضع عن الوصول إليها، وتُعرف عند الناس بعصفور الجنة لأنه زهد فيما في أيديهم من الأقوات، وإنما تَقْتَاتُ بالبعوض والذباب، ولا يرى واقفاً على شيء يأكله أبداً.

وفي المعنى قيل: [من الكامل]

كُنْ زاهِداً فِيما حَوَتْهُ يَدُ الـوَرَى تَضْحَى إِلَى كُـلِّ الأَنـامِ حَبـِيبا

أَوَما تَرى الْخَطَّافَ حَرَّمَ زادَهُـمْ فَغَدا مُقِيمـاً فِـي البِـلادِ رَبـِيبا

قلت: وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! دُلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس.

فقال: «ازْهَدْ فِيْ الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيْمَا فِيْ أَيْدِيْ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»[2].

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي: [من البسيط]

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠٢). وحسن النووي إسناده في «رياض الصالحين» (ص: ١٠٧).

إِنَّ القُلُوبَ إِلَى الْخَطَّافِ مائِلَةٌ

طَيْرٌ بِتَرْكِ طَعامِ النَّاسِ مَنْعُوتُ

وَالنَّاسُ يَهْوَوْنَ مَنْ خَفَّتْ مؤُونَتُهُ

وَمَنْ يُشارِكُهُمْ فِي القُوتِ مَمْقُوتُ

وقلت: [من البسيط]

لا تَزْحَمِ النَّاسَ فِي شَيْءٍ يَخُصُّهُمُ

فَيَجْعَلُونَكَ مِنْ أَعْدى أَعادِيهِمْ

وَيَلْحَظُونَكَ كَالثِّيْرانِ مِنْ حَرَدٍ

وَلَسْتَ تَأْمَنُ مِنْهُمْ فِي نَوادِيْهِمْ

تَرى الْخَطاطِيفَ فِي البُلْدانِ آمِنةً

لأَنَّها زَهِدَتْ فِيما بِأَيْدِيهِمْ

وهنا فوائد تتعلق بالخطاف:

الأولى: أن الخطاطيف تسمى زوار الصيف لأنَّها تشتي في بلاد الهند لحرارتها، وتصيف في بلاد الشام.

قال أبو إسحاق الصابي يصف الخطاف:

وَهِنْدَيَّةِ الأَوْطانِ زُنْجِيَّةِ الْخَلْقِ

مُسْوَدَّةِ الأَلْوانِ مُحْمَرَّةِ الْحَدَقْ

كَـــأَنَّ بِهـــا حُزْنـــاً وَقَـــدْ لَبِـــسَتْ لَـــهُ
حِـــداداً فَـــأَذْرَتْ مِـــنْ مَـــدامِعِها العَلَـــقْ
إذا صَرْصَـــرَتْ صَـــوْتاً تَـــأَخَّرَ صَـــوْتُها
كَمـــا صَـــرَّ ملـــوي العُـــودِ بِـــالوترِ الْحَـــذَقْ
تَـــصِيفُ لَـــدَيْنا ثُـــمَّ تَـــشْتُو بِأَرْضِـــنا
فَفِـــي كُـــلِّ عـــامٍ نَلْتَقِـــي ثُـــمَّ نَفْتَـــرِقْ[1]

والاعتبار في ذلك أنَّ الإنسان ينبغي له أن يرتاد لصيفه مكاناً يليق بالصيف، ولشتائه مكاناً يليق بالشتاء، وكذلك يتخذ لكل ما يليق به من الثياب صيانة لجسده الحامل لروحه ليكون ذلك عوناً له على طاعة الله تعالى.

ولقد امتَنَّ الله تعالى بالرحلتين على قريش في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

قال ابن زيد رحمه الله تعالى: كانت لهم رحلتان؛ الصيف إلى الشام، والشتاء إلى اليمن في التجارة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم[2].

---

(١) انظر: «يتيمة الدهر» للثعالبي (٢/ ٣١٦).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٠٧).

وقال أبو مالك: كانوا يتجرون في الشتاء والصيف، فيأخذون في الشتاء على طريق البحر وأيلة إلى فلسطين يلتمسون الرخاء، وأما الصيف فيأخذون قبل بصرى وأذرعات يلتمسون البرد. رواه سعيد بن منصور، وابن المنذر[1].

ولا شك أن الإنسان متى كان في أرض تلائمه وتوافق مزاجه كان أصفى قلباً، وأفرغ لأموره.

فلذلك امتنَّ الله تعالى عليهم بالرحلتين الموافقتين، وطالبهم بالشكر على ذلك، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

وكذلك النعمة على العباد ما كان لهم مصيف ومشتى من أرض، أو بيت أو ثوب.

وروى الخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا جاء الشتاء دخل البيت ليلة الجمعة، وإذا جاء الصيف خرج ليلة الجمعة، وإذا لبس ثوباً جديداً حمد الله تعالى وصلَّى ركعتين، وكسا الخلق[2].

الثانية: تقدم عن الثعلبي أن آدم عليه السلام لمَّا شكا إلى الله ﷻ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٦٣٧).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٨/ ٤١٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٨٦).

الوحشة آنسه بالخطاف، فلذلك لا تفارق الخطاطيف بني آدم، وفيه إشارة إلى حفظ مودَّة الآباء وتوارث الحب.

روى الطبراني في «الكبير»، والحاكم وصححه، عن عفير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْوُدُّ يُتَوَارَثُ، وَالْبُغْضُ يُتَوَارَثُ»(١).

قلت: شاهد الأول ألفة الخطاف بني آدم، وشاهد الثاني عداوة الحية بني آدم كما علمت فيما تقدم.

الثالثة: روى البيهقي عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية التابعي ـ مرسلاً ـ: أن النبي ﷺ نهى عن قتل الخطاطيف، وقال: «لا تَقْتُلُوْا هَذِهِ الْعُوَّذَ؛ فَإِنَّهَا تَعُوْذُ بِكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ»(٢).

الاعتبار في ذلك أنَّها لمَّا كانت عائذة بالناس نهى النبي ﷺ عن قتلها؛ فإنَّ من حق العوذ بنا أن تأمن من غيرنا، فكيف لا تأمن منا؛ فكيف إذا عاذ المؤمن بالله ﷻ واستجار به!

قال ﷺ: «مَنْ عَاذَ بِاللهِ فَقَدْ عَاذَ بِمَعَاذٍ». رَواه الترمذي، وغيره، وتقدم في التشبه ببني إسرائيل(٣).

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٣٤٣). قال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥١٤): فيه عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، وهو ضعيف.

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣١٨) وقال: منقطع.

(٣) تقدم تخريجه.

الرابعة: روى البيهقي ـ وقال: إسناده صحيح ـ عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما ـ موقوفاً عليه ـ أنَّه قال: لا تقتلوا الضفادع؛ فإنَّ نقيقها تسبيح، ولا تقتلوا الخطاطيف؛ فإنَّه لما خرب بيت المقدس قال: يا رب! سلطني على البحر حتى أعرفهم[1].

قلت: شكر الله تعالى ذلك للخطاف حيث حملته الغيرة لله، وبغض أعدائه على طلب ما لا يليق بحقارته وصغره من تغريقهم، فآمنه الله تعالى من القتل، وأسكنه البيوت، وحفظ على الوزغ عداوته لإبراهيم عليه السلام، فأباح قتله في الحل والحرم كما فهمت.

والاعتبار في ذلك أن العبد ينبغي له إذا عجز عن إنكار المنكر، وتغييره بيده أو بلسانه أن ينكره بقلبه، ويغضب على مرتكبه، ويبغضه طلباً لمرضاة الله تعالى.

الخامسة: روى أبو الشيخ في «العظمة» عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يَسِيْرُ فِيْ الْمَوْكِبِ إِذْ عَرَضَ فِيْ الضِّيَاءِ فَيْء، فَعَدَلَ عَنِ الطَّرِيْق، فلمَّا أَنْ نزَلَ مَنْزِلَهُ جَاءَتْ خُطَّافَةٌ فِيْ مِنْقَارِهَا شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ فَرَشَّتْ بِهِ مَكَانَهُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: أَتَدْرُوْنَ لِمَ عَدَلْتُ بِكُمْ؟ قَالُوْا: لا. قَالَ: جَاءَتْنِيْ هَذِهِ فَأَخْبَرَتْنِيْ أَنَّهَا قَدْ فَرَّخَتْ فُرُوْخَهَا وَهُنَّ وَقْعٌ عَلَى الطَّرِيْق وَإِنَّكَ إِنْ أَخَذْتَ الطَّرِيْقَ حَطَّمْتَهُنَّ

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣١٨) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

فَجَاءَتْ فَرَشَّتْ هَذَا الْمَكَانَ شُكْراً لِمَا كَانَ»[1].

قلت: والاعتبار فيه أنَّه ينبغي مكافأة الإنسان على الإحسان بقدر الإمكان، وينبغي الجود جهد المقل.

قال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ الْمُقِلِّ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُوْلُ». رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وفي رواية قلت: يا رسول الله! أي الصدقة أفضل؟

قال: «جُهْدُ الْمُقِلِّ»[2].

وقال ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ سِرٌّ إِلَىْ فَقِيْرٍ، وَجُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ». رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه[3].

ـ **ومن أوصاف الطير**: كثرة الاستيقاظ بالليل حذراً من الجوارح، والاشتغال كلما استيقظ بالهدير بذكر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء: ٤٤].

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٧٢).

(٢) رواه أبو داود (١٦٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٣٤٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٥٠٩).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧١)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١١٥): فيه علي بن زيد، وفيه كلام.

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون كثير الاستيقاظ للعبادة كلما استيقظ ذكر الله تعالى خائفاً من البَيَات.

روى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنَّه كان له مِهْراس فيه ماء، فيصلي ما قُدِّر له، ثم يصير إلى الفراش، فيغفى إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ، ثم يصلي، ثم يرجع إلى فراشه، فيغفى إغفاء الطير، ثم يثب فيتوضأ، ثم يصلي؛ يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمس مرات[1].

وقوله: إغفاء الطير؛ يعني: إنَّه كان لا يدوم نومه وغفلته، بل ينام كأنه مذعور يخاف البيات، كما أن الطير لا ينام نومة واحدة، بل تغفي وتهب خوفاً من الجوارح.

وفي كتاب الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

- **ومن أوصاف طير الليل كالبوم، والهام، والخفاش**: الاختفاء نهاراً خوفاً من كواسر الطير، وسكنى الخراب، والانفراد في الأماكن الخالية.

ومنها ما لا يبني له وَكْنة ولا عُشاً.

---

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٤٣٨).

وقد يستحسن من العبد مثل ذلك حيث كان فيه صلاح حاله، وخلوص قلبه، كما أنَّ عيسى بن مريم عليهما السلام لم يتخذ داراً ولا عقاراً.

وقد روى أبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وعنده كعب الأحبار رحمه الله تعالى، فقال كعب: يا أمير المؤمنين! ألا أخبرك بأغرب شيء قرأته في كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إن هامة جاءت إلى سليمان عليه السلام، فقالت: السلام عليك يا نبي الله.

قال: وعليك السلام يا هامة؛ أخبريني كيف لا تأكلين من الزرع.

قالت: يا نبي الله! إنَّ آدم عليه السلام أخرج من الجنة بسببه.

قال: وكيف لا تشربين الماء؟

قالت: لأنه غرق فيه قوم نوح عليه السلام، فلذلك لا أشربه.

قال لها سليمان: كيف تركت العمران ونزلت الخراب؟

قالت: لأن الخراب ميراث الله؛ فأنا أسكن ميراث الله.

قال سليمان: فما صياحك في الدور إذا مررت عليها؟

قال: أقول: ويل لبني آدم! كيف ينامون وأمامهم الشدائد.

قال: فما لك لا تخرجين بالنهار؟

قالت: من كثرة ظلم بني آدم لأنفسهم.

قال: فأخبريني ما تقولين في صياحك؟

قالت: أقول: تذكروا يا غافلين، وتهيؤوا لسفركم؛ سبحان خالق النور!

فقال سليمان عليه السلام: ليس طير من الطير أنصح لبني آدم، وأشفق من الهامة، وما في قلوب الجهال أبغض منها[1].

يشير إلى أن الجهال لا يحبون الناصحين.

- **ومن أوصاف الطير، وسائر البهائم والسباع والهوام**: التراحم الذي يكون بين الجنس منها، أو بين النوع والتعاطف إلا ما شذ كمناقرة بعض الديوك، ومناطحة بعض الكباش، وإحالة الذئاب على الذئب إذا دَمِي كما قَدَّمناه، وأخص من ذلك عطف سائر الحيوانات على أولادها ورحمتها لها، وشفقتها عليها إلا ما شذ من ذلك كالهرة التي تأكل أولادها كما قال الشاعر: [من السريع]

أَمـا تَـرى الـدَّهْرَ وَهـذا الـوَرى كَهِـرَّةٍ تَأْكُـلُ أَوْلادَهـا[2]

والأناسي أخص المخلوقات بهذه الرحمة؛ ولاسيما الشفقة على أطفالهم، وأطفال غيرهم، وعلى ضعفائهم.

روى مسلم عن أبي هريرة، وسلمان رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ للهِ تَعَالَىْ مِائَةُ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٩١).

(٢) البيت لابن المعتز، انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٢٤٣).

بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِ، فَبِـهَا يَتَعَاطَفُوْنَ وَبِـهَا يَتَرَاحَمُوْنَ، وَأَخَّرَ تِسْعاً وَتِسْعِيْنَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

فالمطلوب من العبد المؤمن الرحمة والشفقة على إخوانه من الإنس، وعلى سائر الخلق خصوصاً الضعيف من المخلوقات، وهي صفة المؤمن؛ وقسوة القلب صفة المنافق.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «خِيَارُ أُمَّتِيْ عُلَمَاؤُهَا وَخِيَارُ عُلَمَائِهَا رُحَمَاؤُهَا، أَلا وَإِنَّ اللهَ لَيَغْفِرُ لِلْعَالِمِ أَرْبَعِيْنَ ذَنْباً قَبْلَ أَنْ يَغْفِرَ لِلْجَاهِلِ ذَنْباً وَاحِداً، أَلا وَإِنَّ الْعَالِمَ الرَّحِيْمَ يَجِيْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ نُوْرَهُ قَدْ أَضَاءَ يَمْشِيْ بِهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ كَمَا يُضِـيْءُ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ». رواه أبو نعيم، والخطيب وقال: منكر، وابن عساكر[2].

وهذا الحديث ـ وإن كان منكر الإسناد ـ فإنَّ معناه صحيح[3].

روى الشيخان عن جرير بن عبدالله ﷺ قال رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمُهُ اللهُ تَعَالَىْ»[4].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قـالت: جـاء أعـرابي إلـى

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٢) عن أبي هريرة ﷺ، (٢٧٥٣) عن سلمان ﷺ.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٨٨)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٣٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ١١٨).

(٣) قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦/ ٦٤): خبر باطل متنه.

(٤) رواه البخاري (٦٩٤١)، ومسلم (٢٣١٩).

رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان ولا نقبلهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ»[١].

وروى أبو داود، والترمذي وصححه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الرَّاحِمُوْنَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ تَعَالَىْ، اِرْحَمُوْا مَنْ فِيْ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِيْ السَّمَاءِ»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله الصادقَ الصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ».

هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: حديث حسن، وفي بعض نسخه: حسن صحيح[٣].

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، والأصبهاني ـ واللفظ له ـ عن معاوية بن قرة [عن أبيه] رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إني آخذ شاة وأريد أن أذبحها فأرحمها.

قال رسول الله ﷺ: «وَالشَّاةَ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٣١٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٦٤٨١).

وروى ابن ماجه عن تميم الداري رضي الله تعالى عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ أقبل بعير يعدو حتى وقف على هامة رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا الْبَعِيْرُ! اسْكُنْ؛ فَإِنْ تَكُ صَادِقاً فَلَكَ صِدْقُكَ، وَإِنْ تَكُ كَاذِباً فَعَلَيْكَ كَذِبُكَ؛ مَعَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىْ قَدْ آمَنَ عَائِذَنَا وَلَيْسَ بِخَائِبٍ لائِذُنَا».

فقلنا: يا رسول الله! ما يقول هذا البعير؟

فقال: «هَذَا بَعِيْرٌ قَدْ هَمَّ أَهْلُهُ بِنَحْرِهِ وَأَكْلِ لَحْمِهِ فَاسْتَغَاثَ بِنَبِيِّكُمْ».

قال: فبينا نحن كذلك إذ أقبل أصحابه يتعادون، فلما نظر إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله ﷺ فلاذ بها، فقالوا: يا رسول الله! هذا بعيرنا هرب منذ ثلاثة أيام، فلم نلقه إلا بين يديك.

فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ يَشْكُوْ لِيْ فَبِئْسَتِ الشِّكَايَةُ».

فقالوا: يا رسول الله! ما يقول؟

قال: «إِنَّهُ يَقُوْلُ: إِنَّهُ رُبِّيَ فِيْ أَمْنِكُمْ أَحْوَالاً، وَكُنْتُمْ تَحْمِلُوْنَ عَلَيْهِ فِيْ الصَّيْفِ إِلَىْ مَوْضِعِ الْكَلأِ، فَإِذَا كَانَ الشِّتَاءُ رَحَلْتُمْ إِلَىْ مَوْضِعِ الدِّفْءِ، فَلَمَّا كَبُرَ اسْتَفْحَلْتُمُوْهُ فَرَزَقَكُمْ اللهُ مِنْهُ إِبِلاً سَائِمَةً، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ السَّنَةُ الْخَصْبَةُ هَمَمْتُمْ بِنَحْرِهِ وَأَكْلِ لَحْمِهِ».

فقالوا: قد والله كان ذلك يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «مَا هَذَا جَزَاءُ الْمَمْلُوْكِ الصَّالِحِ مِنْ مَوَالِيْهِ».

قالوا: يارسول الله! فإنا لا نبيعه ولا ننحره.

فقال ﷺ: «كَذَبْتُمْ، قَدْ اسْتَغَاثَ بِكُمْ فَلَمْ تَغِيْثُوْه، وَأَنَا أَوْلَى بِالرَّحْمَةِ مِنْكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قُلُوْبِ الْمُنَافِقِيْنَ، وَأَسْكَنَهَا فِيْ قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ».

فاشتراه النبي ﷺ منهم بمئة درهم، وقال: «أَيُّهَا الْبَعِيْرُ! اذْهَبْ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىْ».

فرغا على هامة رسول الله ﷺ، فقال: «آمِيْنَ»، ثم رغا فقال: «آمِيْنَ»، ثم رغا، فقال: «آمِيْنَ»، ثم رغا الرابعة، فبكى رسول الله ﷺ، فقلنا: يارسول الله! ما يقول هذا البعير؟

قال: «قَالَ: جَزَاكَ اللهُ أَيُّهَا النَّبِيُّ عَنِ الإِسْلامِ وَالْقُرْآنِ خَيْرَاً، فَقُلْتُ: آمِيْنَ، ثُمَّ قَالَ: سَكَّنَ اللهُ رُعْبَ أُمَّتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا سَكَّنْتَ رُعْبِيْ، فَقُلْتُ: آمِيْنَ، ثُمَّ قَالَ: حَقَنَ اللهُ دِمَاءَ أُمَّتِكَ مِنْ أَعْدَائِهَا ـ يَعْنِيْ: مِنْ الْكُفَّارِ ـ كَمَا حَقَنْتَ دَمِي، فَقُلْتُ: آمِيْنَ، ثُمَّ قَالَ: لا جَعَلَ اللهُ بَأْسَ أُمَّتِكَ بَيْنَهَا، فَبَكَيْتُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْخِصَالَ سَأَلْتُ رَبِّيْ فَأَعْطَانِيْهَا، وَمَنَعَنِيْ هَذِهِ، وَأَخْبَرَنِيْ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنِ اللهِ تَعَالَىْ أَنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بِالسَّيْفِ، جَرَىْ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ»[1].

وروى ابن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، [عن رسول الله ﷺ] قال: «دَنَا رَجُلٌ إلى بئرٍ، فنزَلَ فشَرِبَ منها،

---

(١) كذا عزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٤٤) لابن ماجه.

وعلى البئرِ كلبٌ يَلْهثُ، فرَحِمَهُ، فَنَزَعَ أحدَ خُفَّيهِ فَسَقَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ له، فأدخلَهُ الجنَّةَ»[1].

وهو عند مالك في «الموطأ»، والشيخين، وأبي داود أبسط من هذا: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِيْ بِطَرِيْقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ فَوَجَدَ بِئْرَاً فَنزَلَ فِيْهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَىْ مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِيْ بَلَغَ مِنِّيْ فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَ بِفِيْهِ حَتَّىْ رَقِيَ فَسَقَىْ الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهَ لَهُ».

فقالُوْا: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ لَنَا فِيْ الْبَهَائِمِ أَجْرَاً؟

فقال: «فِيْ كُلِّ كَبْدٍ حَرَّى رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[2].

وروى الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُصْغي للهرة الإناء فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها[3].

ولا شك أنَّ هذا من الرحمة.

وروى أبو داود الطيالسي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٤٣).

(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٢٩)، والبخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٢٢٤٤)، وأبو داود (٢٥٥٠).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩٤٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٠٨).

رسول الله ﷺ رحيماً بالعيال[1].

وأخرجه ابن عساكر، وقال: كان أرحم الناس بالصبيان والعيال[2].

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، وعنه قال: كان رسول الله ﷺ رحيماً، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده وأنجز له إن كان عنده[3].

ويكفي في وصفه بالرأفة والرحمة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك متخلقاً بهذه الأخلاق الكريمة، ولا تتم له إلا بالعلم، فمن جمع بين العلم والرحمة، وأجراهما مجراهما، فهو أفضل الناس اتباعاً للنبي ﷺ، ولذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أرحم الأمة بالأمة؛ أي: بعد رسول الله ﷺ.

وروى ابن جرير عن أبي صالح الحنفي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ رَحِيْمٌ يُحِبُّ الرَّحِيْمَ، يَضَعُ رَحْمَتَهُ عَلَى كُلِّ رَحِيْمٍ».

قالوا: يا رسول الله! إنَّا لنرحم أنفسنا وأموالنا وأزواجنا.

---

(١) رواه الطيالسي في «المسند» (٢١١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٨).

قال: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ كُونُوا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]»[1].

وقلت: [من الخفيف]

أَرْحَمُ النَّاسِ بِالأَنامِ نَبِيٌّ ... وَصَفَ اللهُ بِالرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِي يَقْتَدِي بِهِ فِي هُداهُ ... فَهْوَ أَوْلَى الوَرَى بِوَصْفِ العَلِيمِ

كُنْ رَؤُوفاً بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ... تَلْقَ رُحْمَى مِنَ الرَّحِيمِ العَظِيمِ

وَقُساةُ القُلُوبِ أَحْرى مِنَ اللـ ... ـهِ بِبُعْدٍ عَنِ الْمَقامِ الكَرِيمِ

وَذَوُو الرَّحْمَةِ الكِرامُ حَرِيُّو ... نَ بِها وَهْيَ عَيْنُ دارِ النَّعِيمِ

ومن شأن الطير اللازم لها ما وقعت الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[الملك: ١٩].

قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ أي: أجنحتهن يبسطنها مصفوفة.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾؛ أي: يضربن بأجنحتهن بسطاً وقبضاً، وبذلك يتيسر لها الطيران كما قال تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام: ١٣٨].

والتشبه بالطير، والطيران على وجهين:

الأول: أن يكون بالهمة وطلب المعالي والمعارف كما قال

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١١/ ٧٨).

الشيخ نجم الدين المعروف بالكبري: المريد سيار، والعارف طيار.

والثاني: أن يكون على الحقيقة، وذلك لا يتهيأ إلا لبعض أولياء الله تعالى على وجه الكرامة وخرق العادة، ولا يكون ذلك بالتعمل، وإنما يكون إكراماً من الله تعالى لمن شاء من عباده من أهل اليقين.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال في عيسى عليه السلام ـ وقد ذكر أنه كان يمشي على الماء ـ قال: «لَو ازْدَادَ يَقِيْناً لَمَشى فِيْ الْهَوَاءِ»[1].

قال أبو علي الدقاق: أشار النبي ﷺ بذلك إلى مقام نفسه ليلة المعراج؛ أشار إليه الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته» في باب اليقين.

وقال في باب الكرامات: وحكيَ عن أبي عمران الواسطي قال: انكسرت بنا السفينة، وبقيت أنا وامرأتي على لوح، وقد ولدت في تلك الحالة صبية فصاحت بي، وقالت: يقتلني العطش.

فقلت: هو ذا تَرَينَ حالنا.

فرفعت رأسي فإذا رجل جالس في الهواء وفي يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر، وقال: هاك اشربا.

قال: فأخذت الكوز، وشربنا منه، فإذا هو أطيب من المسك، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، فقلت: مَنْ أنت يرحمك الله تعالى؟

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٦) عن وهيب المكي. قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٢٢): حديث منكر.

فقال: عبد لمولاك.

فقلت: بم وصلت إلى هذا؟

فقال: تركت هواي لمرضاته، فأجلسني في الهواء، ثم غاب عني فلم أره.

قال: وقيل: كان لإبراهيم بن أدهم صاحب يقال له: يحيى، يتعبد في غرفة ليس لها سلم ولا درج، فكان إذا أراد أن يتطهر يحرك باب الغرفة، ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويمر في الهواء كأنه طائر ثم يتطهر، فإذا فرغ يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويعود إلى غرفته.

وقد تقدم أن هذه الكلمة هي التي تقولها الملائكة عليهم السلام إذا أراد الواحد منهم هبوطاً أو صعوداً، وبها أقلت حملة العرش العرش بعد أن لم يقدروا عليه، ولهذه الكلمة سر عظيم، وهي من كنوز العرش، وقد سبق فضلها.

ثم إن الكرامة بالمشي على الماء أو في الهواء لا ينبغي أن يتعجب من وقوعهما لبعض أولياء الله تعالى بعد أن تيسر ذلك للحوت والطير.

وقد يتفق مثل هذا الخارق لغير ولي؛ إما على سبيل الاستدراج، وإما من باب السيمياء والإيهامات، وذلك لا فضلية فيه بخلاف ما كان على وجه الكرامة.

قال القشيري: قيل لأبي يزيد ـ يعني: البسطامي ـ [فلان] يمشي ليلاً إلى مكة؟

فقال: الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب.

وقيل له: فلان يمشي على الماء؟

فقال: الطير يطير في الهواء، والحوت يمر على الماء.

ـ ومن أحوال الطير أو أكثرها: المزاوجة.

فكل طائر ذكر وله أنثى يعطف عليها وتعطف عليه بخلاف غيرها من البهائم؛ فإن الذكر منها يأتي كل أنثى، والأنثى منها تقبل كل ذكر، وممَّا شذ من الطير في ذلك الديك؛ فإنهم عدُّوا من خصاله التي لا تحمد أنه لا يحنو على ولده، ولا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبع.

ومن لطائف بعض الأدباء: [من السريع]

قَدْ ماتَ دِيكٌ عِنْدَ جارٍ لَنا ... صاحَتْ دَجاجاتٌ عَلى قَبْرِهِ
أَذانُه طَوَّلَ مِنْ عُمْرِهِ ... وَفِسْقُهُ قَصَّرَ مِنْ عُمْرِهِ

وكذلك ينبغي للإنسان أن تكون شهوته مقصورة على حليلته، ولا يفضي بها إلى كل أنثى [. . .][1] كما تقدم.

ثم ينبغي له أن يعطف على أهله ويستوصي بها، وللمرأة أن تعطف على بعلها، وتقوم بخدمته ورعايته.

---

(١) ثلاث كلمات غير واضحة في «أ»، وموضعها بياض في «ت».

وفي الحديث المتقدم «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ»(١).

وروى الطبراني في «الكبير» عن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ النِّسَاءِ مَنْ تَسُرُّكَ إِذَا أَبْصَرْتَ، وَتُطِيْعُكَ إِذَا أَمَرْتَ، وَتَحْفَظُ غَيْبَكَ فِيْ نَفْسِهَا وَمَالِكَ»(٢).

وروى الإمام أحمد، والنسائي بسند صحيح، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ الَّتِيْ تَسُرُّ زَوْجَهَا إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيْعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلا تُخَالِفُهُ فِيْ نَفْسِهَا وَلا مَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ».

وفي رواية: «وَتَحْفَظُهُ فِيْ نَفْسِهَا وَمَالِهِ»(٣).

وروى أبو داود نحوه ـ بسند صحيح ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما(٤).

وروى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «النِّسَاءُ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِيْ مَالِهَا وَنَفْسِهَا»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٧٣): رواه الطبراني، وفيه رزيك ابن أبي رزيك، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥١)، والنسائي (٣٢٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٢٦٨٢).

(٤) رواه أبو داود (١٦٦٤).

(٥) رواه الطبري في «التفسير» (٥/ ٦٠).

ـ ومن أحوال الطير ـ خصوصاً أشرافها ـ: علو الهمة، وبلوغ المآرب بالطيران.

وكذلك ينبغي للمؤمن أن تعلو همته وتتشوَّف بها إلى بلوغ مآربه من مرضاة الله بطاعته، فلا يرضى بمنزلة دون الجنة كما قيل لبعض العارفين: فلان يعبد الله؛ قال: إذاً لا يرضى بمنزلة دون الجنة.

وإلى قضاء حوائج إخوانه، ونفع ذويه بجاهه وماله، وطلب الإخوان في الله تعالى، وزيارتهم، وعيادة مرضى المسلمين، وتشييع جنائزهم، وتهنئتهم وتعزيتهم، وغير ذلك مما تبلغه همم الرجال.

ولير نفسه إذا قصر عن بلوغ المآرب الأخروية والدنيوية بالهمة كأنه مقصوص الجناحين.

ومن لطائف القاضي عياض ما أنشده له ابن خلكان:

اللهُ يَعْلَـمُ أَنَّـي حِـينَ لَـمْ أَرَكُـمْ ... كَطـائِرٍ خانَـهُ رِيـشُ الْجَنـاحَيْنِ

فَلَوْ قَدِرْتُ رَكِبْتُ البَحْرَ نَحْوَكُمُ ... فَإِنَّ بُعْدَكُمْ عَنِّي جَنَـى حِينِـي[1]

وروى البيهقي في «الشعب» عن أبي علي الروذباري رحمه الله تعالى قال: الخوف والرجاء كجناحي الطائر؛ إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه، وإذا انتقص واحد منهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا جميعاً صار الطائر في حد الموت، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا[2].

---

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٤٨٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٧).

وقلت: [من مجزوء الرمل]

إِنَّ خَــــوْفِي وَرَجَــــائِي كَجَنَــــاحَيْنِ لِطَيْــــرِ

بِهِمَــا أَظْفَــرُ مَهْمَــا اعْــــتَدَلا مِنِّــي بِخَيْــرِ

- ومن أحوال الطير والوحش: الإمساك يوم عاشوراء عن الطعام والشراب.

روى الأصبهاني في «الترغيب» عن قيس بن عباد رحمه الله تعالى قال: بلغني أن الوحش كانت تصوم يوم عاشوراء[1].

وروى ابن قانع في «معجمه» عن سلمة بن أمية قال: رآني رسول الله ﷺ وعلى يدي صرد فقال: «هَذَا أَوَّلُ طَيْرٍ صَامَ».

وفي رواية: «أَوَّلُ طَيْرٍ صَامَ يَوْمَ عَاشُوْرَاءَ»[2].

قال الحاكم: هذا حديث باطل، انتهى[3].

وممن خرجه أبو موسى المديني، والخطيب[4].

وروى الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: الصرد أول طير صام[5].

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٤١).

(٢) رواه ابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ٢٧٦).

(٣) انظر: «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» لعلي القاري (ص: ٢٦٤).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٩٥).

(٥) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٤).

والصرد ـ بضم الصاد المهملة، وفتح الراء ـ: طائر فوق العصفور، نصفه أبيض ونصفه أسود، ضخم الرأس والمنقار، عظيم الأصابع، ممتنع لا يقدر عليه أحد.

وروى الأصبهاني عن الفتح بن شخرف ـ وكان رحمه الله تعالى من الزهاد ـ قال: كنت أفُت للنمل خبزاً كل يوم، فلما كان يوم عاشوراء لم تأكل.

وروى أبو موسى المديني عن رجل أتى البادية في يوم عاشوراء، فرأى قوماً يذبحون ذبائح، فسألهم عن ذلك، فأخبروه أن الوحوش صائمة، وقالوا: اذهب بنا نرى، فذهبوا إلى روضة فأوقفوه، فلما كان بعد العصر جاءت الوحوش من كل وجه، فأحاطت بالروضة رافعة رؤوسها، ليس شيء منها يأكل حتى إذا غابت الشمس أسرعت جميعاً فأكلت.

قلت: لعل الحكمة في صوم الوحوش والطير يوم عاشوراء: أنَّ سفينة نوح عليه السلام استوت على الجُودي يوم عاشوراء، فهي تصوم خصوصية لذلك اليوم.

كما روى الأصبهاني، وغيره عن أبي هريرة قال: إنَّ سفينة نوح عليه السلام استوت على الجودي يوم عاشوراء، فصام نوح عليه السلام ذلك اليوم، وصامته الحيوانات التي كانت معه في السفينة[1].

---

(١) ورواه الطبري في «التفسير» (١٢/ ٤٧) لكن عن عبد العزيز بن عبد الغفور عن أبيه.

ولا يلزم أن تصوم عاشوراء سائر الحيوانات؛ فإنها غير مكلفة، وإنما يصومه منها الطير والوحش، أو شيء منها بإلهام من الله تعالى لتبقى آثار معجزة نوح عليه الصلاة والسلام كما بقيت له آثار معجزة أخرى، وهي ما رواه الثعلبي بإسناده عن مالك بن سليمان الهروي: أن الحية والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام، فقالتا: احملنا.

قال: إنكما سبب الضرر والبلايا والأوجاع، فلا أحملكما.

قالتا: احملنا؛ فإنَّا نضمن لك أن لا نضر أحداً ذَكَرَك، فمن قرأ حين يخاف مضرتهما: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٩ ـ ٨١] ما ضرتاه[١].

وروى ابن عبد البر في «التمهيد» عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: بلغني أن من قال حين يمسي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]؛ لم يلدغه عقرب[٢].

وروى ابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِيْنَ يُمْسِي: صَلَّى اللهُ عَلَىْ نُوْحٍ وَعَلَىْ نُوْحٍ السَّلامُ، لَمْ يَلْدَغْهُ عَقْرَبٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ»[٣].

وكما بقيت آثار آية الله تعالى في هلاك قوم هود عليه السلام

---

(١) رواه الثعلبي في «التفسير» (٥/ ١٧٠).

(٢) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٢١/ ٢٤١).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٥٦).

بالريح العقيم في الأيام الثمانية والليالي السبع الحُسُوم في عجز الشتاء بحيث يظهر فيها في كل عام الرياح الباردة والتغيرات الظاهرة.

- **ومن ذلك النحل**؛ فإنَّ لها أخلاقاً مدحها الشرع، وأرشد الشارع ﷺ إليها؛ فينبغي للمؤمن أن يتخلق بها.

روى ابن حبان في «صحيحه»، والطبراني في «الكبير» عن أبي رزين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ لا تأْكُلُ إلا طَيِّبًا، وَلا تَضَعُ إلا طَيِّبًا»[1].

وروى الرامهرمزي في «الأمثال»، والحاكم وصححه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلَةِ أَكَلَتْ طَيِّباً وَوَضَعَتْ طَيِّباً، وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُفْسِدْ وَلَمْ تكْسِرُ، وَمَثَلُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْقِطْعَةِ الْجَيِّدَةِ مِنَ الذَّهَبِ نَفَخَ عَلَيْهَا فَخَرَجَتْ طَيِّبَةً وَوُزِنَتْ فَلَمْ تَنْقُصْ»[2].

ورواه البيهقي في «الشعب»، ولفظه: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّباً وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّباً وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُوْدٍ نَخْرٍ لَمْ تكْسِرْهُ»[3].

---

(1) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٢٠٤).

(2) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٥٣).

(3) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧٦٦) مرفوعاً، و(٥٧٦٥) موقوفاً، وقال: هذا هو المحفوظ بهذا الإسناد موقوف.

قوله: «إِنْ أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّباً»؛ أي: وكذلك المؤمن لا يأكل إلا طيباً وهو الحلال، وما لا مِنَّة فيه لمخلوق.

«وَإِذَا وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّباً»؛ أي: وكذلك المؤمن لا يظهر من أقواله وأفعاله إلا الطيب، وهو الحسن المقبول عند الله تعالى وعند المؤمنين، لا يتكلم إلا بخير، ولا يتحرك إلا في خير، ولا يجد الناس منه إلا خيراً، ولا يقول في أحد إلا خيراً، ولا يظن في مؤمن إلا خيراً، ولا يضره قول المنافقين، ولا ذم من لا يذم بحق، أو من يتكلم بغرض النفس، أو من لا يعرف الحق من الباطل، كما لا يضر النحلة من يذمها باللسع ويعرض عن العسل، والنحلة لا تلسع أذية بل دفعاً للأذى عنها، وكذلك المؤمن لا يضره الانتصار بحق، والمؤمن لا ينوي إلا خيراً، ولا يريد بعمل ولا بقول إلا الخير، ولا يسلك إلا سبيل الخير، كما أن النحلة لا تخرج من بيتها إلا للاجتناء الطيب سالكة سبل ربها ذُلُلاً كما أمرها الله تعالى.

وقوله ﷺ: «وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَىٰ عُوْدٍ نَخِرٍ لَمْ تكْسِرْهُ»؛ أي: وكذلك المؤمن لين العَرِيكة لا يصيب الناس منه أذى، وإن استضعفهم فمؤنته خفيفة وكُلفته لطيفة، وسيرته نظيفة، ونفسه كريمة عفيفة.

والمراد من الحديث: تهييج الأمة إلى التخلق بهذه الأخلاق التي لا يتحقق الإيمان إلا بها.

وقال ابن الأثير: وجه المشابهة بين المؤمن والنحلة حذق النحل وفطنته، وقلة أذاه وحقارته، ومنفعته وقنوعه، وسعيه في النهار، وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله؛ فإنه لا يأكل من كسب غيره، ونُحُولُه وطاعته

لأميره، وأنَّ للنحل آفات تقطعه عن عمله؛ منها: الظلمة، والغيم، والريح، والدخان، والماء، والنار، وكذلك المؤمن له آفات تفتره عن عمله: ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، وماء السمعة، ونار الهوى، انتهى[1].

وروى أبو نعيم عن أشرس بن عبد الرحمن ـ وكان فاضلاً ـ عن وهب رحمه الله تعالى قال: مر عابد براهب، فأشرف عليه، فقال: منذ كم أنت بهذه الصومعة؟

قال: منذ ستين سنة.

قال: وكيف صبرت فيها ستين سنة؟

فقال: من آفات الدنيا.

ثم قال: يا راهب! كيف ذكرك للموت؟

قال: ما أحسب عبداً يعرف أنه لا يأتي عليه ساعة لا يذكر الموت فيها، وما أرفع قدماً إلا وأنا أظن أني لا أضعها حتى أموت، وما أضع قدماً إلا وأنا أظن أني لا أرفعها حتى أموت.

قال: فجعل العابد يبكي، فقال له الراهب: هذا بكاؤك في العلانية، فكيف أنت إذا خلوت؟

فقال العابد: إني لأبكي عند إفطاري فأشرب شرابي بدموعي، وآكل طعامي بدموعي، ويصرعني النوم فأبل مضاجعي بدموعي.

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ٢٨).

قال له: إنك أن تضحك وأنت معترف لله بذنبك خير لك من أن تبكي وأنت تمن على الله ﷻ بذلك.

قال: فأوصني بوصية.

قال: كن في الدنيا بمنزلة النحلة؛ إن أكلت أكلت طيباً، وإن وضعت وضعت طيباً، وإن سقطت على شيء لم تضرَّه ولم تكسره، ولا تكن في الدنيا بمنزلة الحمار؛ إنما همته أن يشبع ثم يرمي نفسه في التراب، وانصح لله نصح الكلب لأهله؛ فإنهم يجيعونه ويطردونه وهو يحرسهم.

قال أبو عبد الرحمن الشرس: وكان طاوس رحمه الله تعالى إذا ذكر هذا الحديث بكى، ثم قال: عز علينا أن تكون الكلاب أنصح لأهلها منا لمولانا ﷻ[1].

وفي هذا المعنى قال الشاطبي رحمه الله تعالى: [من الطويل]

وَقَدْ قِيلَ: كُنْ كَالْكَلْبِ يُقْصِيهِ أَهْلُهُ
وَلا يَأْتَلِي فِي نُصْحِهِمْ مُتَبَذِّلاً[2]

ومما يناسب هذا ما رُوي عن بعض أهل العلم: أن في الكلب عشر خصال ينبغي لكل مؤمن أن تكون فيه:

- إن الكلب في الغالب جائع.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٤٣).

(٢) انظر: «متن الشاطبية» (ص: ٨) (رقم البيت: ٩٠).

ـ وليس له مكان معروف.

ـ ولا ينام من الليل إلا قليلاً.

ـ ويرضى من الأرض بأردأ الأماكن.

ـ وإذا غُلِب على مكانه تركه وانصرف إلى غيره.

ـ وإذا رحل من مكان لا يلتفت إليه.

ـ وليس له ميراث.

ـ ولا يترك صاحبه وإن جفاه.

ـ وإذا ضرب وطرد ثم ألقي عليه كسرة أجاب ولم يحقد على ما مضى.

ـ وإذا حضر الطعام جلس بعيداً عن الأكل[1].

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون مُؤْثِراً للجوع، غريباً عن الناس، متواضعاً، محتملاً للأذى، غير متأسف على شيء من الدنيا، مكثراً من قيام الليل في طاعة الله تعالى، فقيراً، ودوداً، ذليل النفس، عفواً، غير حقود ولا شره.

وقال بعضهم: [من المتقارب]

تَعَلَّمْتُ أَخْلاقَ هَـذِي الكِـلابِ	وَمَنْ لِي بِأَمْثالِها فِـي صِحابِـي
وَفـاءٌ وَصَـبْرٌ وَحِفْـظُ الـذِّمامِ	وَذَبٌّ عَنِ الْخيلِ عِنْدَ الضِّرابِ

---

(١) انظر: «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» لابن المرزبان (ص: ٣٤) وقال: ينسب للحسن البصري.

وَيَــسْهَرُ إِنْ نِمْــتُ فِــي قَفْــرَةٍ　　وَيَحْفَظُنِي مِنْ ضَوارِي الـذِّئابِ

كِــلابٌ وَلَكِنَّهــا فُــضِّلَتْ　　عَلى بَعْضِ قَوْمٍ مَشَوْا فِي الثِّيابِ

وقال ابن عبد ربه في «العقد»: أهدى علي بن الجهم كلباً وكتب:

[من المنسرح]

اسْــتَوْصِ خَيْــراً بِــهِ فَــإِنَّ لَــهُ　　عِنْــدِي يَــداً لا أَزالُ أَحْمَــدُها

يَدُلُّ ضَيْفِيَ عَلَيَّ فِي غَسَقِ اللَّــ　　ــيْلِ إِذا النَّــارُ نـامَ مَوْقِـدُها[1]

وأنشد غيره للشريف الموسوي: [من الكامل]

أَنــا كَالْكَلْــبِ الَّــذِي إِنْ تُوْلِــهِ　　شُكْرَ الْجَمِيلِ غَدا لِبِرِّكَ شـاكِراً

وَإِذا تَكَرَّرَ ذاكَ مِنْـكَ إِلَيْـهِ أَضْــ　　حَى عَنْكَ للأَعْـداءِ سَيْفاً بـاتِراً

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن جعفر بن سليمان قال: رأيت مع مالك بن دينار كلباً، فقلت: ما تصنع بهذا؟

قال: هذا خير من جليس السوء[2].

وروى القاسم بن سلمة ـ بإسناده ـ عن علقمة بن عبدالله قال: أول شيء اتخذ الكلب للحراسة نوح عليه السلام؛ قال: يا رب! أمرتني أن أصنع الفلك وأنا في صناعته، أصنع أياماً فيجيئون في الليل فيفسدون كل ما عملت، فمتى يلتئم لي ما أمرتني به؟ قد طال علي أمري.

---

(١) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٦/ ٢٩٩).

(٢) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨٤).

فأوحى الله تعالى إليه: يا نوح! اتخذ كلباً يحرسك.

فاتخذ نوح عليه السلام كلباً، وكان يعمل بالنهار وينام بالليل، فإذا جاء قومه ليفسدوا بالليل نبحهم الكلب، فينتبه نوح عليه السلام، فيأخذ الهراوة، ويثب لهم فينهزمون، والتأم له ما أراد[1].

والحراسة مطلوبة لأمور الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[النساء: ٧١].

وهذا منه، وأفضلها الحراسة في سبيل الله.

وروى الترمذي وحسَّنه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ: «عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ»[2].

وروى الطبراني في «الكبير» بسند جيد، عن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا تَرَى أَعْيُنُهُم النَّارَ؛ عَيْنٌ حَرَسَتْ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ غَضَّت عَنْ مَحَارِمِ اللهِ»[3].

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٠٤٦) عن علقمة، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٤١٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٨٨): فيه أبو حبيب العنقزي ويقال: القنوي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

ومن لطائف الشريف أبي المختار أحمد بن محمد العلوي ما كتبه إلى بعض الأمراء: [من الوافر]

مَرَرْتُ عَلى كِلابِ الصَّيْدِ يوماً ... وَقَدْ أَلْقى الغُلامُ لَها سِخالاً

فَلَوْ أَنِّي وَمَنْ يَحْوِيهِ دارِي ... كِلابُكَ لَمْ نَجِدْ أَبَداً هُزالاً

فَقُلْ ما شِئْتَ فِي رَجُلٍ شَرِيفٍ ... يَكُونُ الكَلْبُ أَحْسَنَ مِنْهُ حالاً[1]

وهذا الذي قاله حال كثير من الأمراء والأجناد الآن؛ يتعاونون الصيد فيتخذون لها الكلاب، فربما أطعموها اللحوم والنفائس، وجلَّلوها بالجِلال، واستخدموا لها الرجال، وأعرضوا عن الأكباد الجائعة من الأناسي حتى أخص الناس بهم.

وهذا من الغفلة التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: «مَن اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ»[2].

بل منهم من يخرج إلى الصحراء أياماً وليالي للصيد، ثم يبيتون في بعض القرى، فيكلفون أهلها أضعاف أضعافِ ما صادوه، وهذا ضلال مبين وظلم عظيم.

وفي المثل: كلب أعتس خير من أسد ربض.

وربما قالوا: كلب أعتس خير من أسد أندس.

وربما قالوا: كلب عس.

---

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٨/ ٩٤).

(٢) تقدم تخريجه.

وربما قالوا: كلب عائر خير من أسد رابض.

والعائر: المتردد.

قال الزمخشري: والعامة تقول: كلب طوَّاف خير من أسد رابض؛ يضرب في تفضيل الضعيف إذا تصرف في الكسب على القوي إذا تقاعس[١].

ولاشك أنَّ الحركة في طلب الرزق مع الاعتماد على فضل الله والثقة به أولى بالمؤمن من أن يكون بطالاً؛ لا سيما إذا لم يشتغل بالعبادة.

وفي المثل: كل طائر يصيد قدره.

قال الزمخشري: يضرب في إقدام المرء على ما يقدر عليه[٢].

قلت: وأبلغ منه قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهذا استطراد حسن، ولنعد إلى ما يتعلق بالنحل.

ـ **ومن أوصاف النحل**: ما أشار إليه سيدنا علي رضي الله تعالى عنه فيما رواه الدينوري عنه قال: كونوا في الناس كالنحل في الطير؛ إنه ليس شيء في الطير إلا وهو يستضعفها، ولو تعلم الطير ما في أجوافها لم يفعلوا ذلك بها.

---

(١) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٢٢٢).

(٢) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٢٢٨).

وخالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم؛ فإن للمرء ما كسب، وهو يوم القيامة مع من أحب[1].

وقد اشتمل هذا الكلام إلى إرشاد العبد إلى أن يكون في الظاهر مستضعفاً، مَهيناً لا يؤبه به، وفي باطن أمره يكون مقبلاً على أعمال الخير متعبداً بها، مخلصاً فيها صادقاً في كل أحواله وأنفاسه.

روى الإمام أحمد، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوْعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىْ اللهِ لأَبَرَّهُ»[2].

ورواه الحاكم وصححه، وأبو نعيم، ولفظه: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِيْ طِمْرَيْنِ تَنْبُوْ عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىْ اللهِ لأَبَرَّهُ»[3].

وروى البزار عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «رُبَّ ذِيْ طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ بِهِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىْ اللهِ لأَبَرَّهُ»[4].

- **ومن أوصاف النحل**: الدوي في ذكر الله تعالى، وهو تسبيحها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) ورواه الدارمي في «السنن» (٣١٢).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٢).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٣٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧).

(٤) رواه البزار في «المسند» (٢٠٣٥).

وقد أثنى الله تعالى على هذه الأمة بأن دويهم في مساجدهم كدوي النحل.

روى الطبراني، وابن سعد، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه سأل كعب الأحبار: كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟

فقال كعب: نجده: محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره إلى طابة، ويكون ملكه في الشام، وليس بفحاش، ولا سخاب في الأسواق، ولا يكافىء بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمَّادون يحمدون الله في كل سراء وضراء، ويكبرون الله على كل نجد، يوضؤون أطرافهم، ويأتزرون في أوساطهم، يصُفُّون في صلاتهم كما تصفون في قتالهم، دويهم في مساجدهم كدوي النحل، يسمع مناديهم في جو السماء[1].

- ومن خصال النحل: أنها لا ترعى إلا الطَّيِّب.

فالتشبه بها في ذلك يحصل بأكل الحلال.

روى مسلم، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٦٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ١٨٧)، وكذا الدارمي في «السنن» (٧).

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىْ السَّمَاءِ؛ يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبُسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّىْ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[1].

ولطف بعضهم في قوله: [من مجزوء الكامل]

رِزْقُ الـــضَّعِيفِ بِعَجْـــزِهِ ... فـــاقَ القَـــوِيَّ الأَغْلَبـــا
كَالنَّـــسْرِ يَأْكُـــلُ جِيفَـــةً ... والنَّحْـــلُ يَأْكُـــلُ طَيِّبـــاً

ـ **ومن خصال النحل**: ما أشار إليه بعض حكماء اليونان فقال لتلامذته: كونوا كالنحل في الخلايا.

قالوا: وكيف يكون النحل؟

قال: إنها لا تترك عندها بطالاً إلا أبعدته وأقصته لأنه يضيق المكان، ويفني العسل، ويعلِّم النشيطَ الكسلَ.

قال في «حياة الحيوان»: والنحل تجتمع فتقتسم الأعمال؛ بعضها يعمل الشمع، وبعضها يعمل العسل، وبعضها يستقي، وبعضها يعمل البيوت، انتهى.

فينبغي للإخوان أن يكونوا كذلك متعاونين على الخير كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩).

ومن اللطائف: ما رواه الدينوري في «المجالسة» عن الربيع بن نافع قال: سمعت من يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى حرفاً في الورع ما سمعت أحسن منه.

قلت له يوماً وقد اتخذ كوائر نحل: يا أبا محمد! لو اتخذت حماماً؟

فقال: النحل أحب إلي من الحمام؛ الحمام تدخل الغريب، والنحل لا تدع الغريب يدخل فيها، فمن هنا اتخذت النحل[1].

- **ومن النحل اليعسوب**: وهو كبير النحل ورئيسها الذي لا يتم أمرها إلا به، وكذلك المؤمنون لا بد لهم من إمام يقوم بمصالحهم، ويسد ثغورهم، ويدفع أعداءهم ومضارهم، وعليهم طاعته.

روى الخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: إن لكل شيء سيداً، حتى إنَّ للنحل سيداً[2].

وفي المثل: صار الأمر إلى النزعة؛ أي: أصحاب الأناة مع وازع؛ ذكره في «الصحاح»، وتبعه في «القاموس»[3].

وهذا المثل يضرب لاستقامة الأمر، ورده إلى من له أناة وتروٍ في

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٦٧).

(٢) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص: ١١٤).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٨٩) (مادة: نزع).

الأمور؛ لأن من كان كذلك كان له حسن تدبير.

وأورد الزمخشري في «المستقصى» المثل: صار الأمر إلى الوزعة؛ أي: الذي يكفون الجهلاء؛ يضرب في وقوع الأمر إلى من يضبطه[1].

وقال في «القاموس»: الوزعة ـ محرك ـ: جمع وازع، وهم الولاة المانعون من محارم الله، والوازع: الكلب، والزاجر، ومن يدبر أمور الجيش، ويرد من شذ منهم[2].

قال في «الصحاح»: وقال الحسن: لا بد للناس من وازع ـ أي: من سلطان ـ يكفهم؛ يقال: وزعت الجيش: إذا حبست أولهم على آخرهم.

قال الله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧].

وإنما سموا الكلب وازعاً؛ لأنه يكف الذئب عن الغنم، انتهى[3].

قلت: وهذه من خصال الكلب المحمودة منه.

وقال الزبرقان كما تقدم: [من البسيط]

---

(١) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ١٣٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٩٥) (مادة: وزع).

(٣) انظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١٢٩٧)، (مادة: وزع).

تَعْـدُو الـذِّئابُ عَلـى مَـنْ لا كِـلابَ لَـهُ
وَتتَّقِـي صَـوْلَةَ الْمُـسْتَأْسِدِ الـضَّارِي

*** لَطِيفَةٌ:**

روى الطبراني عن أبي ذر، وسلمان، والديلميُّ عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «عَلِيٌّ يَعْسُوْبُ الْمُؤْمِنِيْنَ»[1].

وهذا الحديث مما تمسك به الشيعة في تقديم علي رضي الله عنه بالخلافة، ولا دليل فيه إن صح؛ إذ المراد منه أن يكون علي رضي الله تعالى عنه أمير المؤمنين حين لا يكون أولى منه بولاية أمرهم، وإلا لكان أميرهم في حياة النبي ﷺ، وهم لا يقولون بذلك إلا من زاغ من غُلاتهم.

ثم لما مات رسول الله ﷺ كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه أولى من غيره، فقدم، ثم قدم أبو بكر عمر رضي الله عنهما لأنه أولى من غيره، ثم قدم أهل الشورى عثمان رضي الله تعالى عنه وعنهم؛ لأنه أولى من علي رضي الله عنه، ثم لم يكن بعد عثمان أولى من علي رضي الله تعالى عنه، فصار يعسوب

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٨٤) عن أبي ذر وسلمان رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠٢): فيه عمرو بن سعيد المصري، وهو ضعيف.

ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٢٩٨) عن علي رضي الله عنه.

المؤمنين حينئذ.

ومما يؤيد ذلك ما رواه الخطابي في «الغريب» بإسناده عن أسيد ابن صفوان قال: لما مات أبو بكر رضي الله تعالى عنه قام علي ﷺ على باب البيت الذي هو مسجى فيه، فقال: كنت والله للدين يعسوباً؛ أولاً حين نفر الناس عنه، وآخراً حين فيلوا، طرت بعبائها، وفزت بحبائها، وذهبت بفضائلها، كنت كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف.

قال الخطابي: اليعسوب: فحل النحل وسيدها؛ ضربه مثلاً لسبقه إلى الأحلام، ومبادرة الناس إلى قبوله، فصار الناس بعد تبعاً له كاليعسوب يتقدم النحل إذا طارت، فتتبعه طرائق مطردة.

قال: وقوله: حين فيلوا؛ أي: حين فال رأيهم فلم يستبينوا الحق في قتال مانعي الزكاة، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فلمَّا رأوا منه الجد تابعوه.

يقال: فال الرأي، وفيل: إذا لم يصب فيه، انتهى[1].

وقوله: فيلوا، وفال، وفيل؛ الكل بالفاء.

فانظر كيف وصف علي أبا بكر رضي الله تعالى عنهما بأنه كان يعسوباً أولاً بالسبق إلى الإيمان، وثانياً بالتثبت في الرأي حين رأى قتال مانعي الزكاة، فرأى بعض الصحابة خلاف رأيه، ثم رجعوا كلهم

---

(١) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٨).

إلى قوله، وتبعوه فيه حتى عليٌّ ﷺ، كما تتبع النحل يعسوبها، وذلك إجماع منهم على طاعته، وإذعان منهم لخلافته.

* تنبيهٌ:

يناسب ما سبق أن لا بد للناس من إمام يسوسهم، ويقوم بمصالحهم: أن النبي ﷺ شبه الإمام وكل قائم على قوم بالراعي لما كان في الناس من النسبة الحيوانية، فقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» الحديث.

وقال فيه: «وَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]، فشبه الإمام بالراعي والرعية بما يرعى من الأنعام ونحوها.

وكما أن في الأنعام ما له كمال الانقياد لراعيه، ومنها ما لا ينقاد له ولا يسمع زجره كذلك الناس.

قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فالرعية مطالبون بالطاعة لوالي أمرهم وراعيهم، والإمام ومَنْ يقوم مقامَه مُطالبٌ بالإحسان إليهم والنصيحة لهم.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عطية بن قيس: أنَّ أبا مسلم الخولاني أتى معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم، فقام بين السماطين، فقال: السلام عليك أيها الأجير!

---

(١) تقدم تخريجه.

فقال من عنده: صه.

فقال: السلام عليك أيها الأجير!

فقال معاوية: دعوا أبا مسلم؛ فإنه أعرف بما يريد.

قال: فتقدم، فقال: السلام عليك أيها الأجير!

فقال معاوية: وعليك السلام يا أبا مسلم.

فقال: اعلم أنه ليس من راع استرعي رعية إلا وبأجره سائله عنها؛ فإن كان داوى مرضاها، وهَنَأَ جرباها، وجبر كسراها، ورَدَّ أولاها على أخراها، ووضعها في أنف من الكلأ وصفوة من الماء، وفَّاه الله أجره، وإن كان لم يداو مرضاها، ولم يهنأ جرباها، ولم يجبر كسراها، ولم يرد أولاها على أخراها، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفوة من الماء، لم يوفه أجره؛ فانظر مَنْ أنت مِنْ ذلك يا معاوية.

فقال معاوية رضي الله تعالى عنه: يرحمك الله يا أبا مسلم! يرحمك الله يا أبا مسلم! يرحمك الله يا أبا مسلم[1]!

* **فائِدَةٌ زائِدَةٌ:**

كما ورد تمثيل المؤمنين بالنحلة ـ بالمهملة ـ ورد تمثيله بالنخلة ـ بالمعجمة ـ، وهي مصحفها.

روى الإمام أحمد، والشيخان، والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٢٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٢٢٣).

النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةٌ لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ؛ فَحَدِّثُوْنِيْ مَا هِيَ؟».

ثم قال: «هِيَ النَّخْلَةُ»[1].

ووجه التمثيل: أن المسلم لا يتعرى من جماله وكسوته؛ أعني: من أعماله الصالحة، ولا من أخلاقه الجميلة، ولا من آدابه الحسنة، كما لا تتعرى النخلة من أوراقها صيفاً ولا شتاءاً.

وأيضاً فإنه ليس في النخلة شيء إلا ينفع؛ ثمرها، وجريدها، وكربها، وليفها، وقلبها.

وكذلك المؤمن لا يكون منه إلا نفع كما روى الرامهرمزي ـ بسند جيد ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلَ النَّخْلَةِ؛ إِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ سَاكَنْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ شَارَكْتَهُ نَفَعَكَ»[2].

ـ **ومن ذلك النمل:** وإنما ذكرته مع الطير لأنه يطير آخر عمره كما تقدم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤٨٥٩)، والبخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٦٧).

(٢) رواه الرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص: ٦٩)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٧٢)، وأبو الشيخ في «أمثال الحديث» (ص: ٤٠٥) كلهم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

وفيه من الخصال المحمودة أنه ضعيف حتى يضرب به المثل، فيقال: أضعف من نملة.

ومع ذلك لا يدع الحركة فيما ينفعه، ولذلك سمي نملاً لتنمله، وهو كثرة حركته.

وله حيلة في طلب الرزق، فإذا وجد شيئاً أنذر إخوانه لتأتيه، ويقال: إنما يفعل ذلك رؤساؤها.

والاعتبار في ذلك أن المؤمن ينبغي له أن يتحرك في نفع نفسه ومن يعوله على قدر حاله، ولا يكون كَلاًّ على الناس، ولا يستبعد على نفسه الوصول إلى مطلوبه لضعفه كما قيل: [من السريع]

اقْنَعْ فَلا تَبْقَى بِلا بلغَة ... فَلَيْسَ يَنْسَى رَبُّكَ النَّمْلَةْ

إِنْ أَقْبَلَ الدَّهْرُ فَقُمْ قائِماً ... وَإِنْ تَوَلَّى مُدْبِراً نَمْ لَهْ

وروى الدارقطني، والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تَقْتُلُوا النَّمْلَ؛ فَإِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَسْتَسْقِيْ فَإِذَا هُوَ بِنَمْلَةٍ مُسْتَلْقِيَةٍ عَلَىْ قَفَاهَا رَافِعَةً قَوَائِمَها تَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ، لا غِنَىْ لَهُ عَنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ لا تُؤَاخِذْنَا بِذُنُوْبِ عِبَادِكَ الْخَاطِئِيْنَ، وَاسْقِنَا مَطَراً تُنْبِتُ لَنَا بِهِ شَجَراً وَأَطْعِمْنَا ثَمَراً، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلامُ: ارْحَلُوْا فَقَدْ كُفِيْنَا وَسُقِيْتُمْ بِغَيْرِكُمْ»[1].

---

(1) رواه الدارقطني في «السنن» (٢/ ٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٢١٥) ولفظهما: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقي، فإذا هو بنملة =

والاعتبار في ذلك أن العبد لا ينبغي له أن يكون مقصراً في الدعاء عند الطاعات والاضطرار، فيكون أعجز من هذه النملة، وإذا كان الله تعالى يجيب النملة ونحوها لدعائها فكيف بالقلوب المتوجهات إلى الله تعالى الناشىء توجهها إليه عن معرفته ومطالعة آياته بالعقول الصافية.

وروى الترمذي وصححه، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان؛ أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىْ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الأَرْضِ حَتَّىْ النَّمْلَةَ فِيْ جُحْرِهَا وَحَتَّىْ الْحُوْتَ فِيْ الْبَحْرِ لَيُصَلُّوْنَ عَلَىْ مُعَلِّمِيْ النَّاسِ الْخَيْرَ»[1].

والاعتبار في ذلك أن العبد ينبغي له أن يعرف للعالم حقه ويصلي عليه؛ أي: يدعو له معظماً لشأنه؛ لأن الصلاة: الدعاء بالرحمة مقرونة بالتعظيم، ولا يكون أعجز من النمل والحوت.

- ومن ذلك: الحوت، والسمك وهو ما لا يعيش إلا في الماء.

وروى أبو نعيم عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: لما

= رافعة بعض قوائمها إلى السماء، فقال: ارجعوا، فقد استجيب لكم، من أجل شأن هذه النملة».

وروى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٧٣) وغيره عن أبي الصديق الناجي موقوفاً عليه نحوه.

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: غريب.

أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض كان فيها نسر وحوت في البحر، ولم يكن في الأرض غيرهما، فلما رأى النسر آدم وكان يأوي إلى الحوت ويبيت عنده كل ليلة، قال: يا حوت! لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشي على رجليه ويبطش بيديه.

فقال له الحوت: لئن كنت صادقاً ما لي منه في البحر منجى ولا لك في البر [منه مَهْرب][1].

وهذا بإلهام من الله تعالى لهما.

والاعتبار في ذلك أنَّ ابن آدم كذلك ألوف يألف إلى جنسه، فيجتمعان ويتشاكيان، ويتحاكيان، فينبغي أن لا تكون شكايته وحكايته إلا في خير وفيما ينفع.

وروى الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُلَمَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ رَجُلانِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمَاً فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعَاً وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَنَاً فَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ حِيْتَانُ الْبَحْرِ وَدَوَابُّ الْبَرِّ وَالطَّيْرُ فِيْ جَوِّ السَّمَاءِ، وَيَقْدُمُ عَلَىْ اللهِ تَعَالَىْ سَيِّدَاً شَرِيْفَاً حَتَّىْ يُرَافِقَ الْمُرْسَلِيْنَ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمَاً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِ اللهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعَاً وَشَرَىْ فِيْهِ ثَمَنَاً فَذَلِكَ يُلْجَمُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُنَادِيْ مُنَادٍ: هَذَا الَّذِيْ آتَاهُ اللهُ عِلْمَاً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعَاً وَاشْتَرَىْ بِهِ ثَمَنَاً

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٨).

وَكَذَلِكَ حَتَّىٰ يَفْرُغَ مِنَ الْحِسَابِ»[1].

والاعتبار في ذلك أن الإنسان ينبغي له أن يحب العلماء العاملين المخلصين، ويدعو لهم، ويتجنب علماء السوء، ويُعْرِض عنهم؛ فإن قربهم فتنة.

روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجوني عن هَرِم بن حيان رحمه الله تعالى أنه قال: إياكم والعالمَ الفاسق.

فبلغ عمر بن الخطاب ﷺ، فكتب إليه وأشفق منها: ما العالم الفاسق؟

فكتب إليه هرم: والله يا أمير المؤمنين ما أردت به إلا الخير؛ يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق، فيشبِّه على الناس، فيضِلُّون[2].

وعن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى قال: قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فاحتبسني عنده حولاً، ثم قال: يا أحنف! إني قد بلوتك وخبرتك، فوجدت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، وإنا كنا لنتحدث أن مما يهلك

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧١٨٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٤): فيه عبدالله بن خراش؛ ضعفه البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم وابن عدي، ووثقه ابن حبان.

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٣٢).

هذه الأمة كل منافق عليم.

ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن أَدْنِ الأحنف منك، واسمع منه، وشاوره[1].

وفي رواية عن الأحنف: وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: كنت عنده جالساً فقال: إن هلكة هذه الأمة على يدي كل منافق عليم، وقد رمقتك فلم أر منك إلا خيراً، فارجع إلى قومك؛ فإنهم لا يستغنون عن رأيك[2].

وروى الإمام أحمد في «المسند» عن عمر بن الخطاب ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىْ أُمَّتِيْ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيْمِ اللِّسَانِ»[3].

وأقول: [من الوافر]

عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ العُلَمـاءِ إِذْ هُـمُ	هُداةُ النَّـاسِ فِـي ظُلَـمِ الزَّمـانِ
عَنَيْـتُ العـامِلِينَ وَلَـسْتُ أَعْنِـي	مِـنَ العُلَمـاءِ عَـلاَّمَ اللِّـسانِ
يُنـافِقُ مَـنْ يَـراهُ لأَجْـلِ دُنْيـا	وَيُمْعِـنُ فِـي التَّفَـصُّحِ وَالبَيـانِ

---

(١) ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٩٤)، والفريابي في «صفة المنافق» (ص: ٥٣).

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٣٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٢)، وكذا البزار في «المسند» (٣٠٥).

فَــإِنْ فَتَّـشْتَ عَــنْ أَعْمالِــهِ لا تَجِــدْهُ أخــاً لأَعْمــالِ حِــسانِ
رآهُ النَّــاسُ فَــافْتُتِنُوا بِمــا قَــدْ رَأَوْا مِنْــهُ أَشَــدَّ الافْتِتــانِ

وقرأت في بعض المجاميع حديثاً: «الْمُؤْمِنُ فِي الْمَسْجِدِ كَالسَّمَكِ فِيْ الْمَاءِ، وَالْمُنَافِقُ فِيْ الْمَسْجِدِ كَالطَّيْرِ فِيْ الْقَفَصِ»(1).

ولم أجده في كتب الحديث مع التطلُّب، ولكن معناه صحيح يشهد له الحديث المتقدم: «إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيْمَانِ»(2).

وفي كتاب الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[التوبة: 18].

ـ ومن ذلك: الإبل.

وهي توصف بالحنين، وهو الشوق وتوقان النفس، وهي تحن إلى أوطانها، وتشتاق إلى معاطنها حتى قالوا في المثل: لا أفعله ما حنت الإبل.

وقالوا: ما حنت النيب، وهي جمع ناب، وهي المسنة من النوق(3).

---

(1) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 388): لم أعرفه حديثاً، وإن اشتهر بذلك، ويشبه أن يكون من كلام مالك بن دينار، فقد نقل المناوي عنه أنه قال: المنافقون في المسجد كالعصافير في القفص.

(2) تقدم تخريجه.

(3) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (2/ 247).

وقال الشريف الرضي يخاطب ناقته : [من الطويل]

تَحِنِّـــينَ إِلاَّ أَنَّ بِـــي لا بِـــكِ الْهَـــوى

وَلِـــي لا لَـــكِ اليـــوْمَ الْخلـــيطُ المـــودَّعُ

وَباتَـــتْ تَـــشَكَّى تَحْـــتَ رِجلـــي ضَـــمانَهُ

كِلانـــا إِذاً يـــا نـــاقُ نـــضوٌ مُفَجَّـــعُ

أَحَـــسَّتْ بِنـــارٍ فِـــي ضُـــلُوعِي فَأَصْـــبَحَتْ

يَخُـــبُّ بِهـــا حـــر الغَـــرامِ وَيُوْضِـــعُ

وأجاد مهيار في قوله : [من الطويل]

إِذا فاتَهـــا رَوْضُ الْحِمـــى وَجُنُوبُـــهُ

كَفاهـــا نَـــسِيمُ البابـــلِيِّ وَطِيبُـــهُ

فَـــدَعْها تَكْـــسُ العَـــيْشَ طَـــوعَ قُلُوبـــِها

فَـــأمرَعُ مـــا تَرْعـــاهُ مـــا تَـــسْتَطِيبُهُ

وَإِنَّ الثُّمـــادَ البـــرض فِـــي عِـــزِّ قَوْمِهـــا

لأَنْقـــعُ مِـــنْ جمـــرٍ يـــذل غَرِيبُـــهُ

يَلُـــومُ عَلـــى نَجـــدٍ ضَـــنينٍ بدمعـــةٍ

إِذا فـــارقَ الأَحْبـــابَ جفـــتْ غُروبُـــهُ

ومـــا النَّـــاسُ إِلاَّ مَـــنْ فُـــؤادِي فـــؤادهُ

لأَهْـــلِ الغَـــضا أَوْ مَـــنْ حَبِـــيبي حبيبُـــه

ومما يمدح به الإنسان حنينه إلى الأوطان حتى قيل: حب الوطن من الإيمان؛ وليس بحديث.

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه.

وقال أيضاً: قالت حكماء الهند: ثلاثة أصناف من الحيوان تحن إلى الأوطان: الإبل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدها بها بعيداً، والطير إلى وَكْره وإن كان موضعه مجدباً، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعاً، رواهما الدينوري في «المجالسة»[1].

وروى ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص: ٨٥]: إلى مكة[2].

وروى البخاري، والنسائي، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص: ٨٥]؛ قال: إلى مكة كما أخرجك منها[3].

وروى الخطابي في «الغريب» عن الزهري قال: قدم أُصَيل

---

(١) رواهما الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٦٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٢٦).

(٣) رواه البخاري (٤٤٩٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٨٦).

ـ بالتصغير ـ الغفاري على رسول الله ﷺ من مكة قبل أن يضرب الحجاب، فقالت له عائشة رضي الله تعالى عنها: كيف تركت مكة؟

قال: اخضرت جنباتها، وابيضت بطحاؤها، وأغدق إذخرها، وانتشر سلمها. . . الحديث.

فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ يَا أُصَيْلُ! لا تَحْزُنِّيْ»[1].

وروى ابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» عن الأصمعي، عن أبي بكر الهذلي، عن رجال من قومه: أن أصيل الهذلي قدم على رسول الله ﷺ من مكة، فقال له: يا أصيل! كيف تركت مكة؟

قال: يا رسول الله! تركتها وقد ابيضت بطائحها، واخضرت مسيلاتها، وأمشر سلمها، وأغدق إذخرها، وأحجن ثمامها.

فقال: «يَا أُصَيْلُ! دَعِ الْقُلُوْبَ تَقِرُّ، لا تُشَوِّقْهُمْ إِلَىْ مَكَّةَ»[2].

والمسيلات: جمع مسيل، وهي الشعاب.

والأشار: خروج ورق الشجر وأغصانها، أو إمشار المسلم: إثماره ثمراً أحمر.

وإغداق الإذخر: اجتماع أصوله.

وإحجان الثمام: تعقفه؛ يقال: أحجن الثمام: إذا خرجت

---

(١) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٢٧٨)، ورواه الأزرقي في «أخبار مكة» (٢/ ١٥٥).

(٢) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (١/ ٩٢).

حجنته، وهي خوصه.

- ومن الإبل: **الجمل الأنوف**، ويقال له: الآنف - بالمد، وبالقصر - وهو الذلول، أو المخزوم الذي لا يمتنع على قائده، بل ينقاد للولد الصغير؛ وأصله من: أنف - كعَلِمَ - إذا اشتكى أنفه من البرة، فهو أنف - كتَعِب -؛ عن ابن السكيت[1].

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون منقاداً لطاعة الله وأوامره.

وفي حديث العرباض بن سارية المتقدم ﷺ: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون... الحديث.

[وفي رواية]: «وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدَاً حَبَشِيَّاً؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ كَالْجَمَلِ الآنِفِ حَيْثُ قِيْدَ انْقَادَ، وَإِنَّ أُنِيخَ عَلَىْ صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ». رواه أبو داود، وغيره[2].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك عن مكحول مرسلاً، والعقيلي، والبيهقي في «الشعب»، والديلمي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُوْنَ هَيِّنُوْنَ لَيِّنُوْنَ كَالْجَمَلِ الآنِفِ؛ إِنْ قِيْدَ انْقَادَ، وَإِنْ أُنِيْخَ عَلَىْ صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ»[3].

---

(١) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ٢٤٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٣) واللفظ له دون قوله: «وإن أنيخ على صخرة استناخ».

(٣) رواه بن المبارك في «الزهد» (١/ ١٣٠) عن مكحول مرسلاً. =

* تَنْبِيهٌ:

الجمل الذكر، والناقة الأنثى، والبعير يقال لكل منهما.

قال أبو عبيد: وسُمِع: صرعتني بعيري، وشربت من لبن بعيري، وإنما يقال له: بعير إذا أجدع[1].

وإنما وقع تمثيل المؤمن بالجمل الأنف لأن الجمل الذكر إذا كان ينقاد فكيف بالناقة، فالتمثيل بالجمل أبلغ.

وفي المثل: لكل أناس في بعيرهم خبر؛ أي: كل قوم يعلمون من صاحبهم ما لا يعلمه منه الغرباء.

وقال الزمخشري: قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في العلباء بن الهيثم السدوسي وقد وفد عليه في هيئة رَثَّة، وكان دميماً أعور، فلما كلمه أعجبه بجودة لسانه وحسن بيانه؛ أراد أن قومه لم يسودوه إلا لمعرفتهم به[2].

وفي المثل أيضاً: القرم من الأفيل، والأفيل يجمع على إفال ـ كجمال ـ وأفايل، وهي صغار الإبل بنات المخاض ونحوها.

= والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٧٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٢٩) وقال: المرسل أصح، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٥٨٣) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(١) وانظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ٣٢٦).

(٢) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٢٩١).

والقرم، ويقال له: مقرم ـ ككرم ـ: هو البعير لا يحمل عليه ولا يذلل، وإنما هو للفحلة.

قال في «الصحاح»: ومنه قيل للسيد: قَرْمٌ مُقْرَم تشبيهاً به، انتهى[1].

- **ومن أخلاق الإبل:** أنها تميل إلى السماع ميلاً كلياً بحيث تكتفي به عن الطعام والشراب، وتتأثر منه تأثراً تستخف منه الأعمال الثقيلة، وتستقصر لقوة نشاطها في السماع المسافات الطويلة بحيث تسكر من السماع، وتتوله منه عن المشقات الهائلة بحيث تمد أعناقها، وتسرع في السير سراعاً حثيثاً إذا سمعت صوت الحادي.

قال جحظة البرمكي في ذلك: [من مجزوء الكامل المرفّل]

إِنْ كُنْـتَ تُنْكِـرُ أَنَّ فِـي الأَلْـــ ـــحانِ فائِـــدَةً وَنَفْعـــاً
فَــانْظُرْ إِلَــى الإِبــِلِ اللَّــوا تِـي هُـنَّ أَغْلَـظُ مِنْـكَ طَبْعـاً
تُـصْغِي إِلَــى صَـوْتِ الْحُـدا ةِ فَتَقْطَـعُ الفَلَــواتِ قَطْعـاً
مَــعْ أَنَّهُــمْ يُظْمُونَهَـــا عَــنْ مائِهـا خَمْـساً وَرَبْعـاً

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في «رسالته»: واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة، وارتياحها إليها ما لا يمكن جحوده؛ فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ٢٠٠٩)، (مادة: قرم).

تعب السفر ومشقة الحمولة، فيهون عليه بالحداء.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية: ١٧].

ثم قال: أنا أبو حاتم السجستاني، أنا عبدالله بن علي السراج، قال: حكى محمد بن داود الدينوري الرقي قال: كنت في البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب، فأضافني رجل منهم، فرأيت غلاماً أسود مقيداً هناك، ورأيت جمالاً ماتت بفناء البيت، فقال لي الغلام: أنت الليلة ضيف، وأنت على مولاي كريم، فتشفع لي؛ فإنه لا يردك.

فقلت لصاحب البيت: لا آكل طعامك حتى تخلي هذا العبد.

فقال: هذا الغلام قد أفقرني وأتلف مالي.

فقلت: ما فعل؟

فقال: له صوت طيب، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال، فحملها أحمالاً ثقيلة، وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد، فلما وصلت ماتت كلها.

ولكن قد وهبته لك، وحل عن العبد.

فلما أصبحت اشتهيت أن أسمع صوته، وسألته ذلك، فأمر الغلام أن يحدو على جمل كان هناك على بئر يستقي عليه، فحدا، فهام الجمل على وجهه، وقطع حباله، ولم أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه، ووقعت على وجهي حتى أشار إليه بالسكوت.

وأجاد الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى في شرح ما أشار

إليه القشيري من سكون الطفل إلى الصوت الطيب بقوله : [من الطويل]

ويُنْبِـيْكَ عَـنْ شَـأْنِ الوَلِيـدِ وَإِنْ نَـشا
بَلِيـداً بِإِلْهـامٍ كَـوَحْيٍ وَفِطْنَـةِ

إِذْ إِنَّ مَـنْ شَـدَّ القِمـاطَ وَحـنَّ فِـي
نَـشاطٍ إِلَـى تَفْـرِيجِ هَـمٍّ وَكُرْبَـةِ

يُنـاغِي فَيُلْقـي كُـلَّ كَـلٍّ أَصـابَهُ
وَيُـصْغِي لِمَـنْ ناغـاهُ كَالْمُتَنَـصِّتِ

وَيُنْـسِيهِ مُـرَّ الْخَطْـبِ حُلْـوُ خِطابِـهِ
وَيُـذْكِرُهُ نَجْـوى عُهـودٍ قَدِيْمَـةِ

وَيُعـرِبُ عَـنْ حـالِ الـسَّماعِ بِحالِـهِ
فَيُثْبِـتُ لِلـرَّقْصِ انْتِفـاءَ النَّقِيـصَةِ

إِذا هـامَ شَـوقاً بِالْمُنـاغِي وَهَـمَّ أَنْ
يَطِيـرَ إِلَـى أَوْطانِـهِ الأَوَّلِيَّـةِ

يُـسَكَّنُ بِالتَّحْرِيـكِ وَهْـوَ بِمَهْـدِهِ
إِذا مـا لَـهُ أَيْـدِي مُرَبِّـيهِ هَـزَّتِ

وَجـذب بِوَجْـدِ آخِـذي عِنْـدَ ذِكْرِهـا
بِتَحْبـيرِ قـالٍ أَوْ بِأَلْحـانِ صَـيِّتِ

كَمـا يَجِـدُ الْمَكْـرُوبُ فِـي نَـزْعِ نَفْـسِهِ
إِذا مـا لَـهُ رُسْـلُ الْمَنايـا تَوَفَّـتِ
فَواجِـدُ كَـرْبٍ فِـي سِـياقٍ لِفُرْقَـةٍ
كَمَكْـرُوبِ وَجْـدٍ لاشْـتِياقٍ لِرِفْقَـةِ
فَـذا نَفْـسُهُ رَقَّـتْ إِلَـى مـا بَـدَتْ بِـهِ
وَرُوحِـي تَرَقَّـتْ لِلْمُبـادِي الْعَلِيَّـةِ

وذكر ابن قتيبة في «عيون الأخبار»: أن الفهد يصاد بضروب؛ منها الصوت الحسن؛ فإنَّه يصغي إليه إصغاءً شديداً[1].

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني»: أن مخارق المغني خرج يوماً يتنزه مع إخوانه وفي يد أحدهم قوس مذهبة، فقال لصاحب القوس: أرأيت إن تغنيت صوتاً فعطفت عليه هذه الظباء، أتدفع إلي القوس؟

فقال: نعم.

فاندفع يغني: [من المجتث]

مـاذا تَقُـولُ الظِّبـاءُ	أَفُرْقَـةٌ أَمْ لِقـاءُ
أَمْ عَهْـدُها بِـسُلَيْمَى	وَفِـي البَيـانِ شِـفاءُ
مَـرَّتْ بِنا سـانِحاتٍ	وَقَـدْ دَنـا الإِمْـساءُ

(١) وانظر: «الحيوان» للجاحظ (٦/ ٤٧١).

فَمَـــا أَحـــارَتْ جَوابــــاً   وَطـــالَ مِنَّـــا العَنـــاءُ

قال: فعطفت الظباء راجعة إليه حتى وقفت بالقرب منه مصغية إلى صوته، فتعجب مَنْ حَضَرَ من رجوعها ووقوفها، وأخذ القوس[1].

قلت: وأنا لقد اتفق لي مرة أني كنت ومعي جماعة من إخواني الفقراء إلى الله تعالى في بعض بساتين الربوة بدمشق، ومعنا رجل حسن الصوت، مشهور بمعرفة الألحان والأنغام، أستاذ في بابه، وكان يتغنى وينشد من كلام القوم، فإذا أخذ في ألحانه أصغت إليه جميع الأطيار في ذلك البستان كأنها تستمع إليه، فإذا فرغ من نوبته أخذت سواجعها في نوبتها تغرد ما شاء الله تعالى، فلما أفقت عليها، وتعرفت أمرها بإصغائي إليها نبهت أصحابي، فأقبلوا على تبين ذلك، فاستبان لهم لا يشكون فيه، وقلنا للمنشد: أنشد، فلما أنشد سكت السواجع، وأصغت إليه سوامع، فما زال هذا ديدنها وديدننا حتى فرغ ذلك النهار، وكان هذا من عجيب الاتفاق.

فلا بأس أن يصغي الإنسان إلى السماع الطيب الذي لا يحرم ولا يكره، ولا يكون أعجز من الإبل والظباء، والفهود والأطيار، والبهائم؛ فإن العرب قد أحدثت لها أسماء أصوات تُفهمها ما تريده منها من سير أو شرب، أو وقوف أو تحول من طريق إلى طريق، أو انزجار عن شيء إلى غير ذلك.

---

(١) انظر: «الأغاني» للأصبهاني (١٨/ ٣٦٩).

قال في «الإحياء»: ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظة الطبع على الجمال والطيور، بل على سائر البهائم؛ فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة، ولذلك كانت الطير تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته[1].

وقال الشيخ شمس الدين بن الجزري في «النشر»: أخبرني جماعة من شيوخي، وغيرهم إخباراً بلغ التواتر عن شيخهم الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الصائغ المصري ـ وكان أستاذاً في التجويد ـ أنه قرأ يوماً في صلاة الصبح: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾[النمل: ٢٠]، وكرر هذه الآية، فنزل طائر على رأس الشيخ يسمع قراءته حتى أكملها، فنظروا إليه فإذا هو هدهد[2].

قلت: وحدثنا شيخنا فسح الله تعالى في مدته عن والده الشيخ الإمام العلامة يونس بن عبد الوهاب العيثاوي: أنه كان إذا قرأ القرآن في داره تبادر لسماع قراءته ديك كان عندهم، فيأتي حتى يقف أمام الشيخ منصتاً للقراءة، يرفع رجلاً ويضع أخرى، ولا يمل ـ وإن طالت القراءة وامتدت ـ حتى يتم الشيخ القراءة، فيضرب بجناحيه، ويصقع، ثم ينصرف.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته»: وقيل: مات

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٢٧٥).

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (١/ ٢٣٩).

بعض ملوك العجم، وخلَّفَ ابناً صغيراً، فأرادوا أن يبايعوه، فقالوا: كيف نصل إلى عقله وذكائه؟ فتوافقوا على أن يأتوا بقوَّال يقول شيئاً، فإن أحسن الإصغاء عَلِموا كياسته، فأتوا بقوال، فلما قال القوال شيئاً ضحك الرضيع، فقبلوا الأرض بين يديه، وبايعوه.

وقال فيها أيضاً: حكى إسماعيل بن علية قال: كنت أمشي مع الشافعي رضي الله تعالى عنه وقت الهاجرة، فجُزنا بموضع يقول فيه واحد شيئاً، فقال: مِلْ بنا إليه.

ثم قال: أيطربك هذا؟

فقلت: لا.

فقال: ما لك حِسٌّ؛ أي: إحساس.

والمعروف أن القصة إنما وقعت لإبراهيم بن إسماعيل بن علية كما ذكره ابن السبكي في ترجمة المزني عنه[1].

ورواه أبو علي بن الحسن بن الحسين بن حمكان في «مناقب الشافعي» عن المزني قال: مررنا مع الشافعي ﷺ وإبراهيم بن إسماعيل بن علية على دار قوم وجارية تغنيهم: [من الطويل]

خَلِيلَــيَّ مــا بــالُ الْمَطايــا كَأَنَّنــا
نَراهــا عَلــى الأَعْقــابِ بِــالقَوْمِ تَــنْكُصُ

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٢/ ٩٩).

فقال الشافعي: ميلوا بنا نسمع.

فلما فرغت، قال الشافعي لإبراهيم بن علية: أيطربك هذا؟

قال: لا.

قال: فما لَكَ حس[1].

والمجال في هذا الباب متسع، وللهو فيه في السماع مشارب وموارد، وقد وفينا بجملة من ذلك في كتابنا «منبر التوحيد».

- **ومن الإبل: البُزْل**، ويقال لها: البُزَّل - بالتشديد -.

والبوازل: جمع بازل، وهو البعير الذي فطر نابه؛ يضرب به المثل للقوي في شأنه[2].

وحكي أن سفيان بن عيينة ذكر له مالك بن أنس، فقال: ما مثلنا ومثل مالك إلا كما قال القائل:

وَابْنُ اللَّبونِ إِذا ما لُـزَّ فِـي قَـرَنٍ ... لَمْ يَسْتَطِعْ صولَةَ البُزْلِ القَناعِيسِ[3]

---

(١) قال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص: ٢٩٦): وهذا محال على الشافعي ﷺ، وفي الرواية مجهولون، وابن طاهر لا يوثق به، وقد كان الشافعي أجل من هذا كله، ويدل على صحة ما ذكرناه ما أخبرنا به أبو القاسم الحريري عن أبي الطيب الطبري قال: أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم، فإن أصحاب الشافعي قالوا: لا يجوز سواء كانت حرة أو مملوكة، قال: وقال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته، ثم غلَّظ القول فيه، فقال: وهو دياثة.

(٢) انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ٢٥).

(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٧٥).

وروى الخطابي في «الغريب» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: رأيت علياً رضي الله تعالى عنه يؤم بدن، وهو يقول:

[من الرجز]

يـا بُـزلَ عـامَيْنِ حـديثٌ سِـنِّي
سَـنَحْنَحُ اللَّيْـلِ كَـأَنِّي جِنِّـي
لِمِثْـلِ هَـذا وَلَـدَتْنِي أُمِّـي

وفي رواية: سمعمع الليل[١].

وأراد علي رضي الله تعالى عنه أنه مستجمع الشباب، مستكمل القوة في الجهاد والطاعة كالبازل الذي تم له سن شبابه، وكملت قوته من الإبل.

قال في «القاموس»: رجل سنحنح: لا ينام الليل[٢]، والسمعمع: الداهية، والخفيف السريع، ويوصف به الذئب[٣].

ومن ذلك الخيل: قال رسول الله ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُوْدٌ فِيْ نَوَاصِيْهَا الْخَيْرُ إِلَىْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». رواه الإمامان مالك، وأحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجه عن عروة البارقي رضي الله تعالى عنه[٤].

---

(١) رواه الخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ١٧٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٢٨٨) (مادة: سنح).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٤٣) (مادة: سمع).

(٤) تقدم تخريجه.

زاد في حديث: قيل: يا رسول الله! وما ذاك؟

قال: «لِلْغَزْوِ وَالْغَنِيْمَةِ».

قال في «حياة الحيوان»: الفرس أشبه الحيوان بالإنسان لما يوجد فيه من الكرم، وشرف النفس، وعلو الهمة.

ومن أخلاقه الدالة على شرف نفسه: أنه لا يأكل علف غيره، انتهى.

وكذلك ينبغي للإنسان أن ينزه نفسه إلى التطلع إلى ما في أيدي الناس، ولا يتعدى على مال غيره بالظلم والعدوان، بل يكتفي بما قُسم له.

روى الخطيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شَرَفُ الْمُؤْمِنِ صَلاتُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»[1].

وللجوهري صاحب «الصحاح»: [من السريع]

لَوْ كانَ لِي بُدٌّ مِنَ النَّاسِ ... قَطَعْتُ حَبْلَ النَّاسِ بِاليَاسِ

العِزُّ فِي العُزْلَةِ لَكِنَّهُ ... لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ النَّاسِ[2]

ومن كرم الفرس: أنه يُعاتب فينجع فيه العتاب.

روى الطبراني في «الكبير»، والضياء المقدسي في «المختارة» عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «عَاتِبُوْا الْخَيْلَ؛

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «يتيمة الدهر» للثعالبي (٤/ ٤٦٩).

فَإِنَّهَا تُعْتَبُ»[1].

وهو بضم أوله؛ أي: ترجع إلى ما يرضي صاحبها؛ تقول: استعتبت فلاناً فأعتبني؛ أي: أرضاني، وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مسرتك راجعاً عن الإساءة.

والتشبه في ذلك بأن يرجع الإنسان إلى مرضاة حميمه ـ أي: صديقه ـ إذا عاتبه على أمر كرهه منه.

قال في «الصحاح»: قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة؛ يقال: عاتبه معاتبة.

قال الشاعر: [من الوافر]

أُعاتِبُ ذا الْمَوَدَّةِ مِنْ صَدِيقٍ ... إذا ما رابَنِي مِنْهُ اجْتِنابُ

إِذا ذَهَبَ العِتابُ فَلَيْسَ وِدٌّ ... وَيَبْقَى الوِدُّ ما بَقِيَ العِتابُ

ويقال: إذا تعاتبوا أصلح بينهم العتاب[2].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٢٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٦٢): رواه الطبراني من رواية إبراهيم بن العلاء الزبيدي عن بقية، وبقية مدلس، وسأل ابن حوصا محمد بن عوف عن هذا الحديث، فقال: رأيته على ظهر كتاب إبراهيم ملحقاً فأنكرته، فقلت له، فتركه، قال: وهذا من عمل ابنه محمد بن إبراهيم كان يسوي الأحاديث، وأما أبوه فشيخ غير متهم، وقال فيه أبو حاتم: صدوق، ووثقه ابن حبان.

(٢) انظر: «الصحاح» للجواهري (١/ ١٧٦) (مادة: عتب).

ومن لطائف الشيخ أبي إسحاق الشيرازي: [من مخلَّع البسيط]

إذا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ ... وَلَمْ يُعاتِبْكَ فِي التَّخَلُّفْ

فَلا تَعُدْ بَعْدَها إلَيْهِ ... فَإنَّما وِدُّهُ تكَلُّفْ[1]

وروى الإمام عبدالله بن المبارك، والإمام أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان في «صحيحه»، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء في «المختارة» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالإِيْمَانِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِيْ آخِيَّتِهِ يَجُوْلُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىْ آخِيَّتِهِ، وَإِنْ الْمُؤْمِنَ يَسْهُوْ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىْ الإِيْمَانِ؛ فَأَطْعِمُوْا طَعَامَكُمْ الأَتْقِيَاءَ، وَأَدْلُوْا مَعْرُوْفَكُمْ الْمُؤْمِنِيْنَ»[2].

وروى الرامهرمزي بسند صحيح، عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالإِيْمَانِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِيْ آخِيَّتِهِ يَجُوْلُ مَا يَجُوْلُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىْ آخِيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَقْرِفُ مَا يَقْرِفُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىْ الإِيْمَانِ؛ فَأَطْعِمُوْا طَعَامَكُمْ الأَبْرَارَ وَأَدْلُوْا مَعْرُوْفَكُمْ الْمُؤْمِنِيْنَ»[3].

---

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٦/ ٤٣).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨)، وأبو يعلى في «المسند» (١١٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٧٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٩٦٤).

(٣) رواه الرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص: ٨١).

والآخية ـ ويمد، ويخفف ـ: عود في حائط، أو في حبل يدفن طرفاه في الأرض، ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة، وجمع: أخايا، وأخايي؛ قاله في «القاموس»[1].

والمعنى في الحديث: أن المؤمن يبعد عن ربه تعالى بالذنوب والإيمان ثابت في قلبه، كما أن الفرس يبعد عن آخيته ما طال رَسَنُه، ثم يعود إلى آخيته الثابتة.

ـ ومن أحوال الخيل: أن تنقسم انقسام الإنسان من حيث النسب، وتعتبر بأنسابها.

قال أهل اللغة: إذا كان الفرس كريم الأصل رائع الخلق، مستعداً للجري فهو عتيق وجواد، فإذا استوفى أقسام الكرم وحسن المنظر والمخبر، فهو طرف ـ بالكسر ـ وبذلك يوصف الإنسان.

قال في «الصحاح»: والطرف أيضاً: الكريم من الفتيان[2].

والذي تلخص من «القاموس»: أن الطرف ـ بالفتح مع إسكان الثاني، وفتحه ـ بمعنى الكريم، وبالكسر: الكريم الطرفين[3].

قال في «الصحاح»: ويقال: فلان كريم الطرفين؛ يراد به نسبُ أبيه ونسب أمه، انتهى[4].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٦٢٤) (مادة: أخو).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٣٩٣) (مادة: طرف).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٠٧٤) (مادة: طرف).

(٤) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٣٩٣) (مادة: طرف).

وإذا اختلف أبواه فهو إما هجين، وإما مقرف.

قال في «الصحاح»: والهُجنة في الناس وفي الخيل إنما تكون من قبل الأم، فإذا كان الأب عتيقاً والأم ليست كذلك كان الولد هجيناً.

قال الراجز: [من الرجز]

ثَلاثَـــةٌ أَيُّهُـــمْ تلـــتمسُ   العَبْـدُ وَالْهَجِـينُ وَالفَلَـنْقَسُ

قال: والإقراف من قبل الأم.

قالت هند:

فَإِنْ نُتِجتْ حُرّاً كَرِيْماً فَبِـالْحرى   وَإِنْ يَكُ إقرافٌ فَمِنْ قِبَلِ الفَحْلِ[1]

وقال في باب السين: الفلنقس: الذي أبوه مولى وأمه عربية، وأنشد:

العَبْـدُ وَالْهَجِـينُ والفلـنقسُ   ثَلاثَـــةٌ فَـــأَيُّهُمْ تَلْـــتَمِسُ

قال: وقال أبو الغوث: الفلنقس: الذي أبوه مولى وأمه مولاة.

والهجين: الذي أبوه عتيق وأمه مولاة.

والمقرف الذي أبوه مولى وأمه ليست كذلك، انتهى[2].

وقال في «القاموس»: الفلنقس ـ كسَمَنْدَل ـ: مَنْ أبوه مولى وأمه

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٢١٧) (مادة: هجن).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ٩٦٠) (مادة: فلقس).

عربية، أو أبواه عربيان وجدتاه أَمَتان، أو أمه عربية لا أبوه، أو كلاهما مولى.

والبخيل الرديء كالفلنقس[1].

وقال في باب النون: الهجين: اللئيم، وعربي وُلِدَ من أمة أو من أبوه خير من أمه، انتهى[2].

ولا شك أنَّ من كرم طرفاه أفضل من غيره نسباً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ النَّاسِ مُؤْمِنٌ بَيْنَ كَرِيْمَيْنِ» رواه الطبراني في «الكبير» عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه[3].

أي: مؤمن أبواه مؤمنان، أو أبواه نسبيان، أو بين عملين صالحين لا يفرغ من أحدهما إلا نصب في الآخر، أو بين صاحبين صالحين؛ أي: لا يصحب طالحاً، أو أحدهما صالح لدينه والآخر لدنياه، أو حالين كريمين بين حركة في خير أو سكون عن شر.

وقد يكون الإنسان كريم النسب لكنه خبيث الطباع، وقد يكون خبيث النسب كريم الطباع، والله يفعل ما يشاء في عباده، ويطبع كل واحد منهم على مراده، والمرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٧٢٧) (مادة: فلقس).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٥٩٩) (مادة: هجن).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٨٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٢): فيه معاوية بن يحيى، أحاديثه مناكير.

﴿ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[الحجرات: ١٣]؛ أي: أتقاكم في نفسه وإن اختلفت أنسابكم وبلادكم وأزمنتكم.

وقال أنس بن زنيم لعبدالله بن زياد: [من الرمل]

سَلْ أَمِيرِي ما الَّذِي غَيَّرَهْ ... عَنْ وِصالِي اليَوْمَ حَتَّى وَدَّعَهْ

لا تُهِنِّي بَعْدَ ما أَكْرَمْتَنِي ... وَعَزِيزٌ عادَةٌ مُنْتَزَعَهْ

لا يَكُنْ بَرْقُكَ بَرقاً خُلَّباً ... إِنَّ خَيْرَ البَرْقِ ما الْماءُ مَعَهْ

كَمْ بِجُودٍ مقرفٌ نالَ العُلَى ... وَكَرِيمٍ بُخْلُهُ قَدْ وَضَعَهْ[1]

وفي المثل: استكرمت فاربط، أو فارتبط.

وربما قالوا: أكرمت فارتبط؛ أي: وجدت فرساً كريماً فاربطه، واستمسك به.

قال الزمخشري: يضرب في وجوب الاحتفاظ بالنفائس[2].

والمعنى في ذلك: أنَّ الإنسان إذا وجد رفيقاً رفيقاً، أو صديقاً صدوقاً، أو شيئاً موافقاً فليستمسك به؛ فإنه عزيز.

وقد قلت: [من البسيط]

---

(١) انظر: «الأغاني» للأصبهاني (٨/ ٤٠٢).

(٢) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/ ١٥٨).

اخْـرِصْ عَلَـى وِدِّ خِـلٍّ طَـابَ عُنْـصُرُهُ
وَقَـدْ صَـفا لَـكَ مِنْـهُ الـوِدُّ وَالوَمَـقُ
مِـنَ الـسَّعادَةِ أَنْ تَلْقَـى أَخـا ثِقَـةٍ
فَاشْـدُدْ يَـدَيْكَ بِـهِ إِنْ كـانَ يتفـقُ
وَمَـنْ يُفـارِقْ خَلِـيلاً كَـيْ يُوافِـقَ مَـنْ
يَكُـونُ أَفْـضَلَ مِنْـهُ خانَـهُ الحمـقُ
وَمَـنْ يَعـزهُ أَخـو صِـدْقٍ فَلَـمْ يَـرَهُ
فِـي النَّـاسِ وَالآنَ مـا فِـي قَـولِهم أَلَـقْ
فَلْيَـرْضَ بِـاللهِ مِـنْ كُـلِّ الـوَرى عِوَضـاً
كَفَـى بِـهِ آنِـساً إِنْ مَـسَّهُ الفَـرَقُ
رَأَيْـتُ عُزْلَـةَ قَلْبِـيَ الآنَ أَفْـضَلَ مـا
يَرْجُـوهُ ذُو اللُّـبِّ مِـنْ أَمْـرٍ بِـهِ يَثِـقُ
قَلقـتُ مِـنْ فَعَـلاتِ الـدَّهْرِ فِـي زَمَـنٍ
حَتَّـى عَرَفْـتُ فَـزالَ الْهَـمُّ وَالقَلَـقُ

وفي المثل: الخيل أعرف بفرسانها.

قال أبو عبيد: يعني: إنها اختبرت ركبانها، فهي تعرف الأكفاء من أهل الفروسية؛ يضرب لمن يستعين بالأكفاء، وربما يضرب لمن يخبر للصاحب بما هو عليه فينزله بمنزلته[١].

---

(١) وانظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٤١٨).

وكذلك ينبغي للإنسان أن يكون عارفاً بمن له غناء ممن لا غناء فيه، فينزل الناس منازلهم، ويعرف الصديق من العدو.

وفي أمثال العوام: فلان ما يعرف صديقه من عدوه.

وفي معناه أيضاً قولهم في المثل الآخر: وصاحب البيت أدرى بالذي فيه.

وقولهم: أنا أخبر بشمس بلادي.

وقولهم: المربي أخبر من الشاري.

وفي المثل: هما كفرَسَيْ رهان؛ يضرب للمتسابقين إلى غاية في خير أو شر[1].

والاعتبار فيه أنَّ الإنسان ينبغي له المسابقة إلى الخيرات كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[البقرة: ١٤٨].

وكثيراً ما يضرب المثل بالسوابق من الخيل في الاستباق إلى خير، فيمثلون السابق والتالي بالسابق من الخيل، ثم بالمصلي، ثم المسلي، ويقال: القفي، ثم التالي، ثم المرتاح، ثم العاطف، ثم الحظي، ثم المؤمل، ثم اللطيم، ثم السكيت.

وقال الجاحظ: كانت العرب تعد السوابق ثمانية، ولا يعد ما جاء بعدها حظاً، وجعل اللطيم ثامناً.

---

(١) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ٣٦٩).

قال: وكانت العرب تلطم وجه الأخير وإن كان له حظ.

ويقال لمن جاء بعد العشرة: المقروح، والفسكل، والقاشور؛ والثلاثة بمعنى واحد.

والفسكل فيه لغات: كقنفذ، وزبرج، وزنبور، وبرذون.

ويقال للقاشور: القاشر، ويضرب المثل بها للمقصر في الأمر[1].

والأناسي كالخيل في الاستباق، فالسابقون كالسوابق، والمتأخرون عن الخير والسبق فيه كالمتأخرات.

وفي المعنى يقال في المثل: ولكن جئت في الزمن الأخير.

ويقال: ليس السابق كاللاحق.

وقالوا: ليس قطاً كمثل قطي.

ويقال: فرُّوج تدايك.

وقال كشاجم: [من مجزوء الكامل المرفّل]

وَتَسابَقَتْ عُرْجُ الْحَمِيـ ـرِ فَقُلْتُ مِنْ عَدَمِ السَّوابِقْ

وقلت: [من المجتث]

مـا فِـي الزَّمـانِ سَـبُوقٌ وَلا سَبُوحٌ مُصَلِّيْ
وَلا مُسلٍّ إذا كا نَ لِلقُلُوبِ يُسلِّي
بَلِ البطالَةُ صارَتْ لِلنّاسِ أَفْضَلَ شُغْلِ

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١١/ ٥٢٠) (مادة: فسكل).

وَلَيْتَهُمْ بَعْدَ هَذا لَمْ يَزْعُموا كُلَّ فَضْلِ

تَساوَتِ النَّاسُ حَتَّى لَمْ يُحْسِبُوا رَبَّ أَصْلِ

وَإِنْ تَرُمْ سَيِّدَ النَّا سِ لا تَجِدْ غَيْرَ فسلِ

فَما البُكاءُ بِمُجْدٍ لِذاتِ حُزْنٍ وَثُكْلِ

تُرِيدُ إِقْبالَ خَيْرٍ عَلَى الزَّمانِ الْمُوَلِّي

لا يَنْفَعُ الْمَرْءَ إِلاَّ أَداءُ فَرْضٍ وَنَفْلِ

وفي المثل: جري المذكي حسرت عنه الحمر؛ أي: كلت وأعيت[1].

والمذكي فاعل من التذكية: هو الفرس إذا أتى عليه بعد القروح سنة أو سنتان، وهو أقوى ما يكون فيه الفرس من السن؛ يضرب في تبريز الرجل على أقرانه.

وفي المثل: مذكية تقاس بالجذاع.

المذكية: الفرس المسنة، والجذاع: الصغار؛ يضرب لمن يقيس الصغير بالكبير[2].

والاعتبار في ذلك أن يكون الإنسان قوياً في دينه، لا يلحق شَأْوه في العلم والعبادة والفضائل.

---

(١) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٥١).

(٢) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٣٤٤).

روى الإمام أحمد، ومسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ.

احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»[1].

وفي المثل: يجري بُليق ويُذم.

قال في «الصحاح»: وهو اسم فرس كان يسبق الخيل، وهو مع ذلك يعاب[2].

وكذلك قال الزمخشري، وقال: يضرب لذم المحسن[3].

ومثله: الشعير يؤكل ويذم؛ يضرب في ذم المحسن[4].

قلت: وقد يضربان في شكاية سوء حظ بعض المحسنين.

وفي المثل: أحشُّك وتروثني؛ يضرب لمن يسيء إليك وأنت تحسن إليه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٤١٦٨).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٥١)، (مادة: بلق).

(٣) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (٢/ ٤٠٩).

(٤) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/ ٣٢٧).

وأول من قاله رجل كان يعلف فرساً له، فراث عليه، فقال ذلك مخاطباً للفرس[1].

ولا يقال ذلك للعتيق؛ فإنه لا يكون منه ذلك.

ثم صار مثلاً لكل من قابل الإحسان بالإساءة، وهو غير لائق.

وفي هذا المعنى قيل: [من الوافر]

أُعَلِّمُــهُ الرِّمايَــةَ كُــلَّ يَــوْمٍ ... فَلَمَّــا اسْــتَدَّ ســاعِدُهُ رَمــانِي

وَكَــمْ عَلَّمْتُــهُ نَظْــمَ القَــوافِي ... فَلَمَّــا قــالَ قافِيــةً هَجــانِي[2]

والحق الذي لا شبهة فيه قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠].

وفي المعنى قالوا: ما جزاء من أحب إلا أن يُحب.

نعم، الإحسان إلى المسيء أعلى رتبة من الإحسان إلى المحسن، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ أَخْلاقِ أَهْلِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ». رواه البيهقي[3].

---

(١) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ١١٠).

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢ / ٢٠٠)، والبيتان لمعن بن أوس المزني، انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (ص: ٤٤٩).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٠٠)، وكذا عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٣٧) عن ابن أبي حسين.

وقال ﷺ: «لَنْ يَنَالَ عَبْدٌ صَرِيْحَ الإِيْمَانِ حَتَّىٰ يَصِلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَيَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيَغْفِرَ لِمَنْ شَتَمَهُ، وَيُحْسِنَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ». رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق»[1].

وتقدم لنا في ذلك كلام مستوفى في القسم الأول من الكتاب.

- **ومن أوصاف الخيل المحمودة التي يتيمن بها**: الغرة: وهو بياض في الناصية.

والتحجيل: وهو بياض في الأطراف.

وكذلك هذه الأمة يكونون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، وبذلك وُصفوا في بعض الكتب المتقدمة.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِيْنَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوْءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيْلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»[2].

* **لَطِيفَةٌ**:

في الحديث إشارة إلى أن الغرة والتحجيل ممكنا الحصول للإنسان بالتكسب مع التوفيق بخلافهما من الفرس؛ فإنهما فيها لمجرد الخلقة.

- **ومن لطائف الخيل**: ما رواه الحاكم وصححه، عن أبي ذر رضي الله عنه،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (ص: ٢٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِدَعْوَتَيْنِ يَقُوْلُ: اللَّهُمَّ كَمَا خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِيْ فَاجْعَلْنِيْ مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ»[1].

وفي لفظ: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ سَحَرٍ كُلِّ يَوْمٍ بِدَعْوَتَيْنِ: اللَّهُمَّ كَمَا خَوَّلْتَنِيْ مَنْ خَوَّلْتَنِيْ مِنْ بَنِيْ آدَمَ فَاجْعَلْنِيْ مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ»[2].

وفي قوله: «وَأَهْلِهِ» إشارة إلى أن الفرس تقوم مقام الأهل من حيث إنه يرتفق به صاحبه، ويأنس به، ويوصله إلا ما لا يصل إليه دونه.

ومن هنا كان للفارس ضعف ما للراجل في الغنائم.

وعن عبدالله بن وهب مر رجل راكب على فرس بالنبي ﷺ فسلم، فقال النبي ﷺ: «وَعَلَيْكُمَا السَّلامُ» كما نقله السيوطي في «ديوان الحيوان» عن «تذكرة» الشيخ تاج الدين بن مكتوم عن تعليق لأبي علي الآمدي بخطه.

ـ **ومن ذلك: الشاة:** واحدة الشاء، والغنم: الذكر والأنثى من الضأن، أو المعز.

جاء في الخبر تمثيل المؤمن بالشاة، وكذلك تمثيل المنافق بالشاة العائر بين الغنمين، وقد سبق هذا.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٤٥٧).

(٢) رواه النسائي (٣٥٧٩).

وأمَّا تشبيه المؤمن بالشاة فمن حيث ضعفها ولينها وعدم صيالها، وكذلك المؤمن هين لين، كما تقدم.

روى عبد بن حميد في «مسنده» عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: افتخر أهل الإبل وأهل الغنم عند رسول الله ﷺ، فقال: «السَّكِيْنَةُ وَالْوَقَارُ فِيْ أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِيْ أَهْلِ الإِبـِلِ»[1].

وروى ابن ماجه عن عروة البارقي رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «الإِبـِلُ عِزٌّ لأَهْلِهَا، وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ، وَالْخَيْرُ مَعْقُوْدٌ فِيْ نَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَىْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

وروى الديلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَرَكَةُ فِيْ الْغَنَمِ، وَالْجَمَالُ فِيْ الإِبـِلِ»[3].

وروى البخاري في «الأدب المفرد» عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّاةُ فِيْ الْبَيْتِ بَرَكَةٌ، وَالشَّاتَانِ بَرَكَتَانِ، وَالثَّلاثُ ثَلاثُ بَرَكَاتٍ»[4].

---

(١) ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨١٠). والحديث عند البخاري (٤١٢٧)، ومسلم (٥٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٣٠٥)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٤٨٤).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢١٩٧).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٧٣)، وكذا العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٨٢) وأعله بإسماعيل بن سلمان الأزرق، وقال: قال يحيى بن معين: إسماعيل الأزرق ليس بشيء.

وروى ابن سعد في «طبقاته» عن أبي الهيثم بن التيهان رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ عِنْدَهُمْ شَاةٌ إِلاَّ وَفِيْ بَيْتِهِمْ بَرَكَةٌ»[١].

وعن خالد بن يزيد المزني رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ تَرُوْحُ عَلَيْهِمْ ثَلاثَةٌ مِنَ الْغَنَمِ إِلا بَاتَتْ الملائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ تُصَلِّيْ عَلَيْهِمْ حَتَّىْ يَصْحُوا»[٢].

وأخرجه أبو نعيم ـ بسند واه ـ وقال: «إِلاَّ صَلَّتْ عَلَيْهِمْ الملائِكَةُ يَوْمَهُمْ وَلَيْلَتِهِمْ حَتَّىْ يُصْبِحُوْا»[٣].

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «الشَّاةُ مِنْ دَوَابِّ الْجَنَّةِ»[٤].

قلت: ومن شواهده ما رُوِيَ أن الكبش الذي فُدِيَ به إسماعيل عليه السلام أتى به جبريل عليه السلام من الجنة[٥].

وإنما كانت الشاء بهذه المثابة لما يغلب عليها من الطاعة والانقياد

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٩٦).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٩٦).

(٣) قال ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٣٦): رواه أبو نعيم بإسناد واه جداً.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٣٠٦)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٣٩) وأعله بزربي بن عبدالله، وقال: وأحاديثه وبعض متون أحاديثه منكرة.

(٥) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٨٧) عن ابن عباس ﷺ موقوفاً عليه.

لرعاتها، ولطف إمرتها وعدم سطاها، فلا تحتاج رعاتها إلى كثير نَصَب، ولا شدة وزع وقوة منع.

ومن هنا كانت السكينة والوقار يغلبان على أهلها كما وقعت الإشارة إلى ذلك في الحديث المذكور بخلاف الإبل؛ فإنها تنفر وتند، وتهدر، وربما حقدت وسمخت، وأبت ونفرت عن أهلها، ومن هنا غلب على أهلها الفخر والخيلاء.

وفي الحديث: «أَنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِيْنِ»[1]، «وأَنَّ عَلَىْ سِنَامِ كُلِّ بَعِيْرٍ شَيْطَانٌ»[2].

ومن ثم شبه إباء الخارج عن الطاعة بشرادها فيما رواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِيْ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَىْ وَشَرَدَ شُرُوْدَ الْبَعِيْرِ عَنْ أَهْلِهِ»[3].

وأخرجه البخاري مقتصراً على قوله: «إِلاَّ مَنْ أَبَىْ».

زاد: قالوا: يارسول الله! ومن يأبى؟

---

(1) رواه ابن ماجه (٧٦٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٥٧) عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه.

(2) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٦٨٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
وروى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١٧٠٣) عن حمزة بن عمرو الأسلمي.

(3) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٨٣).

قال: «مَنْ أَطَاعَنِيْ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِيْ فَقَدْ أَبَىْ»[1].

* **فائِدَةٌ لَطِيفَةٌ:**

الغالب من حال أهل القرى دون المدائن الفلاحة، فيقتنون بها البقر، ويقتنون الغنم ضأنها ومعزها للذر والنسل، وقد يقتنون البقر لذلك، وقد علمت ما في الغنم من البركة وصلاة الملائكة على أهلها، ولعلها هي سبب البركة، وجاء في بقر الحراثة أنَّها سبب ذل صاحبها.

روى الطبراني في «الكبير» عن أبي أُمَامة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَغْدُوْ عَلَيْهِمْ فَدَّانٌ إِلاَّ ذُلُّوْا»[2].

والفدان ـ بالتخفيف، والتشديد ـ كما في «القاموس»: الثور، أو الثوران يقرن للحرث بينهما، ولا يقال للواحد فدان، أو هو آلة الثور[3].

والمراد في الحديث المعنى الثاني.

ويحتمل الثالث؛ ففي «الصحيح»: أنه ﷺ نظر إلى آلة حرث فقال: «مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلاَّ ذُلُّوا»[4].

والحكمة في ذلك أن الله تعالى لما حكم على أهل الحراثة بالذل

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٢٣). وفيه امرأة لم تسمَّ.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٥٧٦) (مادة: فدن).

(٤) رواه البخاري (٢١٩٦) عن أبي أمامة ﷺ. ولفظه: «لاَ يَدْخُلُ هذا بَيْتَ قَوْمٍ إلا أَدْخَلَهُ الله الذُّلَّ».

عوضهم ببركات المواشي ليتماسكوا بذلك عن ترك الحراثة، ومع ذلك فقد حبب الله إليهم الحرث حتى يحلف أحدهم الأيمان عند شيء ينوبه وشدة تلحقه على تركها، فإذا جاء إبانها كفَّرَ عن يمينه، وخلص منه، وعاد إليها ليكون ذلك سبباً لعمارة البلاد والرفق بالعباد.

وهنا فائدة مهمة ينبغي التنبيه عليها:

روى أبو داود عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُم الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّىٰ تَرْجِعُوْا إِلَىٰ دِيْنِكُمْ»[1].

فتبين من ذلك معجزة ظهرت للنبي ﷺ في صدق ما بينه، وذلك أنَّ العساكر إنما فرضت لهم الأعطية من بيت المال ليكونوا رصداً للجهاد، فآثروا الدنيا على ما أرصدوا له، وأقبلوا على تحصيلها ببيع العينة، بل بالربا المحض أضعافاً مضاعفة، وتعاطي الحرث والزروع، ومزاحمة الفلاحين في شأنهم، حتى إن الجندي منهم لا يزال بالفلاح حتى يأخذ داره وأرضه بأي طريق كان، ويشق عليهم مفارقة أموالهم ونعمهم، فأعرضوا عن الجهاد، فأصابهم الذل بعدم إغنائهم في الغزو وإخفاقهم، وتسلط الأعداء عليهم، بل سلَّط الله بعضهم على بعض

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٢). وضعف ابن حجر إسناده في «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» (٢/ ١٥١).

حتى استذلت كبارهم صغارهم، واستطالت صغارهم على كبارهم، وهم لا يراجعون دينهم، ولا يرجعون إلى سبيلهم الذي أرصدوا له، فبقوا على زللهم وفتنتهم؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!

وروى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْغَنَمُ أَمْوَالُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ»[1].

وروى ابن ماجه بسند ضعيف، عنه: أنَّ رسول الله ﷺ أمر الأنبياء باتخاذ الغنم، وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج، وقال: «عِنْدَ اتِّخَاذِ الأَغْنِيَاءِ الدَّجَاجَ يَأْذَنُ اللهُ بِإِهْلاكِ الْقُرَى»[2].

قال الشيخ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي: أمر كلاً بالكسب بحسب مقدرتهم لأنَّ به عمارة الدنيا وحصول التعفف.

ومعنى آخر الحديث: أن الأغنياء إذا ضيقوا على الفقراء في مكاسبهم وشاركوهم في معايشهم تعطل الفقراء، ومن ذلك يكون هلاك القرى[3].

وفي الحديث: «الْمُؤْمِنُ كَالشَّاةِ الْمَأْبُوْرَةِ». أورده صاحب «النهاية»،

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٣٠٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٣٠٧)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٠٨) وأعله بعلي بن عروة، وقال: ليس حديثه بشيء وهو ضعيف.

(٣) انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لملا علي القاري (٨/ ٤١)، و«التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي (٢/ ١٤٩).

وغيره من علماء الغريب، وذكره الدميري، والسيوطي[1].

أي: التي أكلت الإبرة، فنشبت في جوفها، فهي لا تأكل شيئاً، وإن أكلت لم ينجع فيها؛ كذا قالوا.

ووجه التشبيه: أن المؤمن لشدة وَجَله وغمه من ذنوبه وخطاياه، وخوفه من المكر والعياذ بالله يمتنع بذلك عن الطعام والشراب إلا على وجه الاقتيات، لا يستلذ به ولا يتنعم لأن له شاغلاً عنه.

وقال في «الصحاح»: أبرت الكلب: أطعمته الإبرة في الخبز.

قال: وفي الحديث: «الْمُؤْمِنُ كَالْكَلْبِ الْمَأْبُور»، انتهى[2].

ولم أقف على تخريج هذا الحديث، ولا الذي قبله، ويشبه أن يكونا من كلام الحسن البصري أو غيره؛ والله الموفق.

وروى الحافظ الذهبي في «الميزان» بسند ضعيف جداً، عن أنس ـ موقوفاً ـ قال: كيف أنتم إذا كان زمان يكون الأمير فيه كالأسد والأسود، والحاكم فيه كالذئب الأمعط، والفاجر كالكلب الهرار، والمؤمن بينهم كالشاة الولهاء بين الغنمين، فكيف حال شاة بين أسد وذئب وكلب[3].

---

(١) انظر: «النهاية في غرريب الحديث» لابن الأثير (١/ ١٤)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٤) عن مالك بن دينار من قوله.

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٥٧٤) (مادة: أبر).

(٣) رواه الذهبي في «لسان الميزان» (١/ ١٧٣) مرفوعاً، وقال: خبر باطل.

ومن شواهده ما رواه ابن عساكر عن علي ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُوْنُ الْمُؤْمِنُ فِيْهِ أَذَلَّ مِنْ شَاتِهِ»[1].

وسبب ذلك تسلط الحكام من الأمراء وغيرهم على الناس، فينتزعوا ما في أيديهم طمعاً في الأموال والتبسط في الدنيا ونعيمها كما قال رسول الله ﷺ: «يُوْشِكُ أَنْ يَمْلأَ اللهُ أَيْدِيَكُمْ مِنَ الْعَجَمِ وَيَجْعَلَهُمْ أُسْدَاً لا يَفِرُّوْنَ فَيَضْرِبُوْنَ رِقَابَكُمْ وَيَأْكُلُوْنَ فَيْئَكُمْ». رواه النسائي، والحاكم وصححه، عن حذيفة، والإمام أحمد، والحاكم ـ وصححه ـ والضياء في «المختارة» عن سمرة، والطبراني في «الكبير» عنه وعن ابن عمر، وأخرجه أيضاً بنحوه عن أبي موسى رضي الله تعالى عنهم[2].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٤١٤)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٦٧١).

(٢) رواه البزار في «المسند» (٢٨٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٨٣) عن حذيفة ﷺ.

والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١١)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٦٣)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة»، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٩٢١) عن سمرة ﷺ.

ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط) (٥٢١٥)، وكذا البزار في «المسند» (٢٣٧٠) عن عبدالله بن عمرو ﷺ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣١١): رواه البزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه عبدالله بن عبد القدوس؛ وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، ويونس بن خباب ضعيف جداً.

والمراد بالعجم ما سوى العرب.

قال في «الصحاح»: والعجم خلاف العرب، الواحد: أعجمي، والعُجم ـ بالضم ـ: خلاف العرب[1].

وتبعه في «القاموس»[2].

* **فائِدَةٌ:**

قال الدينوري في «المجالسة»: سمعت ابن أبي الدنيا يقول: إنَّ لله تبارك وتعالى من العلوم ما لا يحصى، فيعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره.

لقد حدثنا أبو عبدالله أحمد بن محمد بن سعيد الطائي، ثنا عبدالله بن بكر السهمي، عن أبيه: أن قوماً كانوا في سفر، فكان فيهم رجل يمر الطائر فيقول: تدرون ما يقول هذا الطائر؟

فيقولون: لا.

فيقول: كذا وكذا، فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق هو أم كاذب.

إلى أن مروا على غنم ومنها شاة قد تخلفت على سخلة لها، فجعلت تلوي عنقها إليها وتثغوا، فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟

قلنا: لا.

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٩٨٠) (مادة: عجم).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٤٦٦) (مادة: عجم).

قال: تقول: الحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان.

قال: فانتهينا إلى الراعي، فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟

قال: نعم، ولدت سخلة عام أول، فأكلها الذئب في هذا المكان.

قال: ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقه إليها.

قال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟

قلنا: لا.

قال: فإنه يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط، فهو يؤثر في سنامه.

قال: فانتهينا إليهم، فقلنا: يا هؤلاء! إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعق راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط، وأنه في سنامه.

قال: فأناخوا البعير فإذا هو كما قال[1].

قلت: وهذا يدل على ما ذكره جماعة من المحققين أن البهائم، والطير، والوحش، والسباع، والهوام كلها عوالم، ولها إدراك بحيث

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٤٦).

يفهم بعضها من بعض، وبعض ما ينفعها وما يضرها.

ولقد جاء في نص القرآن أنها تسبِّح بحمد الله.

والسنة أن القصاص يجري يوم القيامة بين البهائم، وهذا وجهه.

ثم إن الله تعالى يطلع بعض أنبيائه على معاني ما ينطق به معجزة، ويعطي كرامة، أو فِراسة.

وقدْ صح سجود البعير للنبي ﷺ، وشكايته إليه من أهله أنهم يقلون علفه، ويشقون عليه في العمل، وقد رويت قصته من طرق؛ والله الموفق.

- ومن ذلك: **الظِّباء والغِزلان**: وهي أولاد الظباء إلى أن تقوى وتطلع قرونها، فإذا قوي الغزال وتحرك ومشى مع أمه فهو رشا - بالفتح - وجمعه: أرشاء.

والريم: ولد الظبية: والجمع: آرام.

وقال الأصمعي: إنها الظباء الخالصة البياض.

ويقال: إنها ضأن الظباء لأنها أكثر لحماً وشحماً، والعرب تمثل بالظباء والغزلان والأرشاء والآرام في الرشاقة والظرف والجمال والْحَوَر والدَّل.

قال مجنون ليلى: [من الطويل]

أَقُولُ لِظَبْيٍ مَرَّ بِي وَهْوَ راتِعٌ ... أَأَنْتَ أَخُو لَيْلَى فَقالَ يُقالُ

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَيْلَى غَزالاً بِعَيْنِهِ ... فَقَدْ أَشْبَهَتْهَا ظَبْيَةٌ وَغَزالُ

وكذلك يمثلون في الحسن والبياض والسمن بالمَهَاة، وهي البقرة الوحشية، والجُؤْذر ـ بفتح الجيم، والذال المعجمة، وضمها مع الهمز ـ والجيذر، وبالواو ـ على وزن فرتك، وتولب، وبفتح الجيم، وكسر الذال ـ والجمع: جآذر، وهو ولد البقرة الوحشية.

قال الأخطل: [من الخفيف]

إنَّ مَـنْ يَـدْخُلِ الكَنِيـسَةَ يَومـاً ... يَلْـقَ فِيهـا جـآذِراً وَظِبـاء

أي: حساناً أمثالها.

وقال آخر:

لَها مُقْلَةٌ كَحلاءُ نَجْلاءُ خِلْقَـةً ... كَأَنَّ أَباها الظَّبْيُ أَوْ أُمَّها الْمَها

وأنشد الثعالبي لابن مطيران: [من الطويل]

ظِباءٌ أَعارَتْها الْمَها حُسْنَ مَشْيِها ... كَما قَدْ أَعارَتْها العُيونَ الْجآذِرُ

فَمِنْ حُسْنِ ذاكَ الْمَشْيِ جاءَتْ فَقَبَّلَتْ ... مَواطِيَ مِنْ أَقْدامِهِنَّ الغَدائِرُ[1]

وحكى ابن الجوزي في كتاب «الأذكياء» قال: قعد رجل على جسر بغداد، فأقبلت امرأة من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي، فاستقبلها شاب، فقال لها: رحم الله علي بن الجهم.

فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري.

وما وقفا، ومرَّا مشرقاً ومغرباً.

---

(١) انظر: «يتيمة الدهر» للثعالبي (٤/ ١٣٥).

قال: فتبعت المرأة وقلت لها: إن لم تقولي لي ما قال وإلا قتلتك.

فضحكت، وقالت: أراد قول ابن الجهم: [من الطويل]

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ
جَلَبْنَ الْهَوى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلا أَدْرِي

وأردت أنا قول المعري: [من الطويل]

فَيا جدارَها بِالْخَيْفِ إِنَّ مَزارَها قَرِيبٌ وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ أَهْوالُ[1]

وقد أفصحت هذه القصة عن أدب في تلك المرأة، وفطنة وفضيلة، وعفة وصيانة.

وهذا هو الذي ينبغي لكل ذي جمال؛ فإنه بذلك يكون كماله إذ يجمع بذلك بين جمال الظاهر وجمال الباطن.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِيْ فَحَسِّنْ خُلُقِيْ». رواه الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه[2].

وروى البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ وَجْهاً حَسَناً وَاسْماً حَسَناً،

---

(١) انظر: «الأذكياء» لابن الجوزي (ص: ٢٣٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٣)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٩٥٩).

وَجَعَلَهُ اللهُ فِيْ مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ، فَهَوُ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ».

قال ابن عباس: قال الشاعر: [من الخفيف]

أَنْتَ شَرْطُ النَّبِيِّ إِذْ قَالَ يَوْماً   اطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسانِ الوُجُوهِ[1]

وأورده التجاني في «تحفة العروس» بلفظ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ وَجْهاً حَسَناً، وَخُلُقاً حَسَناً، وَاسْماً حَسَناً، فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِ اللهِ»[2].

وروى أبو نعيم عن عون بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: من كان ذا صورة حسنة وموضع لا يشينه، ووسع عليه رزقه، ثم تواضع لله، كان من خالصة الله ﷻ.

وفي لفظ: مَنْ أحسن الله صورته، وأحسن رزقه، وجعله في منصب صالح، ثم تواضع لله، فهو من خالص [أهل] الله[3].

وقلت: [من مجزوء الرمل]

صَفْوَةُ اللهِ جَمِيلٌ   خُلُقاً وَاسْماً وَصُورَةْ
لَيْسَ فِي مَوْضِعِ شَيْنٍ   وَلَهُ أَحْسَنُ سِيرَةْ

وروى الدارقطني عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم ﷺ أحسنهم وجهاً

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٤٣) وقال: في هذا الإسناد ضعف.

(٢) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ٧١).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٥٠).

وأحسنهم صوتاً[1].

وروى الخرائطي في «اعتلال القلوب» عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ يُجْلِيْنَ الْبَصَر؛ الماءُ، وَالْخُضْرَةُ، وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ»[2].

وروى أبو نعيم في «الطب» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ يُجْلِيْنَ الْبَصَرَ؛ النَّظَرُ إِلَىْ الْمَاءِ الْجَارِيْ، وَالنَّظَرُ إِلَىْ الْخُضْرَةِ، وَالنَّظَرُ إِلَىْ الْوَجْهِ الْحَسَنِ».

ورواه هو، وابن السني عن ابن عباس موقوفاً عليه.

وروى بنحوه من حديث علي، وجابر، وبريدة[3].

ومجموع طرقه ترفعه عن درجة الوضع؛ وإن كانت طرقه ضعيفة[4].

---

(١) رواه الدارقطني كما في «أطراف الغرائب والأفراد» لابن طاهر المقدسي (٢/ ١٤١)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٦).

(٢) رواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣٣٧).

(٣) انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٢٧٥).

(٤) قال ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ٥٣): الحديث الموضوع لا يشبه كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنها أن يكون الحديث لا يشبه كلام الأنبياء فضلاً عن كلام رسول الله ﷺ الذي هو وحي يوحى، فيكون الحديث مما لا يشبه الوحي، بل لا يشبه كلام الصحابة، كحديث «ثلاثة تزيد في البصر النظر إلى الخضرة والماء الجاري والوجه الحسن» وهذا الكلام مما يجل عنه أبو هريرة وابن عباس، بل سعيد بن المسيب والحسن، بل أحمد ومالك رحمهم الله.

وذكر التجاني في «تحفة العروس» عن الحكم بن عبدالله قال: رأيت شريحاً على باب المسجد الحرام واقفاً، فقلت له: ما وقوفك هاهنا يا أبا أمية؟

قال: أقف لعلِّي أنظر إلى وجه حسن.

وكان شريح مجتهداً يرى أن النظر إلى المرد الحسان بغير شهوة مباح؛ إذ لا يلزم أن يكون أراد النظر إليهم.

قال التجاني: قال الشاعر: [من البسيط]

إِنِّـــي امْــرُؤٌ مُوْلَــعٌ بِالْحُــسْنِ أَتْبَعُــهُ

لا حَــظَّ لِــي فِيــهِ إِلاَّ لَــذَّةُ النَّظَــرِ

وذكر التجاني أيضاً من تخريج الحصري في «الزهد» قال: خرج أبو حازم رحمه الله تعالى يرمي الجمار ومعه قوم ناسكون وهو يحدثهم، فبينما هم كذلك إذ نظروا إلى امرأة من أجمل الناس تختلف يَمْنة ويَسْرة، وقد شغلت الناس، وبهتوا ينظرون إليها، وخاض بعضهم في بعض، فقال لها أبو حازم: يا هذه! اتق الله؛ فإنك في مشعر من مشاعره وقد فتنت الناس، فاضربي على جيبك خمارك؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور: ٣١].

فأقبلت تضحك من كلامه وقالت: يا هذا! أنا ممن قال فيه الحارث بن خالد: [من الطويل]

أَماطَــتْ كِــساءَ الْخَــزِّ عَــنْ حُــرِّ وَجْهِهــا

وَأَرْخَــتْ عَلــى الكَــشْحَيْنِ بُــرْداً مُهَلْهَــلا

أَراهُــنَّ لَــمْ يَحْجُجْــنَ يَبْغِــينَ خَــشْيَةً

وَلَكِــنْ لِيَقْــتُلْنَ البَرِيــرَ الْمُغَفَّــلا

فأقبل أبو حازم على أصحابه فقال: يا هؤلاء! تعالوا ندعو الله ألا يعذب هذه الصورة الحسنة.

فجعل يدعو وأصحابه يؤمِّنون.

قال: وبلغ ذلك سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى فقال: والله لو كان بعض بغضاء أهل العراق لقال لها: اغربي قبحك الله، ولكنه ظُرْفُ عُبَّاد أهل الحجاز.

قال التجاني: قال الأصمعي: رأيت في الطواف جارية كأنها مهاة قد فتنت الناس جميعاً بجمالها، فوقفت أنظر، فقالت: ما لك يا هذا؟

قلت! وما عليك من النظر؟

فأنشأت تقول: [من الطويل]

وَأَنْــتَ إذا أَرْسَــلْتَ طَرْفَــكَ رائِــداً

لِقَلْبِــكَ يَوْمــاً أَتْعَبَتْــكَ الْمَنــاظِرُ

رَأَيْــتَ الَّــذِي لا كُلَّــهُ أَنْــتَ قــادِرٌ

عَلَيْــهِ وَلا عَــنْ بَعْــضِهِ أَنْــتَ صابِــرُ

قلت: وهذا وأمثاله مما يذكر من السلف إنما كان منهم على ضرب من التأويل مع العفة والصيانة، ولا يكاد متأول في هذا الباب

الآن يسلم من الفتنة وإعلال القلب، واختلال الدين؛ فالحزم والحسم لهذه المادة وصيانة النظر عن الإطلاق إلا فيما يحل.

وقد روى الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته» عن أبي علي الرُّوذباري قال: كان الحارث بن أسد المحاسبي يقول: ثلاث يمتع بهن وقد فقدناها: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الصوت مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

واعلم أن الجمال أكثر ما يكون سبباً لطغيان النساء وفجورهن، وقد يكون سبباً لطغيان الرجال؛ كما أن الشباب والقوة أكثر ما يكون سبباً لطغيان الرجال، وقد يكون مطغياً للنساء، والمال يُطغي الرجال والنساء جميعاً.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وقيل: [من الرجز]

إِنَّ الشَّبابَ وَالفَراغَ وَالْجِدَةْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيَّ مَفْسَدَةْ

وروى ابن ماجه بسند ضعيف، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَنْكِحِ الْمَرْأَةَ لِجَمَالِهَا؛ فَلَعَلَّ جَمَالَهَا يُرْدِيْهَا، وَلا لِمَالِهَا؛ فَلَعَلَّ مَالَهَا يُطْغِيها، وَانْكِحِ الْمَرْأَةَ لِدِيْنِهَا»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٩). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٨٣).

وهذه الأمور تكون من الدنيا الغرور، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

ـ ومن أوصاف الطير: الفطنة، والكياسة، والحذر، والفرار مما يؤذيه، والنفور.

ومن كيسه أنه إذا أراد أن يدخل كناسة يدخله مستدبراً، ويستقبل بعينيه ما يخافه، فإذا رأى أحداً لم يدخل وإلا دخل.

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون حذوراً، فرَّاراً بدينه، نفوراً عما يرديه، حازماً، كَيِّساً فطناً.

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ﴾[الذاريات: ٥٠].

وقال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ، حَذِرٌ، وَقَّافٌ لا يَعْجَلُ». رواه القضاعي عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

ثمَّ فسر الكيس ﷺ فقال: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْفَاجِرُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ». رواه الحاكم وصححه، والعسكري، والقضاعي عن شداد بن أوس رضي الله عنه[2].

---

(١) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٨). فيه سليمان بن عمرو النخعي يضع الحديث.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٩١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٨٥). وكذا الترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠).

وفي حديث جابر رضي الله تعالى عنه في «الصحيح»: «وَإِذَا قَدِمْتَ فَالْكَيْسَ الْكَيْسَ»[1].

أراد أَمْرَهُ بإتيان أهله لطلب الولد.

ومن تمام الكياسة في ذلك أمران:

الأول: إذا سألت الله تعالى أن يهبك ولداً فاسأله صالحاً كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠].

وقال: زكريا عليه السلام: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[آل عمران: ٣٨].

وقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم: ٦].

والثاني: إذا طلب الولد فليتخير له إمَّا خيرة ذات حسب ونسب وعقل ودين ليكون مكيساً.

وفي الحديث: «تَخَيَّرُوْا لِنُطَفِكُمْ». رواه ابن ماجه، والدارقطني[2].

والعرب تمدح بالإكاسة، وهي أن يولد للرجل أولاد أكياس؛ أي: عقلاء؛ تقول: أكيس الرجل، وأكاس: إذا ولد له أولاد أكياس.

---

(١) رواه البخاري (١٩٩١)، ومسلم (٧١٥).

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٦٨)، والدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٩٩) عن عائشة رضي الله عنها. قال ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ١٢٥): أخرجه ابن ماجة وصححه الحاكم، وأخرجه أبو نعيم من حديث عمر أيضاً، وفي إسناده مقال، ويقوى أحد الإسنادين بالآخر.

وتذم بالإحماق؛ قال الشاعر: [من الوافر]

فَلَـوْ كُنْـتُمْ كَمكيـسةٍ أَكاسَـتْ ... وَكَـيسُ الأُمِّ يُعْـرَفُ فِـي البَنِينـا

وَلَكِـنْ أُمَّكُـمْ حَمُقَـتْ فَجِئْـتُمْ ... غِثاثـاً مـا يُـرى فِـيْكُمْ سَـمِيناً[1]

وأحمقت المرأة: جاءت بولد أحمق، فهي محمق، ومحمقة.

قالت امرأة من العرب: [من الرجز]

لَـسْتُ أُبـالِي أَنْ أَكُـونَ مُحْمِقَـة ... إِذا رَأَيْـتُ خِـصْيَةً مُعَلَّقَـة

قال في «الصحاح»: تقول ما أبالي أن ألد أحمق بعد أن يكون الولد ذكراً له خصية معلقة، انتهى[2].

وهذا حال أكثر أهل الجهل ـ خصوصاً النساء المقلات الأولاد الذكور ـ تتمنى الولد الذكر على أي خلق كان.

وهذا عين الحمق، وإنما الكياسة طلب الولد قبل طلب صلاح ذاته[3]، كما تقدم.

ـ ومن أوصاف الظبي: الغرَّة.

وهي الغفلة حتى قالوا في المثل: أغر من ظبي مقمر؛ يعني: إنه

---

(١) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ٢٦٩).

(٢) انظر: «الصحاح» للجواهري (٦/ ١٥٨) (مادة: حمق).

(٣) كذا في «أ» و«ت»، ولعل الصواب: «وإنما الكياسة طلب صلاح الولد قبل طلب الولد».

يغتر بالقمر، فيأنس به، ويظهر من كناسه، فيصاد[1].

وقد جاء وصف المؤمن بالغرة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيْمٌ، وَالْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيْمٌ»[2].

فإن قلت: كيف يجمع بين وصفه بالغرة ووصفه بالكياسة والفطنة والحذر؟

قلت: يجمع بينهما بأنه كيس فطن حذر، لكنه لا ينتهي إلى حد الدهاء والمكر، بل يحمله لينه وحسن ظنه على الاغترار بالخير؛ فإن المؤمن ينخدع بالخير؛ ألا ترى كيف انخدع آدم وحواء عليهما السلام بمقاسمة الشيطان لهما أنه لهما ناصح؟

وقد قال بعض السلف: مَنْ خادعنا بالله خَدَعَنا.

ونظير ذلك أن المؤمن هين لين.

وروى البيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ لَيِّنٌ تَخَالُهُ مِنَ اللِّيْنِ أَحْمَقَ»[3].

---

(١) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٢٧). تفرد به يزيد بن عياض، وليس بالقوي، وروي من وجه آخر صحيح مرسلاً.

ثم قال ﷺ: «الْحِدَّةُ تَعْتَرِيْ خِيَارَ أُمَّتِيْ». رواه أبو يعلى، والطبراني عن ابن عباس[1].

وروى الحسن بن سفيان في «مسنده»، والبغوي في «معجمه» عن الليث، وعن دريد بن نافع قال: قلت لأبي منصور الفارسي رضي الله عنه - وكانت له صحبة -: يا أبا منصور! لولا حدة فيك!

فقال: ما يسرني بحدتي كذا وكذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحِدَّةَ تَعْتَرِيْ خِيَارَ أُمَّتِيْ»[2].

وروى الطبراني في «الأوسط» بسند ضعيف، عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خِيَارُ أُمَّتِيْ أَحِدَّاؤُهُمْ، وَهُمْ الَّذِيْنَ إِذَا غَضِبُوْا رَجَعُوْا»[3].

وهذا التفسير يحتمل أن يكون من لفظ الحديث، ويحتمل أن يكون مُدْرجاً فيه من كلام علي رضي الله تعالى عنه، وفيه بيان ما قاله

---

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (٢٤٥٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٤٧١)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٠١) وأعله بالفضل بن عطية، وقال: ضعيف.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦١٦)، وانظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٧/ ٣٨٨) وقال: وقال البخاري حديثه مرسل.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧٩٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦): فيه يغنم بن سالم بن قنبر، وهو كذاب.

السخاوي وغيره: أن محل ذلك ما لم يؤد إلى محذور[1].

وبهذا الذي بيَّناه تبين أن مراد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مدح كل من الخلفاء الأربعة بما فيه من غير ذم، وذلك فيما ذكره ابن عبد ربه في «العقد» فقال: سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن أبي بكر رضي الله عنه، فقال: كان والله خيراً كله مع الحدة التي كانت فيه.

قالوا: فأخبرنا عن عمر رضي الله تعالى عنه.

قال: كان والله كالطير الحذر الذي نصب له الفخ، فهو يخاف أن يقع فيه.

قالوا: فأخبرنا عن عثمان رضي الله تعالى عنه.

قال: كان والله صوَّاماً قوَّاماً، من رجل غلبته غفلته عن قدمته.

قالوا: فأخبرنا عن علي رضي الله تعالى عنه.

فقال: كان والله مُرْتدياً علماً وحلماً، من رجل عذره سابقته، وقدمه وقرابته من رسول الله ﷺ، فقل ما أشرف على شيء إلا فاته.

قالوا: يقولون إنه كان مجدوداً؛ أي: محظوظاً؟

قال: أنتم تقولونه[2].

وصف أبا بكر رضي الله عنه بالحدة بعد قوله: كان خيراً كله إشارة إلى أن حدته كانت من جملة خيرة؛ فإنها لم تخرجه إلى باطل قط، وهي

---

(١) انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٣٠٣).

(٢) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٨٧).

الحدة التي وصف بها خيار الأمة، وهو خيرها بعد النبي ﷺ.

ووصف عثمان رضي الله تعالى عنه بالغفلة، ثم أشار إلى أنها لا تضره بسبب قدمته في الخير.

والقُدمة ـ بضم القاف، وإسكان الدال ـ كما في «الصحاح»، وهي السابقة في الأمر[1].

ويقال لهما: قَدَم ـ بفتحتين ـ وقِدَم ـ بكسر، ففتحة ـ؛ فإنَّ عثمان ﷺ من السابقين الأولين إلى الإيمان، غير أنه اغتر بأهله ومواليه، فولَّاهم، وكان ذلك مما انتقد عليه، وما كان يريد إلا الخير.

وهذه الغِرَّة وصف بها المؤمن مع كرمه، وعثمان رضي الله تعالى عنه كرمه ونبله لا ينكره إلا مباهت ناكب عن الحق.

وقوله في وصف علي رضي الله تعالى عنه: قلَّ ما أشرف على شيء إلا فاته؛ المراد أنَّه ما أشرف على شيء من الخير شجاعة، وكرماً، وزهداً، وعلماً، وغير ذلك إلا بلغه، وفات الرتبة التي تبلغها الناس فيه.

وقوله: (أنتم تقولونه)، جواباً عن قول السائل: يقولون: كان مجدوداً؛ أراد به الرد على من كان يخفض من مقام علي رضي الله تعالى عنه، ويقول: إنما نال الخلافة وغيرها من الفضائل بالحظ

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (٥/ ٢٠٠٧)، (مادة: قدم).

والبخت، لا بالذات، فرد عليهم بأن فضله كان بذاته، وفضيلته في نفسه؛ فإنه كان الحسيب الذي لا يشبهه في حسبه الشجاع الكريم العارف بالله تعالى، وبكتابه وأحكامه رضي الله تعالى عنه.

- **وممَّا يوصف به الظبي: الرشاقة**؛ أعني: الخفة والسرعة، وهي ثمرة رشاقة قَدِّه واعتداله.

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يكون رشيق الحركة في مصالح دينه ودنياه، غير فتور ولا كسلان من غير مجاوزة إلى حد الرعونة والطيش، ويعينه على ذلك التقلل من المآكل والمشارب، والنعيم والرفاهية، والرياضة بالصيام والقيام، وبذلك يحصل له رشاقة القد وخفة البدن، ولا يسعى في التسمن والتبدن باستعمال الأدوية ونحوها؛ فإن التسمن للبهائم للانتفاع بلحمها وشحمها.

روى الإمام أحمد، وأبو نعيم عن معاذ رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوْا بِالْمُتَنَعِّمِيْنَ»[1].

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اخشوشنوا وتمَعْدَدوا، وإياكم وزي الأعاجم. رواه ابن حبان وغيره[2].

وروى ابن شاهين في «الصحابة»، والطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «المعرفة» عن القعقاع بن أبي حدرد رضي الله تعالى عنه: أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

النبي ﷺ قال: «تَمَعْدَدُوْا، وَاخْشَوْشِنُوْا، وَاخْلَوْلِقُوْا، وَانْتَعِلُوْا، وَامْشُوْا حُفَاةً»[1].

وقوله: «تَمَعْدَدُوْا»؛ أي: تزيُّوا بزي معد بن عدنان، واقتدوا به من الخشونة في العيش، والتقشف، ودعوا التنعم وزي العجم.

وروى أبو داود عن ابن عباس ﷺ: أن النبي ﷺ لما قدم مكة قال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قوم وهنتهم الحمى، فلما كان الغد جلسوا مما يلي الحجر، فأمر النبي ﷺ الصحابة أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا بين الركنين ليرى المشركون جَلَدهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين نزعم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء كأنهم الغزلان[2].

وفي الحديث إشارة إلى استحباب إظهار الشجاعة والنشاط والنعمة؛ خصوصاً عند الدخول على الأعداء؛ فإن ذلك أشد عليهم وأقمع لهم، وعلى الإخوان والأصدقاء؛ فإن ذلك أشرح لصدورهم وأدخل للسرور عليهم، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الآخر: «إِنَّكُمْ قَادِمُوْنَ عَلَىٰ إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوْا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوْا شَأْنَكُمْ حَتَّىٰ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٤٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٣٦): فيه عبدالله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، وهو ضعيف.

(٢) رواه أبو داود (١٨٨٩)، وأصل الحديث عند البخاري (٤٠٠٩)، ومسلم (١٢٦٦).

تَكُوْنُوْا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِيْ النَّاسِ، فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ». رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وغيرهما من حديث سهل ابن الحنظلية وصححه الحاكم[1].

وروى الترمذي وحسنه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ»[2].

وروى أبو داود عن أبي الأحوص، عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في ثوب دون، فقال: «أَلَكَ مَالٌ؟».

قلت: نعم.

قال: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟».

قال: قد آتاني الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرقيق.

قال: «إِذَا آتَاكَ اللهُ فَلْيَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ»[3].

وروى ابن سعد في «طبقاته» عن جندب بن مكيث رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفد لبس خير ثيابه، وأمر عامة أصحابه بذلك[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٧٩)، وأبو داود (٤٠٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٣٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٨١٩) وحسنه.

(٣) رواه أبو داود (٤٠٦٣)، وكذا النسائي (٥٢٢٤).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٣٤٦).

وروى أبو داود عن ابن عباس ﵄ قال: لما خرجت الحرورية أتيت علياً فقال: ائت هؤلاء القوم.

قال: فلبست أحسن ما يكون من حُلل اليمن فأتيتهم.

فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟

قلت: ما تعيبون عليَّ؟ رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلل[1].

وفي وصية بعض الحكماء: ادخل على عدوك جوعان، ولا تدخل عليه عريان.

ووجهه: أن الجوع يخفى ويكتم، والثياب ظاهرة تلحظ؛ فإذا كان عليك ثوب يزري بك لخَلاَقته وغيرها، فدخلت فيه على عدوك، شَمَت بك.

وروى الطبراني - ورجاله رجال الصحيح - عن أبي يعفور قال: سمعت ابن عمر رضي الله تعالى عنه يسأله رجل: ما ألبس من الثياب؟

قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء.

قال: وما هو؟ قال: ما بين الخمسة دراهم إلى العشرين[2].

وهذا الذي قاله ابن عمر من القول الفصل في هذا الباب، والمنهج

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٠٥١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٣٥): رجاله رجال الصحيح.

العدل في هذا الأمر، وأراد بالحكماء علماء الشرع، وهم أهل الحكمة الذين أوتوها: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا﴾[البقرة: ٢٦٩].

وما يعيبه العلماء هو ما خالف الشرع والسنة، وما يزدري فيه المرء السفهاء شامل لأن يلبس المفتي أو القاضي، أو المدرس ثياب الصوفية وغيرهم، أو البزاز ثياب البقال والجزار، ونحو ذلك، أو العامي ثياب الفقهاء وزي العلماء، أو التاجر زي الأمراء، أو العالم زي الأجناد، أو زي الولاة؛ فإن السفهاء يزدرون هؤلاء بذلك، ويصير الواحد منهم ضحكة.

- ومن الظباء ما له نافجة مسك، ومنها ما ليس له ذلك، وهو الأكثر، وغزلان المسك بأرضِ تِبْت من بلاد الهند وغيرها.

وحكى الشرف بن يونس شارح «التنبيه»، و«مختصر الإحياء»: أنه لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض جاءته الوحوش تسلم عليه وتزوره، وكان يدعو لكل جنس بما يليق به، فجاءته طائفة من الظباء، فدعا لهن، ومسح على ظهورهن، فظهرت فيهن نوافج المسك، فلما رأى بواقيها ذلك قلن: ومن أين لك هذا؟

فقلن لهن: زرنا صفي الله آدم عليه السلام، ومسح على ظهورنا.

فمضى البواقي إليه، فدعا لهن، ومسح على ظهورهن، فلم يظهر لهن من ذلك شيء، فقلن: قد فعلنا كما فعلتن، فلم نر شيئاً مما حصل لكُنَّ.

فقيل لهن: أنتن كان عملكن لتنَلْنَ كما نال إخوتكن، وأولئك عملهن لله من غير شوب، فظهر ذلك في نسلهن وعقبهن إلى يوم القيامة.

وكذلك ينبغي للعبد الإخلاص في كل أعماله لتظهر آثار بركة الإخلاص عليه وعلى عقبه إلى يوم القيامة.

وعلى ذكر ظباء المسك، فقد روى البخاري عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ؛ لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً»[1].

وروى أبو داود، وأبو يعلى، والرامهرمزي في «الأمثال»، وابن حبان في «روضة العقلاء»، والضياء المقدسي في «المختارة» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: [قال رسول الله ﷺ]: «مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ مَثَلُ العَطَّارِ؛ إن لم يُعْطِكَ مِنْ عِطْرِهِ أصابَكَ مِنْ رِيحِهِ، ومَثَلُ الجليسِ السُّوءِ مَثَلُ القَيْنِ ـ أي: الحَدَّاد ـ إن لم يُحْرِقْ ثوبَكَ أصابَكَ مِنْ رِيحِهِ»[2].

---

(١) رواه البخاري (١٩٩٥)، وكذا مسلم (٢٦٢٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٢٩)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٢٩٥)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص: ١١٣)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ١١٨)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٢٢١٥).

وروى الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْعَطَّارِ؛ إِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ مَاشَيْتَهُ نَفَعَكَ، وَإِنْ شَارَكْتَهُ نَفَعَكَ»[1].

وروى الشيرازي عن أحمد بن عمر الوزان، قال: سمعت بعض النساء يقول: كنت أصيد على شاطىء البحر الظباء بالشَّرَك، فأقبل ظبي كبير له جمال وهيبة، فطمِعْتُ أن يقع في يدي، فلما نظر إلى الشَّرَك رجع عن الماء وخاف، ثم أراد الهجوم لما به من العطش، فلما عظم ذلك عليه طلع إلى ذروة الجبل، فبسط يديه ومد رجليه، ثم صرخ صرخة ففزعت من شدتها، فما كان إلا يسير حتى أقبلت سحابة فأمطرت حتى صار بين يديه بركة، فشرب من الماء وهو نائم، فتبت من الصيد.

قلت: وما في هذه القصة من إلهام هذا الظبي من التوجه إلى الله تعالى في حال الاضطرار إلى الماء وقد حِيل بينه وبينه حتى سأل الله تعالى فأجابه وأغاثه = كافٍ في إرشاد العبد في حال اضطراره إلى التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، والتوسل بالالتجاء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وهذا النوع من المعرفة أنفع شيء للعبد، وقد وقع التعريف به في غير موضع من كتاب الله ﷻ، لكن العارفين به قليل، والمهتدين به

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٥٤١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (ص: ٨٣): فيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس.

سالكون أوضح السبيل، ونيلهم منه أعظم النيل، وهم متقلدون به آناء النهار والليل.

وفي المعنى يقول[1]: [من الطويل]

إِذا لَـمْ يَكُـنْ لِـي فِـي اضْـطِرارِي وَشِـدَّتِي
مُعِـــينٌ سِـــوى اللهِ الْمُقَـــدَّسِ مَجْـــدُهُ
فَمـــا فِـــي شُـــهودِي غَيْـــرَهُ غَيْـــرُ خَيْبَـــةٍ
وَمـــا نـــافِعِي إِلاَّ إِذا احْتَجْـــتُ قَـــصْدُهُ
وَلا أَهْتَـــدِي لِلْقَـــصْدِ إِلاَّ بِفَـــضْلِهِ
وَتَوْفِيقِـــهِ فِـــي كُـــلِّ شَـــيْءٍ أَوَدُّهُ
فَيـــا رَبِّ مـــالِي غَيْـــرُ بابِـــكَ مَقْـــصِدٌ
وَأَنْـــتَ الَّـــذِي فِـــي كُـــلِّ أَمْـــرٍ أُعُـــدُّهُ
فَكُـــنْ بِـــيْ رَحِيمـــاً وَاعْـــفُ عَنِّـــي تَكَرُّمـــاً
فَأَنْـــتَ العَظِـــيمُ الـــشَّامِلُ الْخَلْـــقِ رِفْـــدُهُ
فَمـــا اقْتَـــدَحَ العَبْـــدُ الزِّنـــادَ لِمَقْـــصِدٍ
وَأَوْرَى بِغَيْـــرِ اللهِ ذِي العَـــرْشِ زِنْـــدُهُ

---

(١) كذا في «أ» و«ت»، ويظهر على هذا الشعر أنه من نظم المؤلف رحمه الله تعالى.

فَيَـــشْغَلْ بِغَيْـــرِ اللهِ تَـــضْيِيعَ مُـــدَّةٍ
مِـــنَ العُمْـــرِ فَلْيَـــسْتَغْفِرِ اللهَ عَبْـــدُهُ

وَمـــا سَـــعْدُ عَبْـــدٍ لَـــيْسَ إلاَّ لِرَبِّـــهِ
تَوَجُّهُـــهُ فِـــي كُـــلِّ حـــالٍ وَقَـــصْدُهُ

فَـــذاكَ الَّـــذِي قَـــدْ جَـــلَّ بِـــاللهِ قَـــدْرُهُ
وَذاكَ الَّـــذِي قَـــدْ تَـــمَّ بِـــاللهِ سَـــعْدُهُ

وَذاكَ الَّـــذِي بِـــاللهِ أَيْنَـــعَ رَوْضُـــهُ
وَفُـــتِّحَ لِلتَّعْطِيـــرِ بِالطِّيـــبِ وَرْدُهُ

فَـــشُكْرُ الإِلَـــهِ الْحَـــقِّ ذِي العَـــرْشِ واجِـــبٌ
عَلَيْـــهِ لَـــهُ فِـــي كُـــلِّ حـــالٍ وَحَمْـــدُهُ

ـ **ومن ذلك: الوَعِل** ـ كفخذ ـ وفيه اللغات الأربع، وجمعه: أوعال، ووعول.

ويقال للذكر منه: أيل ـ كسيد، وقنب، وخلب ـ.

وللأنثى منه أروية ـ بضم الهمزة، وإسكان الراء، وكسر الواو، وتشديد الياء التحتية ـ ويجمع على أروى على غير قياس.

قيل: والوعل مع الظباء كالمعز مع الضأن.

ومن عادة الوعل أن يحتمي من الماء وهو يشتهيه خشية ضرره، وذلك أن الأيايل تقتات بالأفاعي، فإذا أكلت منها في الصيف حميت

والتهبت حرارتها، فتطلب الماء، فإذا رأته امتنعت من شربه، وحامت حوله فتشمه لأنها لو شربته في تلك الحال فصادف الماء السم الذي في أجوافها هلكت، فلا تزال تمتنع منه بإلهام من الله تعالى حتى تذهب عنها فورة السم، ثم تشربه فلا يضرها.

وفي ذلك قيل: [من الوافر]

هَجَرْتُـكَ لا قِلًـى مِنِّـي وَلَكِـنْ ... رَأَيْـتُ بَقـاءَ وِدِّكَ فِـي الـصُّدُودِ
كَهَجْـرِ الْحائِمـاتِ الـوِرْدَ لَمَّـا ... رَأَتْ أَنَّ الْمَنِيَّـةَ فِـي الـوُرُودِ
تَفِـيضُ نُفُوسُـها ظَمَـأً وَتَخْشَى ... حِمامـاً فَهْـيَ تَنْظُـرُ مِـنْ بَعِيـدِ
تَـصُدُّ بِوَجْهِهـا البَغْـضاءَ عَنْـهُ ... وَتَرْمُقُـهُ بِإِلْحـاظِ الـورُودِ[1]

وكذلك ينبغي للإنسان أن يحتمي عما يضره في بدنه من الأغذية وغيرها، وفي دينه من الحرام والشبهة وغيرهما.

وأنشد أقضى القضاة الماوردي في «أدبه»: [من السريع]

جِسْمُكَ قَـدْ أَضْـعَفْتَهُ بِـالْحمى ... خَوفـاً مِـنَ البـارِدِ وَالْحـارِ
وَكـانَ أَوْلَـى بِـكَ أَنْ تَحْتَمِـي ... مِـنَ الْمَعاصِـي خَـشْيةَ النَّـارِ

والحمية قد تكون بتعمُّل من العبد وصبر، وهي من باب المجاهدة.

---

(١) انظر: «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٥/ ٣٠٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فمن يحتمي مستعيناً بالله يجد سبيله إلى الله تعالى.

وقد يكون بمحض المنة من الله تعالى، والعصمة منه، كما روى الطبراني بإسناد حسن، عن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وصححه، عن أبي قتادة رضي الله تعالى عنه قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِيْ سَقِيْمَهُ الْمَاءَ»(١).

وروى الحاكم وصححه، عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَحْمِيْ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُوْنَ مَرِيْضَكُم الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ»(٢).

ـ **ومن خصال الأوعال والأروى**: أنها تتخذ مساكنها في رؤوس الجبال وشَعَفِها، فتمتنع بنفسها من شرار الخلق.

وقد قيل في المثل: إنما هو كبارح الأروى؛ لأنها تأوي الجبال الممتنعة وكنانها، فلا تكاد تشاهد سانِحة ولا بارحة إلا في الدهر مرة؛ يضرب مثلاً لمن يجري منه الإحسان في الآحايين، وقد يضرب لمن

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٢٩٦) عن رافع بن خديج رضي الله عنه.
وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٥٧)، وكذا الترمذي (٢٠٣٦) وحسنه عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٤٦٥).

اعتزل الناس بالكلية واختفى عنهم حتى كأنه غائب منسي[1].

وكذلك ينبغي للمؤمن أن يفر بدينه من الفتن خصوصاً في هذا الزمن.

روى الإمام أحمد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «يُوْشِكُ أَنْ يَكُوْنَ خَيْرُ مَالِ الْمُؤْمِنِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِيْنِهِ مِنَ الْفِتَنِ»[2].

ولعل رسول الله ﷺ أشار إلى هذا الذي لَمَحْناه هنا بقوله: «إِنَّ الدِّيْنَ لَيَأْرِزُ إِلَىْ الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَىْ جُحْرِهَا، وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّيْنُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الأَرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، إِنَّ الدِّيْنَ بَدَأَ غَرِيْباً وَيَرْجِعُ غَرِيْباً، فَطُوْبَىْ لِلْغُرَبَاءِ الَّذِيْنَ يُصْلِحُوْنَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِيْ». رواه الترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله تعالى عنه[3].

وروى البخاري في «تاريخه»، وغيره ـ وهو صحيح الإسناد ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّىْ يَفْشُوَ الْفُحْشُ وَالْبُخْلُ، وَحَتَّىْ يَخُوْنَ الأَمِيْنُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، وَتَهْلَكَ الْوعُوْلُ، وَتَظْهَرَ التَّحُوتَ».

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٢٥، ٦٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٣٠) وقال: حسن صحيح.

قالوا: يا رسول الله! ما الوعول والتحوت؟

قال: «الْوُعُوْلُ وُجُوْهُ النَّاسِ، وَالتُّحُوْتُ الَّذِيْنَ تَحْتَ الأَقْدَامِ».

وفي رواية: قالوا: يا رسول الله! ما الوعول؟

قال: «وُجُوْهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُها»[1].

شبههم بالوعول لتمنعها تشبيهاً لشرف نفوسهم وارتفاع هممهم بالوعول في تحصُّنها، وسكناها قنان الجبال، وقلل الأطواد والشوامخ.

ـ **ومن عادة الوعل**: أنه إذا لسعته حية أكل السرطان فيبرأ، وقد سبق أنه مولع بأكل الحيات فربما ضرته، وقد سبق أنه يحتمي بعد أكلها عن الماء.

وهذا أمر عجيب الإلهام؛ فإنه ألهم الطب بطرفيه لأن الطب يرجع إلى الحمية، والعلاج بالأدوية.

ونظير ذلك أن الأفعى تختفي في التراب أربعة أشهر في البرد، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها، وقيل: تعمى، فتطلب شجرة الرازيانج فتحك عينيها به، فيرجع إليها بصرها. ذكره القزويني.

وقال غيره: إذا مرضت أكلت ورق الزيتون فتشفى.

وكثير من الأنعام والدواب تأكل من المرعى شيئاً دون شيء،

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٩٨)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٦٨٤٤).

وربما كان فيما عافته ضررها فتحجم عنه بإلهام من الله تبارك وتعالى.

فينبغي للإنسان أن لا يكون أعجز من الحيوان في تدبير فصول السنة، واتقاء حرها وبردها صيفاً وشتاءً؛ فإن الحية وغيرها من دواب الأجحرة يحتجر أربعة أشهر ونحوها، وبعض الطير يشتي في البلاد الدافئة، ويصيف في البلاد الباردة كالخطاف، ولا في الحمية عما يضره، والتداوي بما ينفعه عند الحاجة إليه، ولا ينفي عنه ذلك شيئاً من التوكل والثقة بالله تعالى.

روى ابن ماجه عن قيس بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: أتانا النبي ﷺ فوضعنا له ماء يتبرد به، فاغتسل[1].

وروى ابن السني، وأبو نعيم؛ كلاهما في «الطب» عن سهل بن سعد ﷺ قال: أقبل رسول الله ﷺ في يوم حار وقد وضع له ماء ليتبرد به، فجاء العباس فستره[2].

وروى أبو نعيم عنه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَدْفِئُوْا مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ»[3].

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٠٤)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٧٦٢).

(٢) ورواه الحاكم في «المستدرك» (٥٤١٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٨٢٩)، والروياني في «مسنده» (١٠٦٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦٩): رواه الطبراني، وفيه أبو مصعب إسماعيل بن قيس، وهو ضعيف.

(٣) كذا عزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ١٢٠) إلى أبي نعيم، وضعفه.

وعن مدركة بن حجير رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً نائماً في الشمس فقال: «قُمْ؛ فَإِنَّها تُغَيِّرُ الْبَدَنَ وَتُبْلِي الثَّوْبَ»[1].

وروى ابن السني، وأبو نعيم، والحاكم وصححه، عن عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يُستعذب له الماء العذب[2].

وروى الشيخان، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»[3].

وروى أبو داود، والترمذي، والحاكم وصححاه، والنسائي، وابن ماجه، وابن السني، وأبو نعيم عن أسامة بن شريك رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله! هل علينا جُناح ألا نتداوى.

قال: «تَدَاوُوا عِبَادَ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَم»[4].

---

(١) وروى بمعناه الحاكم في «المستدرك» (٨٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنه، وتعقبه الذهبي بقوله: ذا من وضع الطحان.

(٢) ورواه أبو داود (٣٧٣٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٣٣٢).

(٣) رواه البخاري (٥٣٥٤)، وابن ماجه (٣٤٣٩). وذكره الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (٣/ ٢٤٢) في أفراد البخاري.

(٤) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح، والحاكم في «المستدرك» (٧٤٣٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٥٥٣)، وابن ماجه (٣٤٣٦).

وروى ابن السني، وأبو نعيم، والحاكم وصححه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أجيف برجل من الأنصار يوم أحد، فدعا له رسول الله ﷺ طبيبين كانا بالمدينة، فقال: «عَالِجَاهُ».

فقالا: إنما كنا نعالج ونحتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام فما هو إلا التوكل.

فقال: «عَالِجَاهُ؛ فَإِنَّ الَّذِيْ أَنْزَلَ الدَّاءَ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ، ثُمَّ جَعَلَ فِيْهِ شِفَاءً».

فعالجاه، فبرأ[1].

وروى الإمام مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم رحمهما الله تعالى: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جرح، فحقن الدم، فدعى له رجلان من بني أنمار، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمَا أَطَبُّ؟».

فقال أحدهما: يا رسول الله! أوفي الطبِّ خير؟

فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الَّذِيْ أَنْزَلَ الدَّاءَ هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ»[2].

وهو ـ وإن كان مرسلاً ـ فذِكْرُ مالك له إثبات لأصله، وشاهده

---

(١) روى الحاكم في «المستدرك» (٧٤٣٣) الحديث دون القصة. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٩٩): رواه البزار، وفيه عاصم بن عمر العمري، وقد ضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان، وقال: يخطىء ويخالف، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٤٣).

حديث أبي هريرة المذكور، وهو حديث صحيح، وله شواهد أخرى.

وفيه دليل على أنه ينبغي أن يختار للتطبيب الأعلم والأحذق.

وروى الإمام أحمد، والترمذي وحسَّنه، والحاكم وصححه، عن أبي خزامة[1] رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها؛ هل ترُدُّ من قدر الله شيئاً؟

فقال: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»[2].

والمعنى: أنَّ الداء ينزل بقدر الله، ويكون في قدره أنه يذهب بالدواء الفلاني والرقية الفلانية، وإذا لم يوافقا القدر لا ينفعان.

والمراد الرقى المأذون فيها شرعاً، وهي ما كانت كلاماً عربياً لا حرج فيه، وقد سبق لنا في هذا الباب كلام في موضعٍ من القسم الأول من الكتاب.

- **ومن طبع الوَعِل**: ما ذكره الدميري والسيوطي في ترجمة الأروية أنه يبر أبويه، وذلك أنه يختلف إليهما بما يأكلانه، فإذا عجزا عن الأكل مضغ لهما وأطعمهما.

---

(١) قال الترمذي: وقال بعضهم: عن أبي خزامة عن أبيه، وقال بعضهم: عن ابن أبي خزامة عن أبيه، وقال بعضهم: عن أبي خزامة، وقد روى غير ابن عيينة هذا الحديث عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه، وهذا أصح.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢١)، والترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن صحيح، ، والحاكم في «المستدرك» (٨٧).

ونظير ذلك ما ذكراه: أن الفهود الهرمة العاجزة عن الصيد لنفسها تجتمع على فهد فتي فيصيد لها كل يوم شبعها.

فلا ينبغي للعبد أن يكون أعجز من هذين الحيوانين، فيقصِّر في بِرِّ أبويه خصوصاً عند كبرهما، ولا في حق من يليه إذا كان في حال الكبر والعجز، أو الضعف.

وقد سبق في حديث كعب بن عجرة عن الشاب الذي بكر يسعى: أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنْ كَانَ يَسْعَىْ عَلَىْ أَبَوَيْنِ كَبِيْرَيْنِ لِيَكْفِيَهِمَا فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ»[1].

وقال ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخاً لِسِنِّهِ إِلاَّ قَيَّضَ اللهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ». رواه الترمذي من حديث أنس[2].

ومما يناسب هذا الفصل ما ذكره الدميري، والسيوطي أيضاً: أنَّ في طبع الكركي أنه يبر أبويه إذا كبرا.

قال كشاجم يخاطب ولده: [من الخفيف]

اتَّخِذْ فِيَّ خُلَّةَ الكراكِي ... أَتَّخِذْ فِيكَ خُلَّةَ الوَطْواطِ

أَنا إِنْ لَمْ تَبَرَّنِي تُعَنَّى ... فَبِبِرِّي تَرْجُو جَوازَ السِّراطِ

وخلة الوطواط، وهو الخفاش أنه يبر ولده، ولا يتركه بِمَضْيعة، بل يحمله معه حيثما توجه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٢٢) وقال: غريب.

قيل: وليس في الحيوان ما يحمل ولده غير الوطواط، والقرد، والإنسان، ولعله في الغالب.

وإلا فالهر تحمل أولادها، لكنها تجمع بين بر وعقوق، فربما أكلت أولادها.

قيل: وذلك لشدة حنوها على أولادها.

والوطواط يحمل ولده تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه، وذلك من حنوه وإشفاقه عليه، وربما أرضعت الأنثى ولدها وهي طائرة.

فلا ينبغي للإنسان أن يكون أعجز من هذه البهائم في الحنو على ولده والقيام عليهم بالإنفاق والتربية.

وأكثر ما يحصل للآباء القسوة على الأولاد من موت الأمهات، واختيار الآباء لزوجات أُخر، فتغلب شهوتُه مروءتَه، وذلك غير محمود، بل هو مما يذم به الإنسان.

وقد روى الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعِيْنُوْا أَوْلادكُمْ عَلَىْ الْبِرِّ، مَنْ شَاءَ اسْتَخْرَجَ الْعُقُوْقَ مِنْ وَلَدِهِ»[1].

وقال ﷺ في حديث كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه: «وَإِنْ

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٠٧٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٤٦): فيه من لم أعرفهم.

كَانْ يَسْعَىْ عَلَىْ وَلَدِهِ صِغَاراً فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ»[1].

وفي «صحيح مسلم»، و«جامع الترمذي» عن أبي قلابة، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ دِيْنَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِيْنَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىْ عِيَالِهِ، وَدِيْنَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى دَابَتِهِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، وَدِيْنَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىْ أَصْحَابِهِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ».

قال أبو قلابة رحمه الله تعالى: بدأ بالعيال.

ثم قال أبو قلابة: وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم الله به؛ أي: ينفعهم الله به ويغنيهم[2].

- **ومن ذلك: الأرنب والثعلب**؛ يضرب بهما المثل في الفرار.

وفي المثل: ألطف من الأرنب[3]، وأطعم أخاك من كلية الأرنب[4]؛ يضرب في المواساة ولو في القليل، وهو من أخلاق المؤمن.

والثعلب ذو فرار مما يؤذيه، وحذر وحيلة.

وذلك كله ممدوح من العبد إذا كان في محله كأن يفر بدينه، ويحذر من عدوه، ويحتال في استخلاص نفسه إذا وقع في معضلة، وفي نفع نفسه من غير مخالفة للشرع في شيء من ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٩٩٤)، والترمذي (١٩٦٦).

(٣) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/ ٢٨٥).

(٤) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٤٣٣).

وإنما كراهية المشابهة بالثعلب في الروغان إذا كان عن الحق كما تقدم.

روى أبو نعيم، والبيهقي في «الزهد»، والرافعي في «تاريخ قزوين» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِيْ عَلَىْ النَّاسِ زَمَانٌ لا يَسْلَمُ لِذِيْ دِيْنٍ دِيْنُهُ إِلاَّ مَنْ فَرَّ مِنْ شَاهِقٍ إِلَىْ شَاهِقٍ أَوْ جُحْرٍ إِلَىْ جُحْرٍ كَالثَّعْلَبِ بِأَشْبَالِهِ»(١).

وذلك في آخر الزمان إذا لم تحصل المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، فإذا كان ذلك حلت الغربة.

يكون في ذلك الزمان هلاك الرجل على يدي أبويه إن كان له أبوان، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له ولد فعلى يدي الأقارب والجيران؛ يعيرونه بضيق المعيشة، ويكلفونه ما لا يطيق.

وقلت مواليّاً:

هَـذا الزَّمـانُ الَّـذِي لَـمْ يَـصْفُ فِيـهِ العَـيْش
إلاَّ بِمَعْـصِيَةِ اللهِ وَاتِّبَـاعِ الْهَـيْش
فَاحْرِصْ عَلى الدِّينِ وَاهْرُبْ مِنْ مَكـانِ الطَّـيش
وَاقْنَـعْ تَـسَاوي البِـلَى بَـيْنَ الْحَرِيـرِ وَالْخَـيْش

---

(١) تقدم تخريجه.

العيش: الحياة، والمعيشة.

والهيش: الإفساد، والتحرك، والهيج، والجمع، والإكثار من الكلام، وجمع هيشة بمعنى الهوشة، وهي الجماعة المختلطة، والكل صالح في البيت.

والطيش: النزق، والخفة، وذهاب العقل.

والخيش: ثياب في نسجها دقة، وخيوطها غلاظ من مشاقة الكتان، أو من أردأ الثياب.

ـ ومن أحوال البهائم: الاستسقاء.

والإشارة إليه في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يا مَعْشَرَ الْمُهاجِرِينَ! خِصالٌ خَمْسٌ إِنِ ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَنزَلْنَ بِكُمْ؛ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الفاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِها إِلاَّ فَشا فِيهِمُ الطَّاعونُ وَالأَوْجاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلافِهِمْ.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمؤنَةِ وَجَوْرِ السُّلطانِ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلا نَقَضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَأْخُذَ بَعْضَ ما فِي أَيْدِيهِمْ.

وَما لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتابِ اللهِ إِلاَّ جَعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». رواه ابن ماجه، والبزار، والبيهقي، واللفظ له[1].

وروى البزار عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَهْلاً عَنِ اللهِ مَهْلاً؛ فَلَوْلا عِبادٌ رُكَّعٌ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لَصَبَّ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ صَبّاً»[2].

وروى ابن عدي عن مالك بن عبيدة، عن أبيه، عن جده[3] رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْلا عِبادٌ للهِ رُكَّعٌ، وَصِبْيَةٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لَصَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ صَبّاً ثُمَّ يَرُصُّ رَصّاً»[4].

ويرص ـ بالصاد المهملة ـ: من رص البناء إذا ضمَّ بعضه إلى بعض، ويروى بالضاد المعجمة كما في «النهاية»[5].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٥٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣١٨): رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٠٨٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٧): رواه البزار والطبراني وأبو يعلى أخصر منه، وفيه إبراهيم بن خثيم، وهو ضعيف.

(٣) في «الكامل»: «إبراهيم بن خثيم بن عراك بن مالك عن أبيه عن جده عن أبي هريرة» بدل «عن مالك بن عبيدة، عن أبيه، عن جده».

(٤) رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٤٣) وأعله بإبراهيم بن خثيم، وقال: وهو متوسط في الضعفاء وأحاديثه منه ما يتابع عليه، ومنه ما لا يتابع عليه.

(٥) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٢٢٧).

والمعنى: إن الله تعالى ينظر إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة فيرحمهم، ويرحم بقية العباد بهم أهل الطاعة لطاعتهم، والأطفال لضعفهم، والبهائم لتسبيحها وعدم تحقق معصية منها، أو لطلبها من الله تعالى أن يرزقها ويسقيها، ولا يهلكها بذنوب الخاطئين من عباده كما روى الدارقطني، والحاكم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تَقْتُلُوْا النَّمْلَةَ فَإِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَسْتَسْقِيْ فَإِذَا هُوَ بِنَمْلَةٍ مُسْتَلْقِيَةٍ عَلَىْ قَفَاهَا رَافِعَةٍ قَوَائِمَهَا تَقُوْلُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ لا غِنَىْ لَنَا عَنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ لا تُؤَاخِذْنَا بِذُنُوْبِ عِبَادِكَ الْخَاطِئِيْنَ وَاسْقِنَا مَطَراً تُنْبِتُ لَنَا بِهِ شَجَراً وَأَطْعِمْنَا ثَمَراً فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيهِ السَّلامُ ارْجِعُوْا فَقَدْ كُفِيْنَا وَسُقِيْتُمْ بِغَيْرِكُمْ»[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم عن أبي الصدِّيق النَّاجي رحمه الله تعالى قال: خرج سليمان بن داود عليهما السلام قال: فمر بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنَّا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك؛ فإمَّا أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا.

فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[2].

ويُروى: أنه اتفق لأبيه داود عليهما السلام مثل ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٨٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٠١).

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب قال: خرج داود عليه السلام يستسقي، فبينما هو في سيره - أو قال: على سريره - فإذا هو بنملة رافعة يدها تقول: اللهم إنَّا خلق من خلقك لا غنى بنا عن رزقك؛ فلا تؤاخذنا بذنوب بني آدم.

فقال داود عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم.

وتقدم الأثر عن السري بن يحيى في استسقاء الحمر الوحشية، وعن أحمد بن عمر الوزان في استسقاء الظبي حين حيل بينه وبين الماء[1].

- ومن أحوال بعض البهائم والحيوانات: الاستغاثة بالنبي ﷺ، وطلب الشفاعة، والاستجارة به عليه الصلاة والسلام.

روى ابن أبي شيبة، وأبو نعيم، والبيهقي؛ كلاهما في «الدلائل» عن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ إليه وذَرَفت عيناه، فقال ﷺ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟».

فجاء فتى من الأنصار، فقال: هو لي.

فقال: «أَلا تَتَّقِيْ اللهَ فِيْ هَذِهِ الْبَهِيْمَةِ الَّتِيْ مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَىْ إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيْعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وكذا رواه أبو داود (٢٥٤٩)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١٣٣٠).

وروى الطبراني، وأبو نعيم عن يعلى بن مرَّة رضي الله تعالى عنه قال: خرج النبي ﷺ يوماً فجاء بعير يرغو حتى سجد له، فقال المسلمون: نحن أحق أن نسجد للنبي ﷺ، فقال: «لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا؛ تَدْرُوْنَ مَا يَقُوْلُ هَذَا؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَدَمَ مَوَالِيْهِ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً حَتَّىْ إِذَا كَبُرَ سِنُّهُ نَقَصُوْا مِنْ عَلَفِهِ وَزَادُوْا فِيْ عَمَلِهِ حَتَّىْ إِذَا كَانَ لَهُمْ عُرْسٌ أَخَذُوْا الشِّفَارَ لِيَنْحَرُوْهُ».

فأرسل إلى مواليه فقص عليهم، فقالوا: صدق والله يا رسول الله.

قال: «فَأُحِبُّ أَنْ تَدَعُوْهُ لِيْ»[1].

وروى الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الدلائل» عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ في الصحراء فإذا مناد يناديه، يا رسول الله! فالتفت فلم يرَ أحداً، ثم التفت فإذا ظبية مُوثَقة، فقالت: أُدْنُ مني يا رسول الله.

فدنا منها وعندها أعرابي نائم، فقال: «مَا حَاجَتُكِ؟».

فقالت: إنَّ لي خشفين في هذا الجبل، فحلني حتى أذهب فأرضعهما، ثم أرجع إليك.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٦١)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/ ١٥٨) مختصراً دون ذكر السجود.

ورواه بلفظ قريب من لفظ المصنف: الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣١١): فيه الفضل بن المختار، وهو ضعيف.

فقال: «وَتَفْعَلِيْنَ؟».

فقالت: عذَّبَني الله عذاب العشار إن لم أفعل.

فأطلقها، فذهبت وأرضعت خشفيها، ثم رجعت فأوثقها، فانتبه الأعرابي، فقال: ألك حاجة يا رسول الله؟

قال: «نعَمْ؛ تُطْلِقُ هَذِهِ الظَّبْيَةَ».

فأطلقها، فخرجت تعدو وهي تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله[1].

في إسناده أغلب بن تميم[2]، لكن لهذا الحديث طرق كثيرة تشهد أنَّ لهذه القصة أصلاً؛ فإنَّه رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم من حديث أنس، والبيهقي من حديث أبي سعيد، وهو وأبو نعيم من حديث زيد بن أرقم[3].

وتقدم ما رواه أبو داود الطيالسي، والحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في سفر، فدخل رجل غَيضة، فأخرج منها بيض حُمْرة ـ وفي لفظ: فرخي حمرة ـ فجاءت الحمرة ترف على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣٣١)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/ ١٥٨).

(٢) قال ابن حجر في «لسان الميزان» (١/ ٤٦٤): أغلب بن تميم، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء.

(٣) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ١٠١).

«أَيُّكُمْ فَجَعَ هَذِهِ؟».

فقال رجل: يا رسول الله! أنا أخذت بيضها.

ولفظ الحاكم: فرخيها.

فقال رسول الله ﷺ: «رُدَّهُ، رُدَّهُ رَحْمَةً لَهَا»[1].

ورواه أبو الشيخ في «العظمة»، وأبو نعيم، والبيهقي؛ كلاهما في «الدلائل»، ولفظهم: كنا مع النبي ﷺ في سفر فمررنا بشجرة فيها فرخا حمرة، فأخذناهما، فجاءت الحمرة إلى النبي ﷺ وهي تعرض، فقال: «مَنْ فَجعَ هَذِهِ بِفَرْخَيْهَا؟».

قلنا: نحن.

قال: ردُّوهما موضعهما.

فرددناهما[2].

قيل: كانوا محرمين؛ فلذلك أمرهم برد الفرخين.

وقيل: لما استجارت بالنبي ﷺ أجارها، وهذا أقرب.

ـ ومن أحوال بعض البهائم والسباع: انقيادها لأهل الله تعالى، ولياذها بأوليائه، واحتشامها لهم، وأُنسها بهم.

روى الإمام أحمد، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم، والبيهقي؛ كلاهما في «الدلائل»، وابن عساكر عن عائشة رضي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الله تعالى عنها قالت: كان لآل رسول الله ﷺ وحش، فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب، وذهب وجاء، فإذا جاء رسول الله ﷺ رَبَضَ، فلم يترمرم ما دام رسول الله ﷺ كان في البيت[1].

وروى أبو نعيم في «الدلائل» عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً من الأنصار كان له بعير فشرد عليه، فقال: يا رسول الله! إنَّ لي بعيراً قد شرد علي، وهو في أقصى أرضي لا أستطيع أن أدنو منه خشية أن يتناولني، فانطلق إليه، فلما أن نظر البعير إلى رسول الله ﷺ أقبل يحبو، وألقى بجرانه حتى برك عند رسول الله ﷺ، وجعل عيناه تسيلان، فقال: «يَا فُلانُ! أَرَى بَعِيْرَكَ يَشْكُوْكَ؛ فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ»، فجاء بحبل فألقاه في رأسه[2].

ورواه الإمام أحمد، والبزار، وأبو نعيم بنحوه، وزادوا: فجاء الجمل حتى خرَّ ساجداً بين يديه، فقال أصحابه: هذه بهيمة لا تعقل، فنحن أحق أن نسجد لك. . . الحديث[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ١١٢)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٤٤١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٩١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٣٨٥).

(٢) كذا عزاه السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٩٦) إلى أبي نعيم.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣ / ١٥٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤): رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس وهو ثقة.

وفي هذا الباب أحاديث كثيرة[1].

وروى البيهقي: أن دانيال عليه السلام طُرِح في جب، وألقي عليه السباع، فجعلت السباع تلحسه وتبصبص إليه، فأتاه رسول، فقال: يا دانيال!

قال: من أنت؟

قال: أنا رسول ربك إليك، أرسلني إليك بطعام.

فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي الزناد قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل وهما يلحسانه، قال أبو بردة: هذا خاتم دانيال، فسأل أبو الزناد علماء تلك البلدة، فقالوا: إن دانيال نقش صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك[3].

وروى ابن السني في «عمل اليوم والليلة» عن علي رضي الله تعالى عنه قال: إذا كنت بواد تخاف فيه السبع فقل: أعوذ بدانيال، وبالجب من شر الأسد[4].

---

(١) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٩٤ ـ ١٠٢).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٣٨).

(٣) كذا عزاه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٤١) لابن أبي الدنيا، وقال: إسناده حسن.

(٤) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٣٠٨)، وكذا رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص: ٢٣٩).

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو الشيخ بن حيان في «تفسيره»، وأبو نعيم عن وهب قال: لما أمر نوح عليه السلام أن يحمل من كل زوجين اثنين قال: يا رب! كيف أصنع بالأسد والبقرة؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب؟ وكيف أصنع بالحمام والهر؟

قال: من ألقى بينهم العداوة؟

قال: أنت.

قال: فإني أؤلف بينهم حتى لا يتضارون[1].

وروى أبو يعلى، والبزار، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عن سفينة رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت سفينة في البحر فانكسرت، فركبت لوحاً، فأخرجني إلى أجمة فيها أسد، فأقبل إليَّ، فقلت: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، وكنت تائهاً، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق، ثم هَمْهَم، فظننت أنه السلام[2].

ولهذه القصة طرق، وتقدمت قصة ابن عمر رضي الله عنهما مع الأسد[3].

وروى اللالكائي في كرامات الأولياء من كتاب «شرح السنة» عن

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٤٣)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٢٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

المعلَّى بن زياد: أنَّ عامر بن عبد قيس كان مسافراً، فمرَّ بقافلة قد حبسهم الأسد من بين أيديهم على طريقهم، فلما جاء عامر نزل عن دابته، فقالوا: يا أبا عبدالله! إنا نخاف [عليك] من الأسد.

فقال: إنما هو كلب من كلاب الله ﷻ؛ إن شاء أن يسلطه سلطه، وإن شاء أن يكُفَّه كفه، فمشى إليه حتى أخذ بيديه أذني الأسد، فحاد عن الطريق، وجازت القافلة.

وقال: إني أستحيي من ربي أن يرى من قلبي أني أخاف من غيره[١].

وعن عبد الجبار بن كثير قال: قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: هذا السبع قد ظهر لنا.

فقال: أرونيه.

فلما رآه قال: يا قسورة! إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به، وإلا فعودك على يديك.

قال: فولى السبع ذاهباً[٢].

وعن عبدالله بن نوح القنطري العابد قال: اطلعت على إبراهيم ابن أدهم رحمه الله تعالى في بستان بالشام، فإذا إبراهيم نائم مستلق، وإذا حية في فمها باقة نرجس، فما زالت تذب عنه حتى انتبه[٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص: ٢٤٢).

وعن الحسن بن دعابة قال: رأيت عتبة البغدادي رحمه الله تعالى إذا استحسن الطير دعا به، فيجيء حتى يسقط على فخذه، فيمسه، ثم يسيبه فيطير[1].

وعن أحمد بن شبرمة ـ واستشهد بجماعة فشهدوا معه ـ قال: قدم سفيان الثوري هاهنا البصرة فارًّا من القوم، فاستخفى في بيت بعض أصحابنا، وكان لابن المنزول به طير يلعب به، فقال سفيان يوماً: لي إليك حاجة.

قال: ما هي؟

قال: أحب أن تستوهب ذلك الطير وتهبه لي.

قال: نعم.

فاستوهب ذلك الطير من ابنه، فوهبه لسفيان، فقبضه سفيان، فأطاره، وخرج من الكن، فلما جَنَّ الليل عاد ودخل الكن، فكان ذلك دأبه يسرح بالنهار ويأوي بالليل حتى توفي سفيان، وظهر أمره، فخرجوا إلى جنازته، فلما صلي عليه ودفنوه وأهيل عليه التراب، وانصرف الناس، أتى ذلك الطير حتى قعد على قبره كئيباً حزيناً، ثم طار يذهب، فكان ذلك دأبه حتى مات، فعمد صاحبه فدفنه إلى جنب سفيان الثوري[2].

---

(١) رواه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص: ٢٢٥).

(٢) رواه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص: ٢٠١).

وروى أبو نعيم عن شريح بن يونس قال: كنت ليلة نائماً فوق المشرعة، فسمعت صوت ضفدع، فإذا ضفدع في فم حية، فقلت: سألتك بالله إلا خليتِها، فخلتها[1].

وعن أحمد بن خلف قال: دخلت يوماً على السـري، فقال: ما أعجبك من عصفور يجيء فيسقط على هذا الرواق، فأكون قد أعددت له لقمة، فأفتُّها في كفي، فيسقط على أطراف أناملي، فيأكل؟

فلما كان في وقت من الأوقات سقط على الرواق، ففتت الخبز في يدي، فلم يسقط على يدي كما كان، فذكرت في سِرِّي العلة في وحشته مني، فوجدتني قد أكلت ملحاً طيباً، فقلت في نفسي: أنا تائب من الملح، فسقط على يدي، فأكل وانصرف[2].

وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري في «الرسالة» عن الجنيد رحمه الله تعالى قال: دخلت على السري يوماً فقال لي: عصفور كان يجيئني كل يوم، فأفت له الخبز، فيأكل بين يدي، فنزل وقتاً من الأوقات فلم يسقط على يدي، فتذكرت في نفسي إيش السبب، فتذكرت أني أكلت ملحاً بأبزار، فقلت في نفسي: لا آكله بعدها، وأنا تائب، فسقط على يدي وأكل.

وروى أبو نعيم عن محمد بن وهب عن بعض أصحابه أنه حج

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١١٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢٣).

مع أيوب الحمال قال: فلما دخلنا البادية وسرنا منازل، وإذا بعصفور يحوم حولنا، فرفع أيوب رأسه إليه، وقال: قد جئت إلى هاهنا، فأخذ كسرة خبز ففتَّها في كفه، فانحط العصفور وقعد على كفه يأكل منها، ثم صب له ماء فشربه، ثم قال له: اذهب الآن، فطار العصفور، فلما كان من الغد رجع العصفور، ففعل أيوب مثل فعله في اليوم الأول، فلم يزل كذلك يفعل به ذلك إلى آخر السفر.

ثم قال أيوب: تدري ما قصة هذا العصفور؟ كان يجيئني في منزلي كل يوم، فكنت أفعل به ما رأيت، فلما خرجنا تبعني يقتضي مني ما كنت أفعل به في المنزل[1].

والحكايات في هذا الباب كثيرة، وهي داخلة في كرامات الأولياء رضي الله تعالى عنهم.

ـ ومن أحوال بعض البهائم والعجماوات: حزنها لفقد أولياء الله تعالى، وحنينها إليهم.

روى ابن عساكر، وغيره بسند ضعيف، عن أبي منظور ﵁ قال: لما فتح رسول الله ﷺ خيبر أصاب حماراً أسود، فكلم رسول الله ﷺ الحمار، فقال له النبي ﷺ: «مَا اسْمُكَ؟».

قال: يزيد بن شهاب، أخرج من نسل أبي ستون حماراً كلهم لم يركبه إلا نبي، قد كنت أتوصل أن تركبني، فلم يبق من نسل جدي

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣١٣).

غيري، ولا من الأنبياء غيرك، قد كنت قبلك لرجل يهودي، وكنت أتعثر به عمداً، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري.

فقال له النبي ﷺ: «فَأَنْتَ يَعْفُوْرٌ».

فكان النبي ﷺ يبعث به إلى باب الرجل، فيأتي الباب فيقرعه برأسه، فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله ﷺ، فلما قبض النبي ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان، فتردَّى فيها حزناً على رسول الله ﷺ[1].

وهذا الحديث ـ وإن أنكره ابن حبان، والمديني، وغيرهما من الحفاظ ـ إلا أنه يستأنس به لهذا النوع[2].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا مَاتَ أَظَلَّتِ الطَّيْرُ جَنَازَتَهُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الْمَضْرَحِيَّةُ»، وَهِيَ الصُّقُوْرُ الطِّوَالُ الأَجْنِحَةِ[3].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٢٣٢).

(٢) قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٥/ ٣٧٦): خبر باطل، قال ابن حبان: هذا خبر لا أصل له، وإسناده ليس بشيء، وقال ابن الجوزي: لعن الله واضعه.

قلت: وإذا كان الخبر كذا حاله، فلا يجوز الاحتجاج به ولا الاستئناس، وهو كما قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٢٩١): وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، ولا يحتاج إلى ذكره مع ما تقدم من الأحاديث الصحيحة التي فيها غُنية عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤١٩).

وقد ذكرت آنفاً قصة سفيان الثوري مع الطائر، وحزن الطائر عليه، حتى مات على قبره بعد ثلاثة أيام[1].

وحكى ابن السبكي في «طبقاته» في ترجمة الأستاذ أبو القاسم القشيري: أنَّ الفرس الذي كان يركبه الأستاذ أبو القاسم القشيري - وكانت رمكة[2] - أهديت إليه قبل موته بنحو عشرين سنة، ما كان الأستاذ يركب غيرها، وما ركبها أحد بعده.

وحكى أنها لم تعتلف بعد وفاته حتى ماتت، وسقطت في الإصطبل سادس يوم من يوم وفاته[3].

قلت: وكان لشيخ الإسلام الوالد رحمه الله تعالى هر أبيض اللون منقط بحمرة، وكان يألف الشيخ، ويكون حواليه غالباً لا يكاد يفارق الشيخ إلا قليلاً، يلوذ به في غالب أحيانه، وكان الشيخ يسميه فارساً، وكان إذا دعاه باسمه أقبل إليه حيثما كان، وكان يبره ويطعمه من أحسن ما يكون بين يديه، فلما انتقل الشيخ إلى رحمة الله تعالى فقدنا ذلك الهر، ثم وُجِدَ ميتاً بعد ثلاثة أيام فوق سطح زاوية الشيخ المعروفة بالحلبية لصيق الجامع الأموي، مُلقى فوق الموضع الذي كان الشيخ يجلس فيه للمطالعة والإفتاء والتصنيف، وكان الجيران

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) الرمكة: الضعيف أوالفرس البرذونة تتخذ للنسل.

(٣) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» لابن السبكي (٢/ ٥٦٨).

يسمعون صياحه في تلك الأيام الثلاثة ليلاً ونهاراً، ثم انقطع صوته بعد ذلك فوجد ميتاً مما شُرِح.

* تَنْبِيهٌ:

أعجب مما ذكر حزن الجمادات كالبقاع، وبكاؤها لفقد العبد المؤمن والصالح خصوصاً العلماء.

روى عبد بن حميد عن مجاهد قال: إن العالم إذا مات بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً[١].

وعن وهب قال: إن الأرض لتحزن على العبد الصالح أربعين صباحاً[٢].

وروى الترمذي، وابن أبي الدنيا في كتاب «ذكر الموت»، وأبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والخطيب عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ إلاَّ وَلَهُ فِيْ السَّمَاءِ بَابَانِ، بَابٌ يَصْعَدُ مِنْهُ عَمَلُهُ وَبَابٌ يَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، فَإِذَا مَاتَ فَقَدَاهُ وَبَكِيَا عَلَيْهِ»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩][٣].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤١٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤١٢).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة، ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث. =

وذكر أنهم ـ يعني: آل فرعون ـ لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم.

وسُئِل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟

قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق عليه بابه من السماء فقده، فيبكي عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله تعالى فيها بكت عليه.

قال: وإنَّ قوم فرعون لم يكن لهم آثار صالحة في الأرض، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض. رواه ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب»[1].

ويُروى هذا المعنى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه[2].

= ورواه أبو يعلى في «المسند» (٤١٣٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٨٩)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢١١).

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٥/ ١٢٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٢٨٨).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١١٤)، ولفظه: إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء والأرض.

- ومن أحوال العجماوات: أنها تستغفر لطلبة العلم والعلماء العاملين، وتترحم عليهم مع التعظيم لهم.

روى أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وغيرهم عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقاً إِلَىْ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَىً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِيْ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ حَتَّىْ الْحِيْتَانُ فِيْ الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَىْ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوْا دِيْنَاراً وَلا دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوْا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه المتقدم في فضل العلم وأهله: يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه... الحديث بطوله. رواه أبو الشيخ، وابن عبد البر[2].

وروى الترمذي وصححه، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّىْ النَّمْلَةَ فِيْ جُحْرِهَا وَحَتَّىْ الْحُوْتَ لَيُصَلُّوْنَ عَلَىْ مُعَلِّمِ النَّاس الْخَيْرَ»[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وروى الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «عُلَمَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ رَجُلانِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعاً وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَناً، فَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ حِيْتَانُ الْبَحْرِ وَدَوَابُّ الْبَرِّ وَالطَّيْرُ فِيْ جَوِّ السَّمَاءِ، وَيَقْدُمُ عَلَىْ اللهِ تَعَالَىْ سَيِّدَاً شَرِيْفَاً حَتَّىْ يُرَافِقَ الْمُرْسَلِيْنَ»، وذكر الحديث، وتقدم بتمامه[1].

وفي الباب غير ذلك من الأحاديث.

ـ ومن أحوال العجماوات: أنَّ منها ما يلهم النصيحة للخلق.

روى أبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنت عند عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وعنده كعب الأحبار، فقال كعب: يا أمير المؤمنين! ألا أخبرك بأغرب شيء؟ قرأت في كتب الأنبياء عليهم السلام أن هامَة ـ وهي بتخفيف الميم على المشهور: طير الليل ـ جاءت إلى سليمان عليه الصلاة والسلام، فقالت: السلام عليك يا نبي الله.

فقال: وعليك السلام يا هامة؛ أخبريني كيف لا تأكلين من الزرع؟

قالت: يا نبي الله! إن آدم أخرج من الجنة بسببه، فمن أجل ذلك لا آكل.

فقال: وكيف لا تشربين من الماء؟

---

(١) تقدم تخريجه.

قالت: لأنه غرق فيه قوم نوح، فمن أجل ذلك لا أشربه.

قال لها سليمان: كيف تركت العمران؟

قالت: لأن الخراب ميراث الله، فأنا أسكن ميراث الله.

قال سليمان: فما صياحك في الدور إذا مررت عليها؟

قالت: أقول: ويل لبني آدم كيف ينامون وأمامهم الشدائد؟

قال: فما لك لا تخرجين بالنهار؟

قالت: من كثرة ظلم بني آدم لأنفسهم.

قال: فأخبريني ما تقولين في صياحك؟

قال: أقول: تذكروا يا غافلين وتهيؤوا لسفركم؛ سبحان خالق النور!

فقال لسليمان عليه السلام: ليس من الطيور أنصح لابن آدم وأشفق من الهامة، وما في قلوب الجهال أبغض منها[1].

ومما يضرب به المثل في النصح الكلب.

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: [من الطويل]

وَقَــدْ قِيــلَ كُــنْ كَالْكَلْــبِ يُقْــصِيهِ أَهْلُــهُ

وَلا يَــأْتَلِي فِــي نُــصْحِهِمْ مُتَــأَثِّلاَ

---

(١) تقدم تخريجه.

ـ **ومن أحوال العجماوات والبهائم: أنها تلعن العصاة وعلماء السوء، وتردُّ اللعنة على لاعنها.**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

قيل في تفسير الآية: كما أن العلماء العاملين يستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان في الماء والطير في الهواء، كذلك كاتم العلم لغرض فاسد يلعنه كل شيء.

وروى ابن الجوزي في «العلل» عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَاتِمُ الْعِلْمِ يَلْعَنُهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّىْ الْحُوْتُ فِيْ الْبَحْرِ وَالطَّيْرُ فِيْ السَّمَاءِ»(١).

وقلت ملمحاً بذلك: [من الخفيف]

عالِمٌ مُخْلِصٌ نَصُوحٌ لَـهُ اسْتَغْـ ـفَرَ كُـلٌّ مِـنَ الْخَلائِـقِ حَقّـاً
وَالَّـذِي يَكْـتُمُ العُلُـومَ لِـدَيْنا لَعَنَتْـهُ الأَشْـياءُ بُغْـضاً وَحَنَقـاً
إِنَّ هَذا لَفِي الْحَضِيضِ وَذاكَ الْـ ـمُخْلِصُ القَلْبَ فِي الْمَراتِبِ يَرْقَى

---

(١) رواه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٩٩) من طريقين، وقال: في طريقه الأول: ابن دأب؛ قال أبو زرعة: كان يكذب، وفي الطريق الثاني: يحيى بن العلاء؛ قال أحمد: كذاب يضع الحديث.

فَتَلَبَّسْ بِما تَشاءُ فَإِنَّ الـ ـمَرْءَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ سَيَلْقى

وَتَعَلَّمْ وَكُنْ سَعِيداً بِعِلْمٍ لا تَكُنْ مُسْرِفاً بِعِلْمِكَ تَشْقى

*** تَنْبِيهٌ لَطِيفٌ:**

قد اشتملت هذه الآية المذكورة مع الوعيد على كتمان العلم على غاية التلطف بالعالم المفرِّط في علمه ليتوب ويفيء إلى حفظ خير العلم الذي أوتيه؛ فإنه الشرف البالغ الشَّأْو في الرفعة والسمو، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما وجه الوعيد إلى كاتم البينات والهدى لم يصفه بالعلم، بل صبَّ الوعيد على الكتمان صيانة لمنصب العلم عن وصمة اللعن، وإشارة إلى أن الكاتم لا يكاد يوصف بالعلم؛ فإنه ساوى أهل الجهل في ذلك، ثمَّ لما استثنى التائبين وصفهم بالبيان الذي هو ثمرة العلم، وفي طي ذلك وصفهم بالعلم، ثم نوَّه باسمهم بقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾؛ ذكرهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد إشارة إلى بعد مقامهم في السمو والسناء، وذكر وعده لهم بفعل المتكلم الواحد على وجه الالتفات، وأتى في الوعيد بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فأتى باسم الإشارة الموضوع للبعيد إبعاداً لهم، وباسم الله الجامع إشارة إلى وصف يجمع صفات القهر والانتقام، وأتى بالهمزة في ﴿أَتُوبُ﴾ الموضوعة للمفرد، ولم يأت بنون العظمة إشارة إلى اختصاصهم به الداعي إلى أن يتولى التوبة عليهم بذاته الكريمة دون الوسائط، ولم يقل: أقبل توبتهم، بل: أتوب عليهم تحقيقاً لثمرات التوبة التي تابوها، وأتوب مع الاحتمال أبلغ من أقبل توبتهم، وفيه إيماء إلى أن

توبة العالم تكون من بصيرة، فإذا تاب فإنما توبته بتوبة الله عليه ورده إياه إلى التبيين والتفقه بعلمه والانتفاع به، ثم أكد هذا الوعد الجميل بالتوبة المخصوصة بتولي الله تعالى لها وحده بالضمير الموضوع للمتكلم وحده مخبراً عنه بوصفين عظيمين بصفتي المبالغة، فقال: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

ولقد قلت: [من السريع]

يـا رَبِّ قَـدْ آتَيْتَنِـي عِلْمـاً ... فَـأَتْمِمِ الإِحْـسانَ وَالنِّعَمـا

فَـلا يَكُـونَ العِلْـمُ لِـي فاتِنـاً ... وَوَقِّنِـي العِـصْيانَ وَالإِثْمـا

وَثَبِّـتِ اللَّهُـمَّ قَلْبِـي عَلَـى ... دِينِكَ يـا مَـنْ حِـصْنُهُ الأَحْمَـى

حَتَّـى أُفِيـدَ العِلْـمَ لا طاغِيـاً ... بِـهِ وَلا أَمْنَعَـهُ كَتْمـاً

عَلَّمْتَنِـي العِلْـمَ وَأَشْـقَى بِـهِ ... قِنِـي إِلَهِـي كُـلَّ مـا هَمَّـا

يا رَبِّ فَـانْفَعْنِي بِمـا نِلْـتُ مِـنْ ... عِلْـمٍ وَزِدْنِـي سَـيِّدِي عِلْمـاً

وروى الحافظ عماد الدين بن كثير في «تفسيره» عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فقال: «إِنَّ الْكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَسْمَعُهَا كُلُّ دابَّةٍ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ، تَلْعَنُهُ كُلُّ دابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]»[1].

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠١)، ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٦٩).

وروى عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة رحمه الله تعالى: أن عصاة بني آدم يلعنهم كل شيء حتى الخنافس والعقارب؛ يقولون: مُنِعْنا القطر بذنوب بني آدم[1].

وروى سعيد بن منصور، وابن جرير عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: إنَّ البهائم إذا اشتدت عليها السنة قالت: هذا من أجل عصاة بني آدم؛ لعن الله عصاة بني آدم[2].

وروى عبد بن حميد عنه قال: إذا أجدب البهائم دعت على فجار بني آدم، فقالت: حبس عنا الغيث بذنوبهم[3].

* تنبيهانَ:

الأَوَّلُ: دلَّت هذه الآثار أن ذنوب بني آدم تكون سبباً لهلاك غيرهم من الدواب.

روى البيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه.

فقال أبو هريرة: كذبت والذي نفسي بيده؛ إن الحُبارى لتموت هزالاً من خطايا بني آدم[4].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢/ ٥٥).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢/ ٥٤).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٣٩١).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٧٩).

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن الضب ليموت في جحره هزالاً من ظلم ابن آدم[1].

وروى الحاكم، وغيره عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[فاطر: ٤٥] قال: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم[2].

وتقدم في حديث: «وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوْا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوْا»[3].

وحديث: «لَوْلاَ عِبَادٌ رُكَّعٌ، وَصِبْيَةٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لَصَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ صَبّاً»[4].

والجمع بين هذين الحديثين وبين الآثار المتقدمة: أن هذا على حسب التجليات الإلهية؛ فتارة تقتضي الحكمة الإلهية الظهور بمظهر اللطف والعفو، فيهب الله تعالى أهل معصيته لأهل طاعته ولضعفاء خليقته، فيدر الغمام ببركة هؤلاء، ويعفو عن ذنوب أولئك.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٦٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٢)، وكذا الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٨٧).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وتارة تقتضي الظهور بمظهر الجلال والقهر، والانتقام والاستقصاء فيه، فيمتنع القطر وتقحط الأرض حتى يموت بعض دواب الأرض.

وقد يكون السر في ذلك استعتاب الناس، وتأديبهم وقودهم بأزمة البلاء والشدة إلى الطاعة والتوبة، أو إحقاق الكلمة على من سبقت له ـ والعياذ بالله ـ في علمه الشقاوة والهلاك، ويفعل الله سبحانه وتعالى في ملكه ما يشاء.

التَّنْبِيهُ الثَّانِي: ينبغي للإنسان أن لا يكون أعجز من الجمادات والبهائم في الدعاء لأهل العلم والاعتناء بشأنهم، والاستغفار للمؤمنين والاهتمام بأمورهم، لا ينبغي له أن يلعن شيئاً لما تقدم أن المؤمن لا يكون من خلقه كثرة اللعن ولا يكون الصديق لعاناً وإن جاز له أن يلعن العصاة والكفار من غير تعيين واحد بنفسه.

وقد قالوا: إنَّ الذكر والتسبيح أَعْوَدُ على الإنسان من الاشتغال بلعن الشيطان؛ فإنه يغضب من الذكر ما لا يغضب من اللعن.

روى ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن مجاهد قال: قَلَّ ما ذكر الشيطان قوم إلا حضرهم، فإذا سمع أحداً يلعنه قال: لقد لعنت مُلَعَّناً.

قال: ولا شيء أقطع لظهره من: لا إله إلا الله[1].

وقد تقدم هذا المعنى في محله.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٠٥).

وأمّا رد العجماء اللعن على لاعنها فروى ابن أبي الدنيا عن عمرو ابن قيس رحمه الله تعالى قال: إذا ركب الرجل الدابة قال: اللهم اجعله بي رفيقاً رحيماً، فإذا لعنها قالت: على أعصانا لعنة الله[1].

وعن الفضيل رحمه الله تعالى قال: كان يقال: ما أحد يسب شيئاً من الدنيا دابة أو غيرها فيقول: أخزاك الله، ولعنك الله إلا قال: أخزى الله أعصانا.

[قال الفضيل]: وابن آدم أعصى وأظلم[2].

*** تنْبِيهٌ:**

إذا سبَّ إنسانٌ إنساناً، فسبَّه ولم يتجاوز في رده عليه، ولم يكذب في سبِّه، لم يحرم عليه، ولكن الأولى أن لا يجيبه ويعرض عنه بالكلية، فهو أولى من الانتصار وإن كان مع الاقتصار على القدر الواجب لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

ـ ومن أحوال العجماوات، بل والجمادات: طاعتها لله تعالى، وانقيادها له، وتسبيحها بحمده، وشهادتها بوحدانيته.

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٠٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٠٨).

قيل: أراد الله تكوينها فلم تمتنعا عليه.

وقيل: قال الله لها: أخرجا ما خلقت بكما من المنافع لمصالح العباد؛ أمَّا أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأما أنت يا أرض فشقي أنهارك، وأخرجي ثمارك ونباتك.

وهذا هو المأثور. أخرجه ابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه[1].

وقيل: المراد بقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾: أنهما قالا بلسان الحال، أم بلسان المقال بأن أنطقها الله تعالى، وجعل فيها إدراكاً حقيقة لسماع الكلام ورد الجواب.

والقولان جائزان، والثاني مذهب المحدثين وأكثر المحققين، ويدل عليه قوله: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، ولم يقل: طائعات، أو طائعتين إلحاقاً لهما بالعقلاء من أهل المنطق.

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[الرعد: ١٥].

وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[النحل: ٤٩].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٨٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾[الحج: ١٨].

وقد حمل أكثر العلماء السجود في هذه الآيات على الانقياد والتسخير لقدرة الله تعالى، ولكن هذا المعنى غير ظاهر في هذه الآية الأخيرة لأنه قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾[الحج: ١٨].

فأشار إلى أن منهم من يسجد، ومنهم من يمتنع، ولو أراد بالسجود التسخير لعمَّم السجود كما عممه في الآيتين المذكورتين قبلها؛ فإن الكافر أيضاً مسخَّر منقاد بيد القدرة والقدر فيما هو فيه، وإنما المراد السجود حقيقة إذ بامتناع المكلف منه يحق عليه الوعيد.

والتحقيق في هذا المقام: أنَّ الله تعالى أمر جميع المخلوقات بالسجود على حسب ما أعطى كل واحد منها من القابلية، وجعل في ابن آدم قابلية الإجابة والطاعة من وجهين:

- من حيث التسخير والانقياد لما خلق بيد القدرة.

- ومن حيث القيام بحق الأمانة التي عرضت عليه، فقبلها وحملها على وفق الأمر والخطاب.

ولم يجعل في غيره من المخلوقات قابلية الإجابة والطاعة إلا من الحيثية الأولى، فأطاع الحيثية الأولى كما أطاع غيره.

وأمَّا من الحيثية الثانية فمن غمسه الله تعالى في نور الهداية من جنس البشر أطاع بقدر ما وفقه الله تعالى له فعلاً على سائر الحيوانات والجمادات بهذا الاعتبار، ثم لم يبلغ كمال الطاعة التي تليق بجلال المطاع سبحانه وتعالى، فمن ثم قال النبي ﷺ: «اسْتَقِيْمُوْا وَلَنْ تُحْصُوا»[1].

نعم، يعلو قدر الطائع المكلف على قدر طاعته وتقواه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

وحقيقة التقوى هي الطاعة، ولذلك قال أبو رجاء العطاردي رحمه الله تعالى: من سرَّه أن يكون متقياً فليكن أذل من قعود إبل؛ كل من أتى عليه أرغاه. رواه ابن أبي الدنيا[2].

وإنما ضرب المثل بالقعود لأنه مع كبره وقوته ليس في الحيوانات أطوع منه لمتصرف فيه، كأن لسان حاله يقول: إنه لا يتصرف فيه متصرف إلا بتصريف من خلقه، فطاعته طاعة لمن صرفه فيه.

وكذلك يكون طاعة المؤمن لله تعالى ولمن أمره بطاعتهم من رسوله ﷺ، وأولي الأمر.

وقد تقدم في وصف المؤمن في الحديث أنه كالجمل الأنف؛ إن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٦٢).

قيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ[1].

ومن بقي في ظلمة الخذلان، وحقت عليه كلمة الحرمان لم يطع الله تعالى من الحيثية المذكورة، فوقعت الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحج: ١٨].

فهو ـ وإن أطاع الله تعالى من حيث إنه يسخر لقدرته في يد قضائه وقدره ـ فإنه لم يحمد على هذه الطاعة حتى يأتي بالطاعة الأخرى التي هي مقتضى الأمانة التي حملها حين عرضت عليه، ولو أباها حين العرض كما أبتها سائر المخلوقات لم تطلب منه هذه الطاعة، ولم يكلف بها.

هذا ما يتعلق بالإنس من الثقلين.

وأما الجن فإن قلنا: إنهم مكلفون بمثل ما كُلِّفنا به ـ وهو الأصح ـ فيحتمل أن الله تعالى عرض عليهم الأمانة فقبلوها كما قبلها البشر، ولمَّا لم يقع النص على حملهم للأمانة في القرآن العظيم كما وقع النص فيه على حمل الإنسان لها، وقع الخلاف من العلماء في أنهم مكلفون بمثل ما كلفنا به أم لا، وفي أنهم مثابون ومعاقبون كما أنَّ البشر كذلك أم لا؟

والأول أصح؛ لأنَّ القرآن نص على تكليفهم بما كلفنا به، ولا مانع أن يكون تكليفهم بذلك دليلاً على أنهم قبلوا الأمانة حين عرضت

---

(١) تقدم تخريجه.

عليهم كما قبلناها، وإنما وقع الاقتصار في فنون الأمانة وحملها على الإنسان إظهاراً لمزيته وتكريمه وتفضيله، وتنويهاً بمقامه في المعرفة والإدراك.

وقد يقال على القول بأنَّ إبليس أبو الجن: إن النكتة في تكليفهم بذلك: أن إبليس لمَّا عُرِضت الأمانة على الإنسان فحملها، ووصف بأنه كان ظلوماً جهولاً تشفَّى بأمره وشَمَت به، وكلفَّه تعالى وذريته ما كلف به البشر عقوبة وابتلاء.

وحاصله: أنَّ الإنس خاصة، أو هم والجن مكلفون بالطاعة من وجهين، وبقية المخلوقات مأخوذة بالطاعة من وجه واحد، وكل شيء فهو طائع لله حق الطاعة وساجد له حق السجود إلا ما كان من المكلفين، فلا يقضى لهم بأنهم أطاعوا حق الطاعة حتى يقوموا بحق التكليف الذي هو مقتضى الأمانة، والقائمون بذلك قليل، وكل شيء فهو قائم بحق الطاعة التي هي طاعة التسخير والانقياد للقدرة، فصح ما ورد عن بعض كتب الله تعالى: كل شيء أطوع لله من ابن آدم[1].

ومن هنا يظهر لك وجه الحكمة في أن الله تعالى يستشهد على العاصي بجوارحه، وهي شهود عدول بسبب انقيادها لله تعالى وسجودها لها، فيكون محتجّاً عليه بنفسه كما قال الله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣١٠).

وروى أبو نعيم عن بشر بن الحارث رحمه الله تعالى قال: قال فضيل بن عياض لابنه رحمهما الله تعالى: لعلك ترى أنك في شيء الجُعَل أطوع لله منك[1]؟

وعن أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله تعالى قال: قال فضيل ابن عياض لابنه علي: لعلك ترى أنك مطيع؟ لَصَرصر من صراصر الحُشِّ أطوع لله منك[2].

قال: يعني بالصرصر: الذي يصيح بالليل.

وقال بعض العلماء: سجود الدواب والجمادات لله تعالى على بابه، وكذلك تسبيحها بحمده المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤] على حقيقته، إلا أنه تسبيح خاص وسجود خاص غير ما ذكر من الانقياد والتسخير، ولكن ذلك السجود والتسبيح لا يعلمه إلا بعض أهل الولاية والخصوصية كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

روى البزار بإسناد جيد، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ كتبت عنده سورة النجم، فلما بلغ السجدة سجد، وسجدنا معه، وسجدت الدَّواة والقلم[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٨).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٨٢).

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨٥): رواه البزار ورجاله ثقات.

وروى الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «صحيحه»، وغيرهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني رأيتني في هذه الليلة فيما يرى النائم كأني أصلي عند شجرة، وكأني قرأت سجدة ـ وفي لفظ: سورة السجدة ـ وسجدت، فرأيت الشجرة كأنها سجدت لسجودي، وكأني أسمعها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك ذكراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود.

قال ابن عباس: فقرأ رسول الله ﷺ السجدة، فسمعته يقول في سجوده كما أخبره الرجل عن قول الشجرة[1].

والرجل المذكور في هذا الحديث [يحتمل] أنه هو أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، ويحتمل أنه غيره.

روى أبو يعلى عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: رأيت فيما يرى النائم كأني تحت شجرة تقرأ (صٓ)، فلما أتت على السجدة سجَدَت، فقالت في سجدتها: اللهم اغفر لي بها، اللهم حُطَّ عني بها وزراً، وأَحْدِث لي بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدتَه.

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٢٤) وقال: غريب، وابن ماجه (١٠٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٩).

فغدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «سَجَدْتَ أَنْتَ يا أَبا سَعِيدٍ؟».

قلت: لا.

قال: «فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالسُّجُودِ مِنَ الشَّجَرَةِ».

ثم قرأ رسول الله ﷺ سورة (صٓ)، ثم أتى على السجدة، فسجد، وقال في سجوده ما قالت الشجرة في سجودها[1].

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أنه رأى رؤيا أنه يكتب (صٓ)، فلما بلغ الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً، قال: فقصصتها على النبي ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد[2].

ومن هذا الفصل سجود البعير للنبي ﷺ لأنه من طاعة الله تعالى، وإجابة الشجر لدعائه ﷺ كما قال البوصيري: [من البسيط]

جاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأَشْجارُ ساجِدَةً ... تَهْوِي إِلَيْهِ عَلى ساقٍ بِلا قَدَمِ

---

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (١٠٦٩)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٦٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨٥): فيه اليمان بن نصر، قال الذهبي: مجهول.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦١٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٢٠).

وحنين الجذع لقراءته ﷺ، وفراق موعظته وكلامه، وتأمين أسكفة الباب، وحوائط البيت لدعائه لآل بيته، وتسبيح الحصى في يده، والطعام كما هو مشهور في كتب الخصائص، والمعجزات، وكتب الحديث، والسير، ونحوها مما لا يحتمل هذا الكتاب تفصيله(١).

إلا إني أقتصر هنا على قصة الذئب لاشتماله حديثها على ما يكون في آخر الزمان من كلام السباع، وبعض الجمادات كثيراً من الناس، وهو يحقق إذ ذاك ما أشرنا إليه من أنَّ الله تعالى إذا شاء جعل فيما شاء من العجماوات والجمادات قوة النطق والإدراك.

فروى الإمام أحمد، وابن سعد في «طبقاته»، والبزار، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «الدلائل» وصححاه، وأبو نعيم في «الدلائل» من طرق عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: بينما راعٍ يرعى بالحَرَّة إذ عرض ذئب لشاة من شياهه، فحال الراعي بين الذئب وبين الشاة، فأقعى الذئب على ذنبه، ثم قال للراعي: ألا تتقي الله! تحول بيني وبين رزق ساقه الله إليَّ؟

فقال الراعي: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس.

فقال الذئب: ألا أحدثك بأعجب مني؟ رسول الله ﷺ بين الحرتين يُحدِّث بأنباء ما قد سبق.

فساق الراعي غنمه حتى قدم المدينة فدخل على النبي ﷺ،

---

(١) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٩٤ ـ ١٤٣).

فحدَّثه بحديث الذئب، فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ صَدَقَ، أَلاَ إِنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعة كَلاَمُ السِّبَاعِ لِلإِنْسِ، وَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لاَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتىَّ تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ شِرَاكُ نَعْلِهِ، وَعَذَبَةُ سَوْطِهِ، وَيُخْبِرُهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ»[1].

وروى البخاري في «تاريخه»، وأبو نعيم، والبيهقي؛ كلاهما في «الدلائل» عن أُهبان بن أوس رضي الله تعالى عنه: أنَّه كان له غنم، فشدَّ الذئب على شاة منها، فصاح عليه، فأقبل على ذنبه، قال: فخاطبني، فقال: من لها يوم تشغل عنها، أتنزع مني رزقاً رزقنيه الله؟

قلت: والله ما رأيت شيئاً أعجب من هذا.

قال: وتعجب ورسول الله ﷺ بين هذه النخلات يحدث الناس بأنباء ما سبق، وأنباء ما يكون، وهو يدعو إلى الله وإلى عبادته.

فأتى أهبان إلى النبي ﷺ، فأخبره وأسلم[2].

وقصة الذئب مشهورة ثابتة من طريق ابن عمر، وأنس، وأبي هريرة، وغيرهم[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٨٣)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٤٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤١) وصححه.

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٤٤) وقال: إسناده ليس بالقوي، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤٣).

(٣) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٥).

وروى ابن عساكر عن محمد بن جعفر بن خالد الدمشقي قال: رافع بن عميرة الطائي فيما يزعمون كلمه الذئب وهو في ضأن له يرعاها، فدعاه الذئب إلى رسول الله ﷺ، وأمره باللحوق به، وله شعر قاله في ذلك: [من الوافر]

رَعَيْتُ الضَّأْنَ أَحْمِيها زَماناً ... مِنَ الضَّبُعِ الْخَفِيِّ وَكُلِّ ذِيْبِ

فَلَمَّا أَنْ سَمِعْتُ الذِّئْبَ نادَى ... يُبَشِّرُنِي بِأَحْمَدَ مِنْ قَرِيبِ

سَعَيْتُ إِلَيْهِ قَدْ شَمَّرْتُ ثَوْبِي ... عَنِ السَّاقَيْنِ قاصِدَهُ الرَّكِيبِ

فَأَلْفَيْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ قَوْلاً ... صَدُوقاً لَيْسَ بِالقَوْلِ الكَذوبِ

فَبَشَّرَنِي لِدينِ الْحَقِّ حَتَّى ... تَبَيَّنَتِ الشَّرِيعَةُ لِلْمُرِيبِ

وَأَبْصَرْتُ الضِّياءَ يُضِيءُ حَوْلِي ... أَمامِي إِنْ سَعَيْتُ وَعَنْ جنوبِ

أَلا أَبْلِغْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ... وَإِخْوَتَهُمْ جُدَيلَةَ أَنْ أَجِيبِي

دُعاءَ الْمُصْطَفَى لا شَكَّ فِيهِ ... فَإِنَّكِ إِنْ أَجَبْتِ فَلَنْ تَخِيبِي[1]

وذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب»، وقال: إنه كان لصًّا في الجاهلية، فدعاه الذئب إلى اللحوق برسول الله ﷺ.

ثم قال: يقال: إنَّ رافع بن عميرة قطع ما بين الكوفة إلى دمشق في خمس ليال لمعرفته بالمفاوز، أو لما شاء الله تعالى[2].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٥).

(٢) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٤٨٣).

ومن قبيل ما تقدم أيضاً مخاطبة النملة والهدهد لسليمان عليه السلام، ومنطق الطير والبهائم الذي كان يخبر عنه عليه السلام، فذكر الثعلبي في «تفسيره» عن فرقد السبخي رحمه الله تعالى قال: مرَّ رسول الله ﷺ على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: هل تدرون ما يقول هذا البلبل؟

قالوا: الله ونبيه أعلم.

قال: يَقُوْلُ: أَكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَةٍ فَعَلَىْ الدُّنْيَا العَفَاءُ[1].

وقد تقدم هذا عن مالك بن دينار.

وروى بسنده عن كعب رحمه الله تعالى قال: صاح ورشان[2] عند سليمان بن داود عليهما السلام، فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: إنه يقول: لِدوا للموت، وابنوا للخراب.

وصاحت فاختة عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنها تقول: ليت الخلق لم يخلقوا.

وصاح طاوس عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ١٩٣).

(٢) ورشان: طائر شبه الحمامة.

قالوا: لا.

قال: فإنه يقول: كما تدين تُدان.

وصاح هدهد عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟

قالوا: لا.

قال: فإنه يقول: من لا يَرْحم لا يُرْحم.

وصاح صرد عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول؟

قال: فإنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين.

قال: فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

قال: وصاحت طيطوى عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنها تقول: كل حي ميت، وكل جديد بال.

وصاح خطاف عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟

قالوا: لا.

قال: فإنه يقول: قدِّموا خيراً تجدوه.

فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله.

وهدرت حمامة عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما تقول هذه الحمامة؟

قالوا: لا.

قال: فإنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه.

وصاح قُمْري عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا.

قال: تقول: سبحان ربي الأعلى.

قال: والغراب يدعو على العشار.

والحدأة تقول: كل شيء هالك إلا وجهه.

والقطاة تقول: من سكت سلم.

والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همُّه.

والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس.

والباز يقول: سبحان ربي وبحمده.

والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل مكان[1].

وروى أيضاً بإسناده عن مكحول رحمه الله تعالى قال: صاح دراج عند سليمان بن داود عليهما السلام قال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال: فإنه يقول: الرحمن على العرش استوى[2].

---

(١) رواه الثعلبي في «التفسير» (٧/ ١٩٤).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٧/ ١٩٥).

قلت: وقدمنا عن الدميري، والسيوطي أن الدراج يقول: بالشكر تدوم النعم.

وكان يخطر لي أنه يقول في صياحه: سبحان القديم الأزل، ثم رأيت ذلك منقولاً عن بعض العلماء، وهو أليق وأوفق لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤].

ويزعم عوام الناس أنه يقول: طاب طبيخ السنبل، والذي دعاهم إلى ذلك أنَّ هذا وزَّان صوته، وأنَّ وقت صياحه في آخر فصل الربيع حين يبدو نضج السنبل، وهو سنبل الزرع.

ومن لطيف ما وقع لي مع بعض عوام مصر أني كنت مرةً ماشياً بين بساتين دمشق ودرَّاج يصيح، وهذا المصري مصْغٍ إليه متعجب من حسن صوته، وفي نفسه كلام نشأ عن فكر كان قد عيي منه ولم يجد من يبثه إليه حتى وقع بصره عليَّ، فقال: يا سيدي! لقد لقيت عجباً في بلدتكم هذه؛ هذا الطائر يصيح: طاب طبيخ السنبل، وما كنت أظن أن هذا الطائر يوجد في غير مصر حتى وجدته اليوم، إلا أني سمعته يقول في هذه البلدة: طاب طبيخ السنبل ولا يزيد عليها شيئاً، وأمَّا في مصر فإنه يزيد عليها: طاب طبيخ السنبل، سبحان القديم الأزل، ينطق بها كذلك في مصر لا يشك في نطقه، فلم أزده على التبسم والتعجب.

وروى أبو الشيخ في «العظمة» عن فرقد السبخي قال: مرَّ سليمان ابن داود عليهما السلام ببلبل ساقط على شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا؟

قالوا: الله ونبيه أعلم.

قال: يقول: أكلت نصف تمرة وعلى الدنيا العفاء.

قال: ومرَّ بديك يسقع، فقال: أتدرون ما يقول؟ يقول: اذكروا الله، اذكروا الله يا غافلين[1].

وهكذا الرواية بالياء، وأصله يا غافلون.

ووجه الياء أنه أراد خطاب غافلين، لكن غير مقصودة.

وتقدم نظيره عن الصرد: استغفروا الله يا مذنبين.

وسبق هذا الأثر عن الثعلبي إلا أنه بدون الزيادة الأخيرة فيه؛ أوردته هنا إشارة إليها، وإلى أنها من رواية أبي الشيخ.

وروى الثعلبي عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الدِّيْكُ إِذَا صَاحَ قَالَ: اذْكُرُوْا اللهَ يَا غَافِلِيْنَ»[2].

وروى أبو الشيخ عن أبي هريرة، وابن مردويه عن عائشة، قالا رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «صَوْتُ الدِّيْكِ تَسْبِيْحُهُ، وَضَرْبُهُ بِجَنَاحَيْهِ رُكُوْعُهُ وَسُجُوْدُهُ»[3].

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٠).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٧/ ١٩٥).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٧٧٥) عن عائشة رضي الله عنها، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٢٨٩).

وروى أبو الشيخ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: حين يقول الملك: سبحوا القدوس تحرك الطير أجنحتها[1].

وروى الطبراني، والبيهقي في «الشعب» عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ للهِ دِيْكاً رِجْلاَهُ فِيْ التُّخُوْمِ وَعُنُقُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ مُنْطَوِيَةٌ، فَإِذَا كَانَ هِنَةٌ مِنَ اللَّيْلِ صَاحَ: سُبُّوحٌ قُدُّوْسٌ، فَصَاحَتِ الدِّيَكَةُ»[2].

وَقَالَ: «إِنَّ للهِ دِيْكاً بَرَاثِنُهُ فِي الأَرْضِ السُّفْلَىْ، وَعُنُقُهُ مَثْنِيٌّ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَجَنَاحَاهُ فِي الهَوَاءِ يَخْفِقُ بِهَا فِيْ السَّحَرِ».

وأخرج نحوه جعفر الفريابي في «فضل الذكر»، وأبو الشيخ عن ثوبان، وقال: «إنَّ لله تعالى ديكاً براثنه في الأرض السفلى، وعنق مثني تحت العرش، وجناحاه في الهواء، يخفق بها كل [سحر] ليلة يقول: سبحان الملك القدوس، ربنا الرحمن الملك لا إله غيره»[3].

وصحح الحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً، وتقدم في التشبه بالملائكة: «إِنَّ اللهَ تَعَالى أَذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيْكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلاَهُ

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤١) لكن عن ابن أبي عمرة.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٧٥) وقال: تفرد بإسناده هذا علي بن أبي علي اللهبي وكان ضعيفاً. وكذا ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٨٤) وأعله بعلي هذا.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ١٠٠٦)

فيْ الأَرْضِ وَعُنُقُهُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَقُوْلُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِيْ كَاذِباً»[1].

وروى الأئمة الستة إلا ابن ماجه من حديثه: أنَّ النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَسَلُوْا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوْا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَاناً»[2].

وفي الحديث: «ثَلاثَةُ أَصْوَاتٍ يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالى، صَوْتُ الدِّيْكِ، وَصَوْتُ قَارِىءِ القُرْآنِ، وَصَوْتُ المُسْتَغْفِرِيْنَ بِالأَسْحَارِ». رواه الثعلبي[3].

وقال عبدالله بن صالح العجلي رحمه الله تعالى: في الديك عشر خصال.

- هو أحب الطير إلى الله ﷻ.
- وأبعد الطير صوتاً.
- وأشد غَيرة.
- وأشده قتالاً.
- وأسخاه نفساً.
- وأعلمه بأوقات الصلاة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٣١٢٧)، ومسلم (٢٧٢٩)، وأبو داود (٥١٠٢)، والترمذي (٣٤٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٩٠).

(٣) رواه الثعلبي في «التفسير» (٣/ ٣٠) عن أم سعد.

- ويؤنس الجيران.

- وهو أحسن الطير.

- وأكثره سفاداً؛ أي جماعاً. أخرجه أبو الشيخ في «العظمة»[1].

وأخرج فيه عن ربيعة بن عبدالله بن الهدير: أنَّ رجلين اقتمرا؛ أي: غرَّهما القمر، فأمر عمر بن الخطاب ﷺ بالديكة أن تذبح، فقال له رجل من الأنصار: يا أمير المؤمنين! تقتل أمة تسبح؟

قال: فتركها[2].

وروى الستة إلا الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «نزَلَ نبيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تحتِهَا، وَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالى إِلَيْهِ: مِنْ أَجْلِ نَمْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ، فَهَلاَّ نَمْلَةً وَاحِدَةً»[3].

وذكر الثعلبي عن جعفر الصادق ﷺ عن أبيه، عن جده، عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهم قال: إذا صاح النسر قال: عش ما شئت آخره الموت.

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٥٧).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٠).

(٣) رواه البخاري (٣١٤١)، ومسلم (٢٢٤١)، وأبو داود (٥٢٦٥)، والنسائي (٤٣٥٩)، وابن ماجه (٣٢٢٥).

وإذا صاح العقاب قال: في البعد عن الناس أنس.

وإذا صاح الصقر قال: اللهم العن مبغض آل محمد.

وإذا صاح الخطاف قرأ: الحمد لله ربِّ العالمين، ويمد الضالين كما يمدها القارىء[1].

وذكر الثعلبي، وغيره: أن الخطاف معه أربع آيات من كتاب الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾[الحشر: ٢١] إلى آخر السورة، ويمد صوته بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر: ٢٤][2].

وروى ابن عدي عن سفيان رحمه الله تعالى: أنَّه قال: يقال: إنه ليس شيء أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع[3].

وروى أبو الشيخ في «العظمة» عن أبي بردة بن أبي موسى، قال: بلغني أنه ليس شيء أكثر ذكراً لله تعالى من الدودة الحمراء[4].

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى قال: بينما داود عليه السلام جالساً يوماً إذ مرَّت به دودة حمراء رافعةً رأسها، ففكر داود في خلقها، فنطقت الدودة، وقالت: يا داود! أعجبتك نفسك فتفكرت؛ تسبيحة واحدة أسبحها خير من كذا وكذا[5].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ١٩٥).

(٢) وانظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٦٦).

(٣) رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣١٦).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٢٣).

(٥) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٥١).

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو الشيخ في «العظمة» عن المغيرة بن عتبة قال: قال داود عليه السلام: يا رب! هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني؟

فأوحى الله تعالى إليه: نعم، الضفدع[1].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: صلى داود عليه السلام ليلة حتى أصبح، فلما أصبح وجد في نفسه سروراً، فنادته ضفدعة: كلا يا داود! كنت أدأب منك، قد أغفيت إغفاء[2].

وروى أبو الشيخ عن بكر بن عبد المزني رحمه الله تعالى قال: قال داود عليه السلام: يا رب! اغفر لي؛ فمن أكثر ذكراً لك مني؟

فنام إلى صخرة إلى جنب نهر حتى أصبح، فناداه ضفدع: يا داود! تَمُنُّ على الله وأنا ضفدع أسبح الله الليل والنهار من خشيته[3]؟

ورويا عن شهر بن حوشب رحمه الله تعالى قال: خرج داود عليه السلام إلى البحر في ساعة يصلي فيها، فنادته ضفدعة، فقالت: يا داود! إنك حدثت نفسك أنك قدَّست في ساعة ليس يذكر الله فيها غيرك، وإني

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٦٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٨).

(٢) ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٨)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٢٩٣).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٦).

في سبعين ألف ضفدع كلها قائمة على رجل تسبح الله تعالى وتقدسه[1].

وروى البيهقي في «الشعب» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن نبي الله داود عليه السلام ظنَّ في نفسه أن أحداً لم يدعُ خالقه جلَّ وعلا بأفضل مما مدحه، فأنزل الله تعالى عليه ملكاً وهو قاعد في محرابه والبركة إلى جانبه، فقال: يا داود! افهم ما تصوت به الضفدع.

فأنصت إليها فإذا هي تقول: سبحانك وبحمدك منتهى علمك يا رب.

فقال له الملك: كيف ترى؟

فقال: والذي جعلني نبياً إني لم أمدحه بهذا[2].

والمراد بالعلم هنا المعلومات أولاً نهاية لعلم الله تعالى الذي وصفه.

وذكر أبو عبدالله القرطبي في كتابه «الزاهر»: أن داود عليه السلام قال: لأسبحنَّ الله الليلة تسبيحاً ما سبحه به أحد من خلقه، فنادته ضفدع من ساقية في داره: يا داود! تفتخر على الله بتسبيحك، وإن لي سبعين سنة ما جفَّ لساني من ذكر الله، وإنَّ لي لعشر ليال ما طعمت خضراً ولا شربت ماءً اشتغالاً بكلمتين.

قال: وما هما؟

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٧).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨١).

قالت: يا مسبَّحاً بكل لسان، ويا مذكوراً بكل مكان.

فقال داود في نفسه: وما عسى أقول أبلغ من هذا.

وروى أبو الشيخ عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى: أن داود عليه السلام عَبَدَ الله تعالى ليلة حتى أصبح، فحدَّث نفسه، فأوحى الله ﷻ إلى ضفدع في جانبه: أجيبيه.

فقالت: يا داود! أعجبت بليلتك وأنا في مقامي هذا منذ ثمان مئة سنة أعبد الله وأشكره[1]؟

فقلت: جعل الله تعالى في الضفدع في كثرة تسبيحها وتأنقها في تقديسها مَأْدَبَة لداود عليه السلام لئلا يعجب بكثرة عبادته وتسبيحه وتأنقه فيه، كما جعل في النملة في تأنقها في الخطاب وسياستها للنمل ونفوذ أمرها فيهم، والهدهد في مجيئه بخبر بلقيس وملكها في زمن يسير من مسيرة شهر مأدبة لولده سليمان عليهما السلام لئلا يعجب بملكه وسياسته لرعاياه، وبلوغه مسيرة شهر في غَدوته ورَوحته، واطلاعه على مدائن الأرض وأقاليمها إشارةً إلى أنَّ الله تعالى إذا أنعم على عبد بنعمة فلا تتم له النعمة إلا إذا لم تحجبه عن المنعم سبحانه وتعالى بالنظر إليها والإعجاب بها.

وروى أبو الشيخ أيضاً عن عبد الحميد بن يوسف قال: تسبيح الضفدع: سبحان المعبود بكل مكان، سبحان المحمود بكل مكان،

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٦).

سبحان المذكور بكل لسان[1].

وذكر الزمخشري أنها تقول: سبحان الملك القدوس.

وتقدم عن كعب أنها تقول: سبحان ربي القدوس.

وروى أبو الشيخ، وابن عدي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال: «لا تَقْتُلُوا الضِّفْدَعَ؛ فَإِنَّ تَنْقِيقَهَا تَسْبِيحٌ»[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عطاء بن يسار ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! أُوْصِيْكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، فَأَمَّا اللَّتَانِ أُوْصِيْكَ بِهِمَا فَإِنِّي رَأَيْتُهُمَا يُكْثِرَانِ الوُلُوجَ عَلَى اللهِ وَرَأَيْتُ اللهَ تَعَالَى يَسْتَبْشِرُ بِهِمَا وَصَالِحَ خَلْقِهِ، قَوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فإِنَّهَا صَلاةُ الْخَلْقِ وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَقَوْلُ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهَ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَوْ كُنَّ حَلَقَةً لَقَصَمْتُهَا، وَلَو كُنَّ فِي كَفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَأَمَّا اللَّتَانِ أَنْهَاكَ عَنْهُمَا فَالشِّرْكَ وَالْكِبْرَ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ شَيْءٌ مِنْ شِرْكٍ وَلا كِبْرٍ فَافْعَلْ»[3].

وأخرجه النسائي عن سليمان بن يسار، عن رجل من الأنصار،

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٧).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٤٥)، وابن عدي في «الكامل» (٦/٣٨٨) لكن عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وقال: الحديث موقوف.

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥١).

وقال فيه: «وَأُوْصِيْكَ بِسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ؛ فَإِنَّهَا صَلاَةُ الخَلْقِ وَبِهَا يُرْزَقُ الخَلْقُ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء: ٤٤]»[1].

وأخرجه البزار، والحاكم وصححه، عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه.

وفي بعض ألفاظه: «فَإِنَّهَا صَلاَةُ كُلِّ شَيْءٍ وَتَسْبِيْحُ كُلِّ شَيْءٍ»[2].

والآية تدل على ذلك، ولذلك قرأها رسول الله ﷺ مدرجة في مقالة نوح عليه السلام.

وروى ابن أبي شيبة عن عمرو بن دينار رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَتَّخِذُوْا ظُهُوْرَ الدَّوَابِّ كَرَاسِيَّ لأَحَادِيْثِكُمْ؛ فَرُبَّ رَاكِبٍ مَرْكُوْبَةٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَطْوَعُ للهِ ﷻ وَأَكْثَرُ ذِكْراً»[3].

وروى الإمام أحمد، وابن حبَّان في «صحيحه»، والطبراني عن سعد بن معاذ بن أنس، عن أبيه ﷺ قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم على

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٦٨) عن سليمان بن يسار عن رجل من الأنصار.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٥٤)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٩). وصحح العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٤٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٩٦٥)،

دواب ورواحل لهم وهم وقوف، فقال: «ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَانْزِلُوا عَنْهَا سَالِمَةً، وَلا تَتَّخِذُوْهَا كَرَاسِيَّ لأَحَادِيْثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ؛ فَرُبَّ مَرْكُوْبَةٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْراً للهِ ﷻ»[1].

*** فوائِدُ:**

*** الأُولَى:**

روى الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته» عن إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى قال: طلبت المعاش لأجل الحلال، فاصطدت السمك، فيوماً وقعت في الشبكة سمكة فأخرجتها، وطرحت الشبكة في الماء، فوقعت أخرى فيها، فرميت بها، ثمَّ عدت فهتف بي هاتف: لم تجد معاشاً إلاَّ تأتي من يَذْكُرُنا فتقتلهم.

قال: فكسرت القصبة وتركت الاصطياد.

*** الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ:**

روى أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كل شيء يسبح إلا الحمار والكلب[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤١)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦١٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٠٧): رواه أحمد والطبراني، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح، غير سهل بن معاذ ابن أنس، وثقه ابن حبان، وفيه ضعف.

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٥٠).

وروى هو والثعلبي عن سفيان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٩] قال: صوت كل شيء تسبيح إلا صوت الحمار لأنه ينهق بلا فائدة(١).

* **الفائِدَةُ الثَّالِثَةُ:**

قال أبو الحسن بن جهضم في «بهجة الأسرار»: حدثني أحمد بن محمد، قال: سمعت أبا سليمان المغربي يقول ـ وقد سُئِل عن كلام الحمار له ـ فقال: كان عندي حمار، فحملته ذات يوم حملة ثقيلة، وضربته مرَّة أو مرتين، ففي الثالثة حَول رأسه إليَّ، وقال: كم تضربني وأنت أحق بالضرب مني! قد حملتني ما أنسيتني ذكر الله.

وقد يجمع بين هذا وبين ما سبق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بأنَّه إنَّما نفى عن الحمار التسبيح، وأنه يذكر الله بغير التسبيح، وهو الذي يدل عليه عموم الحديث السابق: «فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْ راكِبِها وَأَكْثَرُ لِلَّهِ ذِكْراً»(٢)، على أنَّ إبقاء الآية على عمومها أولى؛ أعني: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء: ٤٤].

* **الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ:**

ذكر الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» في ترجمة أبي قلابة(٣)

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٦٢)، والثعلبي في «التفسير» (٧/ ٣١٦).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) في «أ» و«ت»: «قدامة» بدل «قلابة».

الرقاشي، واسمه عبد الملك بن محمد حكى أنَّ أمَّهُ قالت: لما حملت به رأيت كأني ولدت هدهداً، فقيل لي: إن صدقت رؤياك ولدت ولداً يكثر الصلاة.

فيقال: إنَّه كان يصلي كل يوم أربع مئة ركعة.

ويقال: إنَّهُ حدَّث من حفظه بسبعين ألف حديث[1].

*** الفائِدَةُ الْخامِسَةُ:**

روى ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن مخلد قال: كان رجل في بني إسرائيل كثير الصمت، فبعث إليه ملكهم، فلم يتكلم، فبعث به معهم إلى الصيد، فقال: لعله يرى شيئاً فيتكلم، فرجعوا به، فرأى صيداً [فصاح]، فسرحوا عليه طير باز، فأخذه.

قال الرجل: السكوت لكل شيء خير حتى للطير[2].

*** الفائِدَةُ السَّادِسَةُ:**

روى أبو الشيخ عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَا أُخِذَ طَائِرٌ وَلا حُوْتٌ إلاَّ بِتَضْيِيْعِ التَّسْبِيْحِ»[3].

---

(١) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٨/ ٤٠٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٦٨)، وعنده: «ظربان» بدل «طير باز».

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٣٥).

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن روح بن حبيب[1] رحمه الله تعالى قال: بينا أنا عند أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إذ أُتِي بغراب، فلمَّا رآه بجناحين حمد الله تعالى ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا صِيْدَ صَيدٌ إِلاَّ بِنَقْصٍ مِنَ التَّسْبِـيْحِ».

ثم قال: يا غراب! عبدالله، ثم خلَّى سبيله[2].

وروى أبو نعيم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا صِيْدَ صَيْدٌ، وَلا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ إِلاَّ بِتَضْيِـيْعٍ مِنَ التَّسْبِـيْحِ»[3].

وروى ابن طبرزذ بإسناده عن أبي واقد قال: لمَّا نزل عمر بن الخطاب بالجابية أتاه رجل بأسد في تابوت حتى وضعه بين يديه، قال: كسرتم له ناباً أو مخلباً؟

قالوا: لا.

قال: الحمد لله؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا صِيْدَ صَيْدٌ إِلاَّ بِنَقْصٍ فِي تَسْبِـيْحِهِ».

---

(١) في «أ» و«ت»: «روح بن حسنة».

(٢) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٢٣٩) وقال: حديث منكر.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٤٠) وقال: غريب، تفرد به القشيري. قلت: وهو منكر الحديث. انظر: «ميزان الاعتدال» للذهبي (٦/ ٢٣٣).

يا قسورة! اعبد الله، ثم خَلَّى سبيله[1].

وروى إسحاق بن راهويه بسنده عن الزهري عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا صِيْدَ مَصِيْدٌ، وَلا عُضِـدَتْ عَضَاةٌ، وَلا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ إِلاَّ بِقِلَّةِ التَّسْبِـيْحِ»[2].

*** الفائِدَةُ السَّابِـعَةُ:**

روى أبو الشيخ في «العظمة» عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى قال: الزرع يسبح ويكتب الأجر لصاحبه[3].

قلت: وهذا من فوائد الزرع، فإذا كان هذا لمن زرع زرعاً أو غرس غرساً وهما جماد، فكيف بمن علَّم إنساناً مكلَّفاً قرآناً، أو علماً يتوصل به إلى طاعة الله تعالى وعبادته وذكره حتى يلقاه، فهو أحق بعود أجور من علَّمهم وفقههم ما عبدوا الله به إليه.

وقد وقع تمثيل إنشاء أهل الطاعة وأخصه إنشاء أهل العلم بالغرس فيما رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والحكيم الترمذي، والحاكم في «الكنى»، وابن عدي في «الكامل»، والطبراني في

---

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٢٣٩) وقال: حديث منكر.

(٢) انظر: «المطالب العالية» لابن حجر (١٤/ ١١٦) وقال: هذا معضل أو مرسل، والحكم ضعيف بمرة، و«الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٢٩١).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٢٨).

«الكبير»، وأبو القاسم البغوي في «المعجم» عن أبي عنبة الخولاني رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا يَزَالُ اللهُ تَعَالَى يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّيْنِ غَرْساً يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيْهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

وهذا الحديث يدل على أنَّ مدد الله في هذه الأمة بالتوفيق إلى الطاعة لا ينقطع إلا بقيام الساعة، ولله الحمد

* **الفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ:**

روى أبو الشيخ في «العظمة» عن الحسن رحمه الله تعالى قال: لولا ما غمَّ عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت ما تقاررتم[2].

وعن مسعر قال: لولا ما غمَّ الله عليكم من تسبيح خلقه ما تقاررتم[3].

أي: لم يكن لكم قرار بل كنتم تضطربون من عجبكم.

وروى أبو الشيخ أيضاً عن الحسن قال: التراب يسبح؛ فإذا بُنِيَ به الحائط سَبَّحَ[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه (٨)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٣٨١)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٦١).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٣٢).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٣٢)، وكذا ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٣٩٨).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٢٧).

وروى الخطيب عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال لي: «يَا عَائِشَةُ! اغْسِلِيْ هَذَيْنِ».

فقلت: يا رسول الله! بالأمس غسلتهما.

فقال لي: «أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الثَّوْبَ يُسَبِّحُ، فَإِذَا اتَّسَخَ انْقَطَعَ تَسْبِيْحَهُ»[1].

وهذه الآثار مع ما تقدَّم دالة على أن كل شيء يسبح الله تعالى من حيوان وجماد مطلقاً.

وقد قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الجمعة: ١].

وهذا الذي أختاره، ولينفع هذا الفن من العلم العبد الموقن فلا يكون في ملأ ولا في خلاء إلا ويُنبه نفسه لتستحيي مما معها من شيء أن لا يُسبِّحُ الله معه، ولو أنكر وجوده مع شيء لا ينكر وجوده في نفسه، والله تعالى يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾[الأعراف: ٢٠٥].

*** وَهَذِهِ تتِمَّاتٌ لِهَذا البابِ:**

روى ابن عبد البر في «التمهيد» عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: حملة العرش أحدهم على صورة إنسان، والثاني على صورة ثور، والثالث على صورة نسْر، والرابع على صورة أسد[2].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٥) وقال: حديث منكر.

(٢) رواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٩).

قلت: وفي غير هذه الرواية: أنَّ الأول يسترزق الله للبشر، والثاني يسترزقه للبهائم، والثالث للطير، والرابع للسباع.

وتقدم في التشبه بالملائكة: أنَّ إسرافيل عليه السلام على صورة ديك.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[فاطر: ١] إشارةٌ إلى أن الملائكة على صورة الطير، والأحاديث الواردة في أرواح الشهداء أنَّها في صور طير مشهورة.

وروى ابن أبي شيبة، والطبراني عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أرواح المؤمنين في جوف طير خُضر كالزرازير يتعارفون، ويرزقون من ثمر الجنة[1].

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لوددت أني طير في منكبي ريش[2].

يحتمل معنيين:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٩٧٨) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٩٠) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٢٩): رواه الطبراني في «الكبير» ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ـ وفيه يحيى بن يونس، ولم أجد من ذكره، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٢٠).

الأول: أن يكون عبر بذلك عن طلب الشهادة لما تقدم.

والثاني: أنه تمنى أن يكون طائراً له ريش، ولا يكون مكلفاً مبتلى بالحساب والعتاب والعقاب، فيكون ذلك ناشئاً عن الخوف كما روى ابن أبي شيبة أيضاً عنه أنَّهُ قال: ليتني شجرة تُعضد[1].

وأنَّهُ قال: ليتني إذا مت لم أبعث[2].

وأنه قال: لو وقعت بين الجنة والنار فقيل: تخيَّر أيُّهما أحب إليك أو تكون رماداً؟ لاخترت أن أكون رماداً[3].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الحذر والشفقة» عن طارق قال: قلت لابن عباس: أي رجل كان عمر رضي الله تعالى عنه؟

قال: كان كالطير الحذر الذي كأن له بكل طريق شَرَكاً[4].

وروى أبو نعيم عن ابن شهاب قال: جلست إلى أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى وهو يقص فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟

فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: يحيى بن زكريا عليهما

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٢١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٣٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٤١).

(٤) ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣١٢).

السلام كان أطيب الناس طعاماً، إنَّما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معاشهم[1].

وقال الزمخشري في «الفائق»: في الحديث أنَّ الله ﷻ قال لأيوب عليه السلام: إنه لا ينبغي أن يخاصمني إلاَّ من جعل الزيار في فم الأسد والسحال في فم العنقاء[2].

الزيار: ما يشد به البيطار محنكة الدابة وزيره إذا شُد به.

والسحال يعني: السحل، وهي الحلقة المدخلة في الأخرى على طرف شكيمة اللجام، وهما مسحلان في طرفيها[3].

قلت: والتمثيل الذي وقع في الحديث المذكور إنما هو من باب التقريب والتعجيز للعبد، وإلا فإنَّ العبد لا ينبغي له مخاصمة الله ﷻ أصلاً ولا يستطيعها؛ فإنَّ الله عزيز، ولكن لما كان وضع الزيار في فم الأسد والمسحلين بشكيمها في فم العنقاء بعيداً جداً حتى يعد في العادة مستحيلاً ـ وإن كان ممكناً في نفسه ـ مَثَّل لذلك كأنَّه يقول: إذا كان العبد عاجزاً عن مثل ذلك فلا قدرة له على مخاصمة الله العزيز الجبار، فليستقل من مخاصمته وليرجع إلى مسالمته؛ فإنه لا قِبَل له بغير ذلك.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٢٣).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٦٣) عن وهب بن منبه.

(٣) انظر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (٢/ ١٤٢).

ومن هنا قال النبي ﷺ لكعب بن مالك ﷺ: «لَقَدْ شَكَرَ اللهُ لَكَ قَوْلَكَ: [من الكامل]

جاءَتْ مُزَيْنَةُ كَيْ تُغالِبَ رَبَّها وَلَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّبِ»[1]

وروى ابن عدي، والبيهقي في «الشعب» عن سعيد بن جبير: أَنَّ نافع بن الأزرق سأل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن سليمان بن داود عليهما السلام مع ما خوَّلَهُ الله تعالى من الملك وأعطاه: كيف عني بالهدهد مع صغره؟

فقال له ابن عباس: إنَّهُ احتاج إلى الماء والهدهد كانت الأرض له كالزجاج.

فقال ابن الأزرق لابن عباس: قف يا وقَّاف؛ كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يرى الفخ إذا غُطيَ له بقدر إصبع من تراب؟

فقال ابن عباس: إذا نزل القضاء عمي البصر[2].

وفي غير هذه الرواية عن ابن عباس: إذا جاء القدر عمي البصر، وإذا جاء الحين غطى العين[3].

وفي معناه: ما رواه أبو نعيم في تاريخ «أصبهان» عن عكرمة،

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٢٠) عن جابر بن عبدالله ﷺ. والحاكم في «المستدرك» (٦٠٦٥) عن البراء بن عازب ﷺ.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٩).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٥٠).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ إِنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذِي العُقُوْلِ عُقُوْلَهُمْ حَتَّى يَنْفُذَ فِيْهِمْ قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ»(١).

وأخرجه الديلمي من حديث أنس وعلي رضي الله تعالى عنهما وزاد فيه: «فَإِذَا مَضَى أَمْرُهُ رَدَّ إِلَيْهِمْ عُقُوْلَهُمْ وَوَقَعَتِ النَّدَامَةُ»(٢).

وفي المثل: لكل عاقل زلة.

وربما قيل: لكل عاقل صبوة، ولكل فارس كبوة، ولكل صارم نبوة.

وأنشد أبو عمر الزاهد غلام ثعلب لنفسه: [من الرجز]

إِذا أَرادَ اللهُ أَمْـــــــراً بِـــــــامْرِئٍ
وَكَـــــانَ ذا عَقْـــــلٍ وَرَأْيٍ وَبَـــــصَرْ

وَحِيلَـــةٍ يُعْمِلُهـــا فِـــي كُـــلِّ مـــا
يَـــأْتِي بِـــهِ مَحْتُـــومُ أَسْـــبابِ القَـــدَرْ

أَغْـــراهُ بِالْجَهْـــلِ وَأَعْمـــى عَيْنَـــهُ
فَـــسَلَّهُ عَـــنْ عَقْلِـــهِ سَـــلَّ الـــشَّعَرْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٣٤٢). قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٨٠): وكذا أخرجه الخطيب وغيره بلفظ «إن الله إذا أحب نفاذ أمر» وذكره، وأعله الخطيب بلاحق بن الحسين، وقال: إنه كذاب يضع، انتهى، وسعيد أيضاً متروك.

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٩٦٦) عن ابن عمر ﷺ.

حتَّى إذا أَنْفَذَ فِيهِ حُكْمَهُ

رَدَّ عَلَيْهِ عَقْلَهُ لِيَعْتَبِرْ[1]

وحكى القزويني: أنَّ الهدهد قال لسليمان عليه السلام: أريد أن تكون في ضيافتي.

قال: أنا وحدي؟

قال: لا، أنت وعسكرك في جزيرة كذا في يوم كذا.

فحضر سليمان عليه السلام بجنوده، فطار الهدهد، فاصطاد جرادة وخنقها، ورمى بها في البحر، فقال: كلوا يا نبي الله! من فاته اللحم ناله المرق.

فضحك سليمان وجنوده من ذلك حولاً كاملاً.

ومن لطائف أبي الشيص الشاعر: [من البسيط]

لا تَأْمَنَنَّ عَلى سِرِّي وَسِرِّكُمُ

غَيْرِي وَغَيْرَكَ أَوْ طَيَّ القَراطِيسِ

أَوْ طائِرٍ سَأُحلِّيهِ وَأَنْعَتُهُ

ما زالَ صاحِبَ تَقْدِيسٍ وَتَأْسِيسِ

سودٍ بَراثِنُهُ ميلٍ زرائِبُهُ

صفرٍ حَماليقُهُ فِي الْحبرِ مَغْمُوسِ

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (٢٥١).

وَكــــانَ هَـــمَّ سُــــلَيْمانٌ لِيَذْبَحَـــهُ

لَـــولا سِياسَـــتُهُ فِـــي مُلْـــكِ بَلْقِـــيسِ

ومن الأمثال اللطيفة: ما رواه الخطيب عن داود بن أبي هند قال: صاد رجل قنبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟

قال: أذبحك وآكلك.

قالت: ما أُشفي من قرم، ولا أغني من جوع، ولكن أُعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي:

أمَّا الواحدة فأعلمك إيَّاها وأنا على يدك.

والثانية: إذا صرت على الشجرة.

والثالثة: إذا صرت على الجبل.

قال: نعم.

فقالت وهي على يده: لا تأسفن على ما فاتك.

فخلَّى عنها، فلمَّا صارت على الشجرة قالت: لا تصدقنَّ بما لا يكون.

فلمَّا صارت على الجبل قالت: يا شقي! لو ذبحتني لوجدت في حوصلتي درة زنتها عشرون مثقالاً.

قال: فعضَّ على شفتيه وتلهَّف، ثم قال: هات الثالثة.

قالت: قد نسيتَ اثنتين كيف أعلمك الثالثة؟

قال: وكيف؟ قالت: ألم أقل لك: لا تأسفنَّ على ما فاتك وقد

أسفت عليَّ؟

وقلت لك: لا تُصدقنَّ بما لا يكون وقد صدقت؛ فإنَّك لو جمعت عظامي وريشي لم تبلغ عشرين مثقالاً، فكيف يكون في حوصلتي درة زنتها عشرون مثقالاً[1]؟

وحكي أنَّ رجلاً من بغداد كان معه أربع مئة درهم لا يملك غيرها، فاشترى بها أفراخ زرياب، وهو الطائر المعروف بأبي زريق، ويقال له: القوق ألوف، يقبل التعليم سريع الإدراك، يزيد على الدُّرة إذا ألحن، وإذا تكلَّم جاء بالحروف مبينة حتى لا يشك سامعه أنه إنسان، فهبت ريح باردة فماتت تلك الأفراخ كلها إلا واحداً كان أصغرها وأضعفها، فأيقن الرجل بالفقر، فلم يزل يبتهل إلى الله ﷻ بالدعاء ليله كله يقول: يا غياث المستغيثين! أغثني، فلما أصبح زال البرد وجعل ذلك الفرخ ينفض ريشه ويصيح بلسان فصيح: يا غياث المستغيثين! أغثني، فاجتمع الناس عليه يستمعون صوته، فاجتازت به أمة للخليفة فَشَرَته بألف درهم.

وفي كتاب «المسامرة» للشيخ محي الدين بن العربي الحاتمي خبر الطائر المغيث في قصة الرجل الذي كان في سفينة، فقام ليلاً ليتوضأ، فزلقت رجله فوقع في البحر، فقال: ذلك تقدير العزيز العليم، فإذا طائر اختطفه من البحر فألقاه في السفينة، ثم وقع على

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣١٦) عن داود عن الشعبي.

صاري السفينة، قال: فقلت: ما هذا؟

فقال: أنا تقدير العزيز العليم.

ومن اللطائف قصة حَمْي الدَّبْر ـ بفتح المهملة، وإسكان الموحدة ـ وهو عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله تعالى عنه، وكان قد عاهد الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك، فلما قتله المشركون أرادوا أن يمثلوا به، فأرسل الله ظُلَّة من الدَّبْر فحمته منهم.

والدبر: فسره السهيلي بالزنابير، وقيل: هي النملة.

وهذه القصة مشهورة في كتب الحديث، والسير[1].

وروى الحاكم في «تاريخه» عن تمام بن عبدالله بن أنس بن مالك قال: خرجت مرة إلى خراسان ومعنا رجل يشتم أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فنهيناه فأبى، فذهب يوماً لحاجته فأبطأ، فبعثنا في طلبه، فرجع إلينا الرسول قال: أدركوا صاحبكم فإذا هو قد قعد على حجر فقضى حاجته، فخرج عليه عنق من الدبر فشرب مفاصله مفصلاً مفصلاً.

قال: فجمعنا عظامه، وإنَّها لتقع علينا ما تؤذينا، وهي تبري مفاصله[2].

(١) رواها البخاري (٢٨٨٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) وروى نحو هذه القصة ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٩٠) عن أبي الحباب.

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي المحياة التيمي قال: حدثني رجل قال: خرجنا في سفر ومعنا رجل يشتم أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فنهيناه فلم ينته، فخرج لبعض حاجته، فاجتمع عليه الزنابير، فاستغاث فأغثناه، فحملَتْ عليه فتركناه، فما أقلعت عنه حتى قطَّعته قِطَعاً[1].

وروى الحافظ شرف الدين الدمياطي في كتابه «العقد المثمن فيمن يسمى عبد المؤمن» عن عبد المؤمن بن عبد الصمد الزاهد قال: كان عندنا بتنيس رجل رافضي، وكان على طريق سكته كلب يعبر عليه كل من في المحلة من كبير وصغير فلا يتأذى به، إلى أن يعبر ذلك الرافضي فيقوم ويمزق ثيابه، ويعقره إلى أن كثر ذلك منه، فشكا إلى جانب السلطان، وكان من أهل مذهبه، فبعث من ضرب الكلب وأخرجه من المحلة، ففي بعض الأيام نظر الكلب إلى ذلك الرافضي وهو جالس على بعض الدكاكين في السوق، فصعد على ظهر السوق، وجاور الرافضي، وتغوَّطَ عليه، فخرج الرافضي من تنيس من خجله.

وروى الضياء في كتاب «النهي عن سب الأصحاب» عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى قال: كان على طريقي إلى المسجد كلب يعقر الناس، فأردت يوماً الصلاة والكلب على الطريق، فتنحيت عنه، فقال: يا أبا عبدالله! جُزْ؛ فإنَّما سلطني الله على من يشتم أبا بكر وعمر

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة» (٥٦)، وكذا عبدالله ابن الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٢٣٣) عن أبي المحياة.

رضي الله تعالى عنهما[1].

وروى اللالكائي في «السنة» عن المعافى بن عمران قال: قال سفيان الثوري: كنت أمر أغدو إلى الصلاة بغَلَس، فغدوت ذات يوم وكان لنا جار كان له كلب عقور، فقعدت أنتظر حتى يتنحى، فقال لي الكلب: جُز يا أبا عبدالله؛ فإنَّما أُمِرت بمن يشتم أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما[2].

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: أقبل سعد ـ يعني: أباه ـ رضي الله تعالى عنه من أرض له، فإذا الناس علوف على رجل، فاطَّلع فإذا هو يسبُّ طلحة بن الزبير وعليًّا رضي الله تعالى عنهم، فنهاه فكأنَّما زاده إغراءً، فقال: ويلك! ما تريد إلى أن تسب أقواماً هم خير منك، لتنتهين أو لأدعونَّ عليك.

فقال: هيه، فكأنَّما تخوفني بنبي من الأنبياء.

فانطلق فدخل داراً، فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهمَّ إن كان هذا قد سبَّ أقواماً قد سبق لهم منك خير فأرني اليوم به آية تكون آية للمؤمنين.

قال: وتخرج بختية من دار بني فلان نادَّة لا يردها شيء حتى تنتهي إليه، ويتفرَّق الناس عنه، فتجعله بين قوائمها فتطؤه حتى طفئ .

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٧٤).

(٢) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٥٨).

قال: فأنا رأيت سعداً رضي الله تعالى عنه يتبعه الناس ويقولون: استجاب الله لك أبا إسحاق، استجاب الله لك أبا إسحاق[1].

وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ دعا لسعد بن أبي وقاص باستجابة الدعوة، فقال: «اللَّهُمَّ أَجِبْ دَعْوَتَهُ، وَسَدِّدْ رَمْيَتَهُ»[2].

فاستجاب الله دعوة النبي ﷺ، وصار سعداً مستجاب الدعوة.

وروى اللالكائي أيضاً عن عمار بن سيف الضبي قال: خرجنا في غزاة في البحر وعلينا موسى بن كعب، وكان معنا في الركب رجل يُكنَّى: أبا حمان، فأقبل يشتم أبا بكر وعمر، فنهيناه فلم ينته، وزجرناه فلم ينزجر، فأتينا على جزيرة في البحر فارتقينا إليهم، ثمَّ خرجنا وتفرقنا نريد الوضوء لصلاة الظهر، فأخبرنا أن الدَّبْر ـ يعني: الزنابير ـ وقعت على أبي حمان، فأتت على نفسه؛ قال: فوقعت عليه وهو ميت.

وفي رواية: أنهم أقبلوا يحفرون له، فاستوعرت عليهم الأرض وصلبت، فلم يقدروا على أن يحفروا له، فألقوا عليه الحجارة وورق الشجر[3].

وعن عمر بن الحكم عن عمه قال: خرجنا نريد مكران ومعنا رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، قال: فنهيناه فلم

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٥٤).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٣٤٤) عن قيس بن أبي حازم.

(٣) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٥٥).

ينته، وانطلق ليقضي حاجته، فوقع عليه الدبر، فلم يقلع عنه حتى قطَّعه[1].

وذكر القزويني في «عجائب المخلوقات»: أنَّ شخصاً قُتِلَ بأصبهان، وأُلْقِيَ في بئر وله كلب يراه، فكان كل يوم يأتي إلى رأس البئر ويُنحي التراب عنها، ويشير إليها، وإذا رأى القاتل نبح عليه، فلمَّا تكرر ذلك منه حفروا فوجدوا القتيل، ثم أخذوا الرجل فأقر، فقُتِلَ به.

وأنشد للشريف الموسوي: [من الكامل]

الْكَلْبُ كَالرَّجُلِ الَّذِي إِنْ تُوْلِهِ ... بَعْضَ الْجَمِيلِ غَدا لِبِرِّكَ شاكِراً

وَإِذا تَكَرَّرَ ذاكَ مِنْكَ إِلَيْهِ أَضْـ ... ـحَى عَنْكَ لِلأَعْداءِ سَيْفاً باتِراً

وروى ابن جهضم في «بهجة الأسرار»، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» عن أبي سعيد الخراز رحمه الله تعالى قال: كنت يوماً أمشي في الصحراء فإذا قريب مني عشرة كلاب من كلاب الرعاة شدُّوا عليَّ، فلما قربوا مني جعلت أستعمل المراقبة، فإذا كلب أبيض قد خرج من بينها وحمل على الطلاب، وطردها عني، ولم يفارقني حتى تباعدت عني الكلاب، ثم التفت فلم أره[2].

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٥٦).

(٢) رواه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٤٣٨).

وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في «رسالته»: أنَّ أبا عثمان دعاه إنسان إلى ضيافته، فلمَّا وافى إلى باب داره قال: يا أستاذ! ليس لي وجه في دخولك وقد ندمت.

فانصرف، فرجع أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد إليه الرجل، وقال: يا أستاذ! ندمت على ردك، وأخذ يعتذر، وقال: احضر الساعة.

فقام أبو عثمان ومضى، فلما وافى باب الرجل قال مثل ما قال في الأول، ثم كذلك فعل في الثالثة والرابعة، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، فلما كان بعد مرات قال: يا أستاذ! أردت اختبارك، وأخذ يعتذر ويمدحه.

فقال أبو عثمان: لا تمدحني على خلق تجد مثله مع الكلاب؛ الكلب إذا دعي حضر، وإذا زجر انزجر.

ونقل القرطبي في «تفسيره» عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى: ما علَّمني أحد ما علمني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجًّا، فقال لي: يا أبا يزيد! ما حد الزهد عندكم؟

فقلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا.

فقال: هكذا كلاب بلخ عندنا.

قلت: وما حد الزهد عندكم؟

قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا[1].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٨)، ورواه الثعلبي في «التفسير» (٩/ ٢٧٩).

وروى ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال: مَرَّ ثوران على أبي الدرداء ﷺ وهما يعملان، فقام أحدهما فقام الآخر، فقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: إنَّ في هذا لمعتبراً[1].

قلت: ووجه الاعتبار أنَّ الأعمال التي لا تتأتى إلا من اثنين يحتاج مريدها إلى تحصيل رفيق صالح موافق حركته وسكونه، وإلاَّ استضر به، وفات العمل أو نقص ولم يكن محكماً.

ومن هنا لا يقرن أهل الإتقان من أهل الحرث بين ثور وأضعف منه؛ لأنَّ الضعيف يقصر عن القوي فيتعبه ويوهِنه، والقوي يكلف الضعيف مثل حركته ونشاطه فيقتله، فينبغي التعادل بينهما قوةً وضعفاً.

ولذلك كانت شركة الأبدان باطلة؛ لأن عمل الشريكين لا يكاد أن يتساوى، بل لا يتمحض تساويه، وربما زاد أحدهما في العمل على رفيقه، أو قصر عنه، فيؤدي ذلك للجهل بمقدار استحقاق كل منهما مما يكتسبانه.

ومن وجوه الاعتبار ما أشار إليه أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه أنَّ الأعمال المشتركة إن كانت من أعمال الخير كالتحابِّ في الله، والسلام، والمصافحة، والزيارة، والعيادة، والنصيحة، ومعاونة الضعفاء في أعمالهم، وحضور الجمعة والجماعة، كان الاجتماع لتحصيلها لازماً للعبد الصالح.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٩٩).

وإن كانت من أعمال الشر كالغيبة، والنميمة، والرياء، كان الاعتزال والانفراد عن أهلها متعيَّناً للعبد الصالح لدفعها عنه، وسلامته منها كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائدة: ٢].

فالتعاون لا يحصل إلا بالاجتماع، فالتعاون المأمور به مأمور بالاجتماع له، والتعاون المنهي عنه منهي عن الاجتماع له لتلازمهما.

ومن ذلك الاجتماع بأهل السنة يؤدي إلى الموافقة فيها، والاجتماع بأهل البدعة يؤدي إلى الموافقة فيها.

ومن هنا يتعين الابتعاد عن أهل الضلالة والاعتزال عنهم خشية من الإضلال؛ فإنَّ من قاده أعمى فانقاد له من غير تحرز مما عسى أن يقع فيه يوشك أن يسقط، فيسقط وراءه وهو لا يشعر.

ولقد أنشد الأستاذ أبو القاسم القشيري في «إشاراته»: [من السريع]

لَـوِ الْتَقَـى فِـي حَـدبٍ واحِـدٍ سَـــبْعُونَ أَعْمَـــى بِمَقَـــادِيرِ
وَصَـــيَّرُوا بَعْـــضَهُمْ قائِـــداً فَكُلُّهُـــمْ يَـسْقُطُ فِــي البِــيْرِ

ولقد اتفق لي تحقيق ذلك كنت مرة في طريق منحدب وإليه طريق آخر، فخرج من الطريق الآخذ إليه أعمى يقود عمياناً نحو عشرين حتى صاروا على رصيف الطريق، ثم خرج وراءهم أعمى آخر يقود عمياناً آخرين نحو عشرين، فوالله لقد عثر الأعمى الأول من

الطائفة الأولى في الحدب، فوقع المقتادون كلهم حتى ملوا الطريق وهم متلازمون لا يفلت أحدهم يده عن رفيقه، ثم عثر القائد الثاني بالواقعين في الطريق فسقط، فسقط المقتادون به كلهم وهم متلازمون كذلك، وكان ذلك بعد وقوفي على البيتين اللذين أنشدهما القشيري رضي الله تعالى عنه، وتعجبي منهما حتى رأيت ذلك عياناً، وكان ذلك في حدود سنة تسع وتسعين وتسع مئة.

وروى الدينوري في «المجالسة» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: لو أنَّ الوحش طعمت طعم الإسلام لما تركته أبداً[1].

ونظيره الحديث المتقدم: «لَوْ تَعْلَمُ البَهَائِمُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْمَوْتِ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا لَحْماً سَمِيْناً»[2].

وقال بعض أهل العربية: [من البسيط]

لَوْ يَعْلَمُ الطَّيْرُ ما فِي النَّحْوِ مِنْ أَدَبٍ
سَعَتْ إِلَيْهِ وَدَقَّتْ بِالْمَنَاقِيرِ

وقال آخر: [من مخلَّع البسيط]

لَوْ ذاقَ طَعْمَ الإِيْمانِ رَضْوى لَكانَ مِنْ أُنْسِهِ يَمِيدُ

وقال ابن عبد ربه في «العقد»: قال الأصمعي: سمعت أعرابياً

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

يقول: كان سنان بن أبي حارثة أحلم من فرخ طائر.

قلت: وما حلم فرخ طائر؟

قال: إنه يخرج من بيضته في رأس نيق، فلا يتحرك حتى ينبت ريشه ويقوى على الطيران[1].

والنيق ـ بالكسر ـ: أرفع موضع في الجبل.

قال الشاعر:

شَغْواءُ تَوَطَّنَ بَيْنَ الشيقِ وَالنيقِ[2]

ويقال: الشيق أصعب موضع في الجبل.

وقال البوصيري رحمه الله تعالى: [من البسيط]

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ

إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجامِها تَجِمِ

يقال: وَجَم يَجِم ـ كوعد يَعِد ـ: إذا سكت على غيظ.

والمعنى: أنها تخضع له وتنزجر عنه.

وكأن البوصيري لمح بقصة سفينة رضي الله تعالى عنه مولى النبي ﷺ مع الأسد، وقد ذكرتُها فيما سبق.

ومن غريب طرقها: ما رواه ابن عساكر ـ بسند ليس فيه متهم كما قال السيوطي ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٢٨).

(٢) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٢٣٦).

سفينة ﷺ بكتاب إلى معاذ وهو باليمن، فلمَّا صار بالطريق إذا هو بالسبع رابض في وسط الطريق، فخاف أن يجوز فيقوم إليه، فقال: أيها السبع! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إلى معاذ ﷺ، وهذا كتاب رسول الله ﷺ إلى معاذ ﷺ.

قال: فقام السبع فهرول قدامه غلوة، ثم همهم، ثم صرخ، ثم تنحَّى عن الطريق، فمضى بكتاب رسول الله ﷺ إلى معاذ، ثم رجع بالجواب، فإذا هو بالسبع، فخاف أن يجوز، فقال: أيها السبع! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إلى معاذ، وهذا جواب كتاب رسول الله ﷺ إلى النبي، ﷺ فقام السبع، فصرخ، ثم همهم، ثم تنحَّى عن الطريق، فلمَّا قدم أخبر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُوْنَ مَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ قَالَ: كَيْفَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ ﷺ؟

وأمَّا الثانية فقال: أَقْرِئْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيّاً، وَسَلْمَانَ، وَصُهَيْباً، وَبِلالاً مِنِّي السَّلامَ»[1].

وروى الطبراني، والديلمي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «أَتَدْرُوْنَ مَا يَقُوْلُ الأَسَدُ فِي زَئِيْرِهِ؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «يَقُوْلُ: اللَّهُمَّ لا تُسَلِّطْنِي عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرُوفِ»[2].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٧٤).

(٢) رواه الطبراني في «مكارم الأخلاق» (١١٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٣٣٧).

ويؤيده ما في الحديث: «إِنَّ صَنَائِعَ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوْءِ»[1].

والزئير صوت الأسد في عدوه؛ يقال: زأر يزأر زئاراً، وزئيراً ـ بالكسر ـ وتزارَّ؛ كتعلَّم.

وروى الحاكم وصححه، عن أبي عقرب رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول الله ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْباً مِنْ كِلابِكَ»، فافترسه الأسد[2].

وروى البيهقي في «الدلائل» عن قتادة: أنَّ عتبة بن أبي لهب تسلط على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا إِنِّي أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِ كَلْبَهُ».

فخرج في نفر من قريش حتى نزلوا بمكان من الشام يقال له: الزرقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد، فجعل عتبة يقول: يا ويل أمي! هو والله آكلي كما دعا محمدٌ عَلَيَّ، قتلني وهو بمكة وأنا بالشام، فعدا عليه الأسد فقتله من بين القوم، وأخذ برأسه فضغمه ضغمة، فذبحه[3].

وفي حديث آخر أخرجه ابن عساكر: كان أبو لهب وابنه عتبة قد

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٩٨٤)، وكذا البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٣٨).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٣٩).

تجهزا إلى الشام، فقال عتبة: والله لأذهبنَّ إلى محمد فلآذينه في ربه، فأتاه وهو في الحجر فقال: هو يكفر بالذي دنا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ابْعَثْ عَلَيْهِ كَلْباً مِنْ كِلابِكَ».

وفيه: أنهم ساروا حتى نزلوا الشراة وهي مَأْسَدة، فجمعوا متاعهم إلى صومعة هناك، وفرشوا لعتبة، وناموا حوله، وبات وهو فوق المتاع وهم حوله، فجاء الأسد فشم وجوههم، فلما لم يجد ما يريده تنفض، ثم وثب فإذا هو فوق المتاع، فشم وجه عتبة، ثم هزمه هزمة، ففضخ رأسه، فانطلق. رواه أبو نعيم، وابن عساكر من حديث أهبان بن الأسود ﷺ، وأنه شهد القصة وكان معهم[1].

ورواه ابن إسحاق، وأبو نعيم من طريقة أخرى ـ مرسلة ـ عن محمد بن كعب القرظي، وزاد: أنَّ حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال ذلك: [من السريع]

سائِلْ بَنِي الأَشْقَرِ إِنْ جِئْتَهُمْ	ما كانَ أَنْباءُ أَبِي واسِعِ
لا وَسَّعَ اللهُ لَهُ قَبْرَهُ	بَلْ ضَيَّقَ اللهُ عَلى القاطِعِ
رُحْمُ نبيٍّ جَدُّهُ ثابِتٍ	يَدْعو إِلَى نُورٍ لَهُ ساطِعِ
اسألُ بِالْحجرِ لِتَكْذِيبِهِ	دُونَ قُرَيْشٍ نُهزةَ القارِعِ
فَاسْتَوْجِبِ الدَّعوةَ مِنْهُ بِما	بُيِّنَ لِلنَّاظِرِ وَالسَّامِعِ

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٦١).

أَنْ سَــلَّطَ اللهُ بِهــا كَلْبَــهُ ... يَمْـشِي الْهُوَينـا مِـشْيَةَ الْخـادِعِ

حَتَّـى أَتـاهُ وَسْـطَ أَصْحابِـهِ ... وَقَـدْ عَلَـتْهُمْ سُـنَّةُ الْهـاجِعِ

فَـالْتَقَمَ الـرَّأْسَ بِيافُوخِـهِ ... وَالنَّحْـرَ مِنْـهُ فغـرةَ الْجـائِعِ

مَـنْ يَرْجِـعِ الآنَ إِلَـى أَهْلِـهِ ... فَمـا أَكَيْـلُ الـسبعَ بِـالرَّاجِعِ[1]

وهذا وأمثاله يدل على أن السبع إنما يتسلط على أحد بتسليط الله تعالى، وينكف عن أحد بكف الله تعالى، وأنَّ محل تسليطه أهل معصية الله بسخط من الله تعالى، ومحل انكفافه أهل ولاية الله تعالى والمعروف في شريعته لرحمة من الله تعالى ورضا منه.

وروى أبو نعيم عن ثور بن يزيد قال: بلغني أنَّ الأسد لا يأكل إلا من أتى مُحرماً[2].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن جعفر بن زيد ـ أراه العبدي ـ: أنَّ أباه أخبره قال: خرجنا في غَزَاة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم رحمه الله تعالى، فنزل الناس عند العتمة، ثم اضطجع، فلمَّا هدأت العيون وثب يدخل غيضة قريباً منَّا وبغلته في أثره، فتوضأ ثمَّ قام يصلي، فافتتح وجاء أسد حتى دنا منه، قال: فصعدت في شجرة، قال: فتراه التفت أو عدَّهُ جَرواً حتى سجد، فقلت: الآن يفترسه

---

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص: ٢٢٠).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٩٥).

حتى سجد فلا شيء، ثمَّ سلَّم، فقال: أيها السبع! اطلب الرزق من مكان آخر، فولَّى وإنَّ له لزئيراً تصدع الجبال منه.

قال: فما زال كذلك حتى لمَّا كان الصبح جلس يحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثمَّ قال: اللهمَّ إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يجترئ أن يسألك الجنة؟

قال: ثمَّ رجع فأصبح كأنَّه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من القلق ما الله به عليم[1].

وروى اللالكائي في باب الكرامات من «السنة» عن الحسن بن دعابة قال: رأيت عتبة الغلام رحمه الله تعالى إذا استحسن الطير دعاءه فيجيء حتى يسقط على فخذه، فيمسه، ثم يسيبه فيطير[2].

وعن عبدالله بن موسى الطُّفَاوي، قال: بلغني أنَّ رابعة ـ يعني: العدوية ـ رحمها الله تعالى كانت تطبخ قدراً، فاشتهت بصلاً، فجاء طير في منقاره بصلة، فألقاها إليها[3].

وروى أبو نعيم عن بكر بن خليفة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أيها الناس! إنكم والله لو حننتم حنين الوله

---

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٥٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٤٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص: ٢٢٨).

العجال، ودعوتم دعاء الحمام، وجأرتم تجؤر المتبتل الرهبان، ثم خرجتم إلى الله تعالى من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصاها كتبته، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من جزيل ثوابه، وأتخوَّف عليكم من أليم عقابه[1].

وعن وهب بن منبِّه قال: البلاء للمؤمن كالشكال للدابة[2].

والمعنى فيه: أنَّ البلاء يحرس المؤمن من الطغيان كما يمنع الشكال الدابة من الرَّمَح والعض ونحو ذلك، إذ المرض حبس للعبد المؤمن عن شهوات النفس التي إذا استرسل فيها فربَّما أدَّت به إلى الطغيان والعدوان.

وروى أبو نعيم عن الشعبي قال: حدثني عجلان مولى زياد، قال: كان زياد إذا خرج من منزله مشيت أمامه إلى المسجد، فإذا دخل مشيت أمامه إلى مجلسه ذات يوم، فإذا هو بهر في زاوية البيت، فذهبت أزجره، فقال: دعه يقارب ما له، ثمَّ صلَّى الظهر، فعاد إلى مجلسه، ثم صلى العصر فعاد إلى مجلسه؛ كل ذلك يلاحظ الهر، فلما كان قبل غروب الشمس خرج جرد فوثب إليه فأخذه، فقال زياد: من كانت له حاجة فليواظب عليها مراقبة الهر يظفر بها[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٧).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٥٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣١٧).

وحُكِي عن بعض المراقبين أنَّه سُئِل: من أين تعلمت هذه المراقبة؟

قال: من سنور كان عندنا يرقب الفئرة، ويصبر فلا يتحرك حتى يخرج الفأر فيتناوله.

وقال القشيري في «رسالته»: سُئِل أبو الحسن بن هند: متى يهش الراعي غنمه بعصى الرعاية عن مراعي الهلكة؟

قال: إذا علم أنَّ عليه رقيباً.

وروى الدينوري في «المجالسة» عن حمَّاد بن زيد رحمه الله تعالى قال: قيل للحمار: ألا تجتر؟

فقال: أكره مضغ الباطل[1].

وهذا على طريق ضرب المثال والتكلم بلسان الحال، وله نظائر تقدم منها جملة.

وقال القمي في «الأمثال»: تقول العرب فيما تضربه من الأمثال: إنَّ الأسد رأى الحمار فرأى شدة حوافره، وعظم أسنانه، وعظم بطنه وأذنيه، فهابه، وقال: إنَّ هذا لمنكر، وإنَّ هذا لخليق أن يغلبني، فلو زرته ونظرت ما عنده، فدنا منه الأسد، فقال: يا حمار! أرأيت حوافرك هذه المنكرة لأي شيء هي؟

قال: للحجارة.

فقال الأسد: أَمِنْتُ حوافره.

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٩٦).

ثم قال: أفرأيت أسنانك هذه المنكرة لأي شيء هي؟

قال: للحنظل.

قال الأسد: قد أمنت أسنانه.

قال: أفرأيت أذنيك هاتين المنكرتين لأي شيء؟

قال: للذباب.

قال: أفرأيت بطنك لأي شيء هو؟

قال: ضراط أكنزه، وضَرَطَ، فأرسلها مثلاً[1]، انتهى.

وما أحسن ما قيل: [من الوافر]

وَلَوْ لَبِسَ الْحِمَارُ ثِيَابَ خَزٍّ
لَقَالَ النَّاسُ يَا لَكَ مِنْ حِمَارِ

وقالوا في المثل: الفرس العتيق لا يعيبه خلاقة جله.

وروى الشيخان، والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا عَلَيْهَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ: مَنْ لَهَا يومَ السَّبُعِ يومَ لَيسَ لَها راعٍ غَيْرِي، وَبَيْنَما رَجُلٌ يَسوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْها فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَكَلَّمَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذا وَلَكِنْ خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ».

فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم، بقرة تتكلم؟

---

(١) وانظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٢٤٠).

فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أُؤْمِنُ بِذَلِكَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا»[١].

وروى أبو الشيخ في «العظمة» عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: جاءت بقرة إلى بيت كان إلى مجلس داود عليه السلام من ظاهر الباب، فحركته، فقال داود عليه السلام لوصيف عنده: انظر من بالباب فأدخله، فخرج فلم يرَ أحداً، فقال: يا نبي الله! ما بالباب أحد.

فعادت البقرة فحركت البيت، فقال: اخرج فما وجدت على الباب من شيء فأدخله.

فخرج فوجد البقرة فأدخلها، فخرَّت له ساجدة، ثم قالت: يا نبي الله! قد وضعت عند أهلي كذا وكذا بطناً، وانتفعوا بلبني، وقد ائتمروا أن يذبحوني.

فبعث إلى أهلها فذكر لهم الذي قالت، فقالوا: صدقت؛ لحمها علينا حرام[٢].

وروى الخطيب في «الجامع» عن حَمَّاد الرَّاوية قال: كانت العرب تقول: عجبنا من أربعة أشياء: من الغراب، والكلب، والخنزير، والسنور.

فأمَّا الغراب فسرعة بكوره وسرعة إيابه قبل الليل.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨١١١).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٧٦٦).

وأما الكلب فالمعرفة تنفع عنده.

وأما الخنزير فإنه إذا احتقر شيئاً لم يدعه حتى يأتي على أصله.

وأمَّا السنور فإنَّه يواظب على الشيء فلا يبرح حتى يأخذه.

فمن طلب حاجة فليطلبها طلب الهر[1].

وفي كتاب «العقد» لابن عبد ربه: وقالوا: من أخذ من الديك ثلاثة أشياء، ومن الغراب ثلاثة أشياء، تمَّ بها أدبه ومروءته.

من أخذ من الديك سخاءه، وشجاعته، وغيرته.

ومن الغراب بكوره في طلب الرزق، وشدة حذره، وستر[2] سفاده[3].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن الأصمعي قال: قيل لبزرجمهر الحكيم: بم أدركت ما أدركت؟

قال: ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار[4].

وعن المدائني قال: كان عظماء الترك يقولون: ينبغي للقائد

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع» (٢/ ١٨٣).

(٢) في «أ» و«ت»: «شدة» بدل «ستر».

(٣) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٣٩).

(٤) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٦).

العظيم أن يكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، وتحنن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وحيل الذئب[1].

وقال أبو الليث السمرقندي في «تنبيه الغافلين»: ويقال: ينبغي للغازي عشر خصال:

- أن يكون في قلب الأسد لا يجبن.
- وفي كبر النمر لا يتواضع للعدو.
- وفي شجاعة الذئب يقاتل بجميع جوارحه.
- وفي الخنزير لا يول دبره إذا حمل.
- وفي إغارة الذئب إذا أيس من وجه أغار من وجه.
- وفي حمل الثقيل كالنملة تحمل أضعاف وزنها.
- وفي ثباته كالحجر لا يزول عن مكانه.
- وفي صبره كالحمار إذا أثقله حمله صبر يصبر على نضل السهام وضرب السهام.
- وفي وفاء الكلب لو دخل سيده النار لاتبع أثره.
- وفي التماس الفرصة كالديك.

وذكر صاحب «شرعة الإسلام»[2] نحو ذلك إلا أنه قال: إنَّ مقدم

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٩٨).

(٢) هو الإمام الواعظ محمد بن أبي بكر، المعروف بإمام زاده الحنفي.

العسكر ينبغي أن يتشبه بأصناف من الخلق؛ فيكون له قلب الأسد لا يجبن، وفي كبر النمر إلى آخره.

وزاد: في الحراسة كالكركي، وفي التعب كاليعزوب، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

وقال في «حياة الحيوان»: حكى المسعودي عن بعض حكماء الفرس قال: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه حتى انتهى ذلك بي إلى الكلب، والهرة، والخنزير، والغراب، فقيل له: فما أخذت من الكلب؟

قال: إلفه لأهله، وذبه عن صاحبه.

قيل: فما أخذت من الهرة؟

قال: حسن تأنيها وتأنقها عند المسألة.

قيل: فما أخذت من الخنزير؟

قال: السكون في حوائجه.

قيل: فما أخذت من الغراب؟

قال: شدة حذره.

وذكر القشيري في «رسالته» عن سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى أنَّه قال: إن كنت ممن يخشى السباع فلا تصحبني.

كأنه أشار إلى من يخاف غير الله تعالى فلا ينبغي أن يصحب لأنه يفارقك إذا خاف عدوك وخشي عتاب صديقك، ويهرب عنك إذا قصدك سبع أو نحوه.

وأيضاً فإنَّ المريد إذا تبع المُربِّي لا يتم اتباعه له حتى لا يجول بينه وبينه هول ولا هوى.

قال القشيري ﷺ: والمريد لا يفتر آناء الليل والنهار، فهو في الظاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات، فارق الفراش ولازم الانكماش، وتحمل المصاعب وركب المتاعب، وعالج الأخلاق ومارس المشاق، وعاين الأهوال وفارق الأشكال كما قيل:

كَـمْ قَطَعْـتُ اللَّيْـلَ فِـي مَهْمَـهٍ لا أَسَـداً أَخْـشَى وَلا ذيبـا

يَغْلِبُنِي شَـوْقِي فَـأَطْوِي الـسُّرى وَلَـمْ يَـزَلْ ذُو الـشَّوْقِ مَغْلُوبـاً

قال: وسُئِل الجنيد رحمه الله تعالى عن المريد والمراد؟

فقال: المريد: تتولاه سياسة العلم، والمراد: رعاية الحق لأنَّ المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر.

وعن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى قال: اختلفت إلى مجلس قاص فأَثَّرَ كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي شيء، فعدت ثانياً فبقي أثر كلامه في قلبي، فرجعت إلى منزلي فكسرت آلات المخالفات، ولزمت الطريق.

فحكى أبو سليمان هذه الحكاية ليحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى فقال يحيى: عصفور اصطاد كركياً.

وقال بعض العلماء: عليك بصحبة أهل الخير؛ فإنَّ كلباً صحب

قوماً صالحين فذكره الله معهم في كتابه العزيز؛ يريد كلب أصحاب الكهف.

وروى الدينوري في «المجالسة» عن وهب رحمه الله تعالى: أنَّ الله تعالى قال لشعياء عليه السلام: قم في قومك، أُوحي على لسانك.

فلمَّا قام شعياء عليه السلام أنطق الله تعالى لسانه بالوحي، فقال: يا سماء! استمعي، ويا أرض! أنصتي.

فاستمعت السماء وأنصتت الأرض، فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول لكم: إني استقبلت بني إسرائيل بالكرامة وهم كالغنم الضائعة لا راعي لها، فأويت شاردتها، وجبرت كسيرها، وداويت مريضها، وأسمنت مهزولها، فبطرت فتناطحت، فقتل بعضها بعضاً حتى لم يبق منها عظم صحيح.

إنَّ الحمار ربما يذكر أرِيَّه الذي يشبع عليه فيراجعه، وإنَّ الثور ربما يذكر مرجه الذي سمن فيه فينتابه، وإنَّ البعير ربما يذكر وطنه الذي نيخ فيه فينزع إليه؛ فإنَّ هؤلاء القوم لا يذكرون من أين جاءهم الخير وهم أهل الألباب والعقول، ليسوا بإبل ولا بقر ولا حمير.

وإني ضارب لهم مثلاً فاسمعوه؛ قل لهم: كيف ترون في أرض كانت زماناً من زمانها خربة مواتاً، لا زرع فيها ولا حرث، وكان لها رب قوي حليم، فأقبل عليها بالعمارة، وأحاط عليها سياجاً، وشيَّد فيها قصوراً، وأنبط فيها نهراً، وصنَّف فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار، وولَّى ذلك ذا رأي وهمة حفيظاً قوياً

أميناً، فلما جاء إبان ثمرها أثمرت خروباً، ما كنتم قائلين له ومشيرين عليه؟

قال: كنَّا نقول له: بئس الأرض أرضك، ونشير عليه أن يقلع سياجها، ويهدم قصورها، ويدفن نهرها، ويحرق غرسها حتى تعود خربة مواتاً لا عمران فيها.

فقال الله تعالى لهم: إنَّ السياج ذمتي، وإنَّ القصر شريعتي، وإنَّ النهر كتابي، وإنَّ الغراس مثل لهم، والخروب أعمالهم الخبيثة، وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم؛ يتقربون إليَّ بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله، ويدَّعون أن يتقربوا إليَّ بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرَّمتها عليهم، ويزوقون لي المساجد وليس لي إلى تزويقها حاجة، إنما أمرت برفعها لأُذكر فيها وأسبَّح، ويقولون: لو كان يقدر على جمع ألفتنا لجمعها، ولو كان يقدر على فقه قلوبنا لفقهها، فاعمد إلى عودين يابسين فاكتب فيهما كتاباً: إنَّ الله يأمركما أن تعودا عوداً واحداً، فقال لهما ذلك، فاختلطا، فصارا عوداً واحداً، وصار الكتاب في طرفي العود كتاباً واحداً: يا معشر بني إسرائيل! إن الله يقول لكم إني قدرت على أن أفقه العيدان اليابسة، وعلى أن أؤلف بينها، فكيف لا أقدر أن أجمع ألفتكم إن شئت؟ أم كيف لا أفقه قلوبكم؟

ويقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا، وصلينا فلم تنور صلاتنا، وزكينا فلم تزك زكاتنا، ودعونا فلم يستجب لنا.

فقال الله تعالى: سَلْهم لم ذلك؟ وما الذي منعني أن أجيبهم؟ ألست أسمع السامعين وأبصر الباصرين؟ وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين؟ ألأن خزائني قد فنيت ويداي مبسوطتان بالخير أنفق كيف أشاء؟ أم لأنَّ ذات يدي قلَّت؟ كيف ومفاتيح الخير بيدي لا يفتحها ولا يغلقها غيري؟ أم لأنَّ رحمتي ضاقت ورحمتي وسعت كل شيء؟ وإنما يتراحم المتراحمون ببعضها، أم لأن البخل يعتريني؟ كيف وأنا الفتاح بالخيرات أَجْوَد من أعطى، وأكرم من سئل؟

ولكن كيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسونه بقول الزور، ويتقوون عليه بطُعمة الحرام؟ أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحادُّني؟ أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم والعمل من ذلك بعيد؟ أم كيف تزكو صدقاتهم وهي من أموال غيرهم وإنما أجزي عليها المُغْتَصَبِين؟ وإنَّ من علامة رضائي رضا المساكين[1].

*** وهذه فائدة جليلة نختم بها هذا الفصل:**

روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن عبد الكريم ابن رشيد قال: ينتهي أهل الجنة إلى باب الجنة وإنهم يتلاحظون تلاحظ الثيران، فإذا دخلوها نزع الله ما في صدورهم من غِل، فصاروا إخواناً[2].

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٩٥).

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٣٠).

مثل ذلك لا يقال رأياً، وإنَّما حكمه حكم المرفوع.

والمعنى في ذلك على وجهين:

الأول: أنَّ العبد إذا لم ينته إلى إحدى الدارين الجنة والنار، فإنَّ رُعُونات النفس لا تنقطع عنه ـ وإن كان من أهل الخير ـ إلا من عصم الله تعالى منهم، فيبقى عليه بقايا من النفس من غلٍ ـ أي: حسد ـ، أو تزكية نفس، وغض من مقام غيره، فإن كان من أهل الخير جرى عليه من أهوال الموقف ما يكفر عنه تلك البقايا التي لم يحصل لها مكفر في الدنيا من فعلِ حسنةٍ، أو اجتناب كبيرة، أو حلول بلية به، أو هم، أو غم، أو مرض أو شدة موت، فلا يدخل الجنة إلا طاهراً مقدساً، حتى إنَّ منهم من يتم تطهيره بالازدحام عند الدخول في باب الجنة، وكفاك دليلاً على ذلك ما رواه الحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد، وأقره على تصحيحه المنذري، وغيره ـ عن جابر ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ قال: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِيْ خَلِيْلِي جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ آنِفاً فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّ للهِ عَبْدَاً مِنْ عِبَادِهِ عَبَدَ اللهَ خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي البَحْرِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلاثُونَ ذِرَاعاً، فِي ثَلاثِيْنَ ذِرَاعاً وَالبَحْرُ مُحِيْطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْناً عَذْبَةً بِعَرْضِ الإِصْبَعِ تَبُضُّ أَسْفَلَ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ يَخْرُجُ لَهُ فِي كُلِّ [لَيلةٍ] رُمَّانَةٌ يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الوُضُوْءِ، وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلاتِهِ فَسَأَلَ رَبَّهُ عِنْدَ وَقْتِ الأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِداً، قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي العِلْمِ

أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامةِ فيُوْقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعالَى فيَقُوْلُ لَهُ الرَّبُّ ﷻ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فيَقُوْلُ: يَا رَبِّ! بَلْ بِعَمَلِي، فيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فيَقُوْلُ: يَا رَبِّ! بَلْ بِعَمَلِي، فيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فيَقُولُ: يَا رَبِّ! بَلْ بِعَمَلِي، فيَقُولُ اللهُ تَعالَى: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوْجَدُ نِعْمَةُ البَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِئَةِ عَامٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلَةً عَلَيْهِ فيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِيَ النَّارَ، فيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فيُنَادِيْ: رَبِّ! بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فيَقُولُ: رُدُّوْهُ، فيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فيَقُولُ: يَا عَبْدِي مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً؟ فيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ فيَقُولُ: أَنْتَ رَبِّ، فيَقُولُ مَنْ أَنْزَلَكَ فِي الْجَبَلِ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ العَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ يَوْمٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَقْبِضَكَ سَاجِداً فَفَعَلَ؟ فيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ: ذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ؛ أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ.

قَالَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: إِنَّ الأَشْيَاءَ بِرَحْمَةِ اللهِ يَا مُحَمَّد»[1].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٦٣٧). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين.

قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ٣٢٠): سليمان بن هرم قال الأزدي: لا يصح حديثه، وقال العقيلي: مجهول وحديثه غير محفوظ.

فانظر كيف يُكفِّر الله تعالى عن العبد الصالح ما يبقى عليه من رعونة نفسه، وإدلاله بعمله وتمسكه به في نفس موقفه، فلا يدخله الله الجنة إلا خالصاً طاهراً مقدساً؛ فمن هذا القبيل يُلاحظ أهل الجنة عند باب الجنة تلاحظ الثيران ليُكفر ذلك عنهم ولو بازدحامهم عند الدخول، فإذا دخلوا نزع الله الغِلَّ من صدورهم.

هذا الوجه الأول في كلام عبد الكريم بن رشيد.

والوجه الثاني: أنَّ أهل الجنة لا تنقطع عنهم أحوال الدنيا وخوف المؤاخذة بها في مواطن القيامة حتى يدخلوا الجنة ـ وإن انتهوا إلى بابها ـ فإنَّ كل إنسان منهم يخشى أن يكون عليه مؤاخذة، ولا يكاد يخلو أحد منهم من ظُلامة عند بعض أهل الموقف فهو يخاف أن يحتاج إليها ليكفِّر الله بها ما عسى أن يستدرك عليه من التبعات ـ وإن انتهى إلى باب الجنة ـ فإنه لا يأمن أن يقال: قفوه، أو: أرجعوه، فهو ينظر إلى أخيه الذي له عليه الظلامة نظر الطالب، ويلتفت إليه التفات المُسْتَعدى عليه ولو كان أقرب الخلق إليه.

روى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهُ يَكُوْنُ لِلْوَالِدَيْنِ عَلَى وَلَدِهِمَا دَيْنٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَتَعَلَّقَانِ بِهِ فَيَقُوْلُ: أَنَا وَلَدُكُمَا فَيَوَدَّانِ، أَوْ يَتَمَنَّيَانِ لَوْ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[1].

---

(1) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٢٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٥٥): رواه الطبراني عن عمرو بن مخلد، عن زكريا بن يحيى الأنصاري، ولم أعرفهما، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.

وروى سعيد بن منصور، والحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ وابن أبي داود في «البعث»، والبيهقي في «الشعب» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتَّى بدت ثناياه، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

قال: «رَجُلانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ العِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ! خُذْ لِيْ مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِيْ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيْكَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ.

قَالَ: يَا رَبِّ! فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي».

وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثمَّ قال: «إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ أَنْ يُحمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، فَقَالَ اللهُ لِلطَّالِبِ: ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ، فَرَفَعَ فَقَالَ: يَا رَبِّ! أَرَى مَدَائِنَ مِنْ ذَهَبٍ، وَقُصُوْراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ؛ لأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا، وَلأَيِّ صِدِّيْقٍ هَذَا، وَلأَيِّ شَهِيْدٍ هَذَا؟

قَالَ: لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ.

قَالَ: يَا رَبِّ! وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ؟

قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُ.

قَالَ: بِمَاذَا؟

قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيْكَ.

قَالَ: يَارَبِّ! فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: فَخُذْ بِيَدِ أَخِيْكَ، وَأَدْخِلْهُ مَعَكَ الْجَنَّةَ».

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «وَاتَّقُوا اللهَ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ»(١).

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُحْبَسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْدَمَا يَجُوْزُوْنَ الصِّرَاطَ حَتَّى يُؤْخَذَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ظُلامَاتُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوْبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ غِلٌّ»(٢).

روى البخاري، والإسماعيلي في «مستخرجه» ـ واللفظ له ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] قال: يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُوْنُ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَتَنَقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُوْلِ الْجَنَّةِ؛ فَوَالَّذِيْ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٧١٨)، وابن أبي داود في «البعث» (٣٢)، وكذا ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (ص: ١٠٩).

(٢) كذا عزاه ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٩٩) إلى ابن أبي حاتم، وصحح إسناده.

نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى لِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا»[1].

قال قتادة: كان يقال ما شَبَهٌ لهم إلا أهل الجمعة انصرفوا من جمعتهم[2].

وقوله: يخلص المؤمنون من النار؛ أي: ينجون من السقوط فيها بمجاورة الصراط.

والمراد: من لم يدخل النار منهم، كما قال القرطبي[3]، أمَّا من دخلها ثم أخرج منها فلا يحبس، بل إذا أخرجوا بثوا على أنهار الجنة فغمسوا فيها، وذلك أن ما كان عليهم من التبعات جوزوا عليه بما لقوا في النار.

وأحسن ما نختتم به هنا: ما رواه البزار بسند صحيح، عن عمر ابن الخطاب ﵁: أنَّ رسول الله ﷺ كان في بعض مغازيه فبينما هم يسيرون إذ أخذوا فرخ طير، فأقبل أحد أبويه حتى سقط في يد الذي أخذه، فقال رسول الله ﷺ: «أَلا تَعْجَبُوْنَ لِهَذَا الطَّيْرِ؟ أَخَذَ فَرْخَهُ فَأَقْبَلَ حَتَّى سَقَطَ فِي أَيْدِيْهِمْ، فَوَاللهِ للهُ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ هَذَا الطَّيْرِ بِفَرْخِهِ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٦١٧٠)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٩٨).

(٢) نقله ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٩٨) عن الإسماعيلي.

(٣) انظر: «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي (ص: ٣٩٢).

(٤) رواه البزار في «المسند» (٢٨٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٨٣): رواه البزار من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح.

واعلم أنَّ الله تبارك وتعالى جعل الإنسان نسخة الوجود ومرآة العوالم، وجعل فيه قابلية لأن يكون صورة لكل شيء، ونسخة من كل مصنوع بحيث يظهر فيه كمال قدرة الله تعالى، كما وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وفضَّله الله تعالى على جميع الحيوانات والجمادات بالعقل والمعرفة، وحسن التصرف في مملكة إنسانيته، ومقتضى ذلك أن يظهر بكل صورة جميلة، ويتخلق بكل صفة كريمة ـ ولو كان لها نظير في أدون المخلوقات وأدناها ـ مع الاحتراز عن كل خصلة قبيحة، وصورة شنيعة ـ وإن كان يوجد لها نظير في بعض الأناسي ـ والعاقل العارف لا يرضى لنفسه أن يكون من الخير إلا في أعلى طبقاته الممكنة له، ولا من الشر إلا أبعد ما يكون منه، ولا يرى أحداً متصفاً بشيء مدحه الشرع والعقل إلا شاركه فيه، أو شيء ذمَّه الشرع والعقل إلاَّ كان أشد الناس اجتناباً له وتباعداً عنه كما قيل: [من المتقارب]

إذا أَعْجَبَتْــكَ خِــصالُ امْــرِئٍ ... فَكُنْـهُ يَكُـنْ فِيـكَ مـا يُعْجِبُـكْ

فَلَيْسَ عَلى الْمَجْدِ وَالْمَكْرُماتِ ... إِذا رُمْتَهـا حاجِـبٌ يَحْجُبُـكْ[1]

وأقول: [من السريع]

---

(١) البيتان لأبي العيناء، كما في «محاضرات الأدباء» للراغب الأصبهاني (١/ ٣٨٠).

إِنِّـــي امْـــرُؤٌ يُعْجِبُنِـــي أَنْ أَكُـــونْ

فِـــي حَرَكَـــاتِي كُلِّهَـــا وَالـــسُّكونْ

عَلَـــى كَمَـــالِ الْخَيْـــرِ مَـــا فَـــاتَنِي

قَرْنِـــي بِـــشَيْءٍ مِنْـــهُ أَنَّـــى يَكُـــونْ

لَـــوْ أَمْكَنَتْنِـــي قُـــوَّتِي لَـــمْ أَكُـــنْ

أَرْضَـــى عَـــنِ الغَايَـــةِ فِيـــهِ بِـــدُونْ

لَـــمْ أَرْضَ أَنْ يُمْـــدَحَ غَيْـــرِي بِمَـــا

لَـــمْ يَـــكُ لِـــي خُلْقـــاً فَـــلا يَـــسْبِقُونْ

إِنَّ الَّـــذِي يَرْضَـــى بِفَـــضْلٍ يَـــرَى

مِـــنْ غَيْـــرِهِ لا مِنْـــهُ فِيـــهِ جُنُـــونْ

مَـــا لَـــمْ يَكُـــنْ يَجْهَـــدُ فِـــي نَيْلِـــهِ

كَمَـــا الـــوَرَى فِـــي نَيْلِـــهِ يَجْهَـــدُونْ

مَـــا زِلْـــتُ بِالْهِمَّـــةِ أَسْـــعَى وَقَـــدْ

كُنْـــتُ صَـــغِيراً وَتَوالَـــتْ سُـــنُونْ

وَأَنَـــا مَـــعْ ذَلِـــكَ لَـــمْ أَرْضَ مَـــا

بَلَغْـــتُ مِـــنْ فَـــضْلٍ بِـــهِ يَمْـــدَحُونْ

بَــلْ إِنَّنِـــي أَسْـــأَلُ مِـــنْ خـــالِقِي
زِيـــادةً قَبْـــلَ نُـــزولِ الْمَنُـــونْ

حَتَّـــــى أَراهُ نـــــاظِراً راضـــــياً
إِلَـــيَّ مِـــنْ حَيْـــثُ الْمَـــلا يُخْبِـــرُونْ

حَـــسَّنْتُ بِـــاللهِ ظُنـــونِي وَمـــا
أَنْفَـــعَ مـــا قَـــدْ كـــانَ حُـــسْنَ الظُّنُـــونْ

وهذا الكتاب موضوع لطريق العمل بمقتضى العقل والعلم اللذين بهما يصير الإنسان إنساناً كاملاً، فمن ظَفِر بكتابنا هذا وتمسَّك به، وعمل بما فيه كان إنساناً كاملاً وبشراً سويَّاً، ورُجي له زيادة الهداية من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[مريم: ٧٦].

ومن خالف في العمل والهدى هذا الكتاب فقد حاد عن جادة الصواب، وصرف قلبه عن فهم آيات الكتاب، وعرَّض نفسه للندامة يوم المآب.

وإن شئت فاقرأ في هذا المقام قول الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٦].

فإيَّاك والغفلةَ عن آيات الله؛ فإنَّ الغفلة عنها تجرُّ إلى التكذيب بها ولو بلسان الحال، وذلك يؤدي إلى ترك العمل بها، وبذلك يهلك الإنسان؛ نعوذ بالله من الخذلان!

ثمَّ لما كان الإنسان ـ وإن كان متصفاً بالعبودية والإيمان ـ لا يخلو عن زلةٍ ما بمقتضى ما جُبِلَ عليه من الخطأ كما في الحديث: «كُلُّ بَنِيْ آدَمَ خَطَّاءٌ»[1] ناسبَ أن نختم الكتاب بما يفيء به من الزلة والخطأ إلى الاستقامة والصواب، وهو التوبة التي كانت طريق الفيئة والتدارك لأبيه آدم عليه السلام ليكون من خير الخطَّائين؛ إذ «خير الخطَّائين التوابون»[2] كما في الحديث.

وروى الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَّناً تَوَّاباً، نَسِيَّاً إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[3].

وحقيقة وصف المؤمن في هذا الحديث التوبة والذكر، وأما الافتتان والنسيان فإنَّهما يشاركه فيها غيره، فالمنافق كذلك مفتن نسي إلا أنَّهُ يُصر، وإذا ذُكِّر لا يذكر، ولأنَّ التوبة أول مقامات البدلية، ولذلك يُبدل الله تعالى سيئات التائبين حسنات كما قال تعالى:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومن ثم قال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة[1].

وروى أبو الحسن بن جهضم في «بهجة الأسرار» عنه أنَّه قال: لا يصح للإنسان حقيقة التوبة حتى يترك أربعة أخلاق؛ أخلاق الأبالسة، وأخلاق السحرة، وأخلاق البهائم، وأخلاق الشياطين.

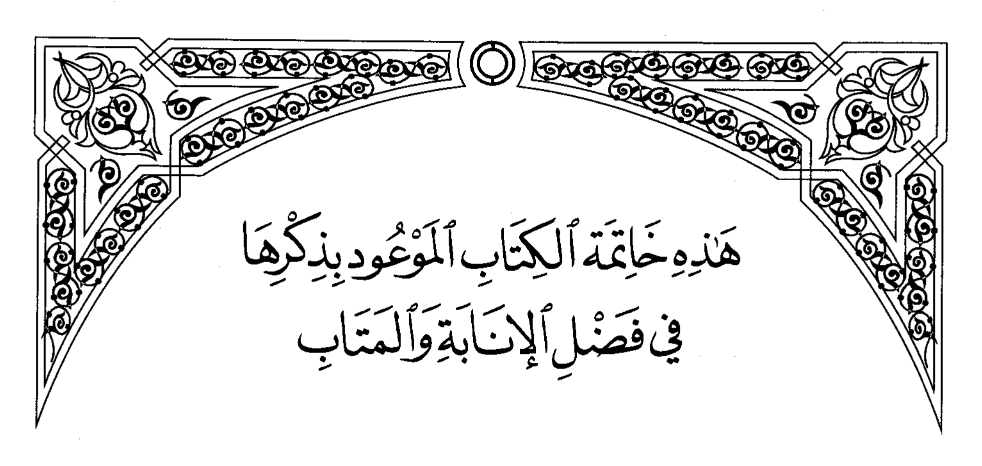
أي: مُتصفاً بأضدادها، متخلقاً بخلافها.

وهذا الكتاب إنما هو للإرشاد إلى أن يتجرد العبد عن مساوئ الأخلاق والأعمال والأقوال، ويتبدل بها محاسن الأخلاق والأعمال والأقوال، فيكون بدلاً يرحم الله به العباد، ويسقي به البلاد، وينصر به عامَّة الأمة على أعدائها، ويحفظ به الأرض من سائر أرجائها حتى يأتيَ أمرُ الله تعالى.

وأيضاً ختمنا بالتوبة الكتاب رجاء أن يختم لنا بالمتاب؛ لأنَّ من خُتِمَ له بالتوبة فقد أمن بالأَوبة من الحَوبة.

* * *

(١) انظر: «تفسير السلمي» (٢/ ٦٨)، و«إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٤).



هَذِهِ خَاتِمَةُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمَوْعُودِ بِذِكْرِهَا فِي فَضْلِ ٱلْإِنَابَةِ وَٱلْمَتَابِ

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

روى الحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: التوبة النصوح تُكفِّر كل سيئة.

قال: وهو في القرآن، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٨][1].

وروى عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والمفسرون، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الشعب»، وغيرهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سُئِلَ عن التوبة النصوح، قال: أن يتوب الرجل من العمل السيء ثمَّ لا يعود إليه أبداً[2].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٣١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٠٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» =

وروي ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود موقوفاً عليهما، وعنهما وعن أبي بن كعب مرفوعاً[1].

وقال الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾[التوبة: ١١٨].

وفي التوبة آيات أُخر.

وروى مسلم، والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوْبَ مُسِيْءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِـهَا»[2].

وروى الشيخان عن الحارث بن سويد عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَةٌ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، فَطَلَبَهَا حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ

= (٣٤٤٩١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٣٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٣٤).

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٢٢٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٨٠).

الْحَرُّ وَالعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ؛ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِ الَّذِيْ كُنْتُ فِيْهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوْتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ العَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ»[1].

ورويا هُما وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ نَفْساً، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَىْ رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِيْنَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً، ثمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَىْ رَجُلٍ عَالمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، مَنْ يَحُوْلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ اِنْطَلِقْ إِلىْ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُوْنَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيْقُ فَأَتَاهُ المَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيْهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلى اللهِ تَعَالى، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيراً قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صُوْرَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوْهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيْسُوْا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، قَالَ: أَيَّتُهُمَا كَانَ أَدْنَىْ فَهُوَ لَهَا، فَقَاسُوْا فَوَجَدُوْهُ أَدْنَىْ إِلى الأَرْضِ الَّتِيْ أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٤٩)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٣)، ومسلم (٢٧٦٦)، وابن ماجه (٢٦٢٢).

وفي رواية: «فَأَوْحَىْ اللهُ إِلى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِيْ، وَإِلى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِـيْ، فَقَالَ: قِيْسُوْا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدُوْهُ إِلى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ».

وفي رواية: قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنَّه لما أتاه ملك الموت ناء بصدره نحوها[1]؛ أي: نحو الأرض التي قصدها ليكون مع أهل الطاعة فيها ويتوب.

وروى الشيخان، وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ عَبْدَاً أَصَابَ ذَنْبَاً فَقَالَ: يَارَبِّ! إِني أَصَبْتُ ذَنْبَاً فَاغْفِرْهُ لي، فَقَالَ رَبُّهُ ﷻ: عَلِمَ عَبْدِيْ أَنَّ لَهُ رَبَّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثمَّ أَصَابَ ذَنْبَاً آخَرَ، وَرُبَّمَا قَالَ: ثم أَذْنَبَ ذَنْبَاً آخَرَ، فَقَالَ: يَارَبِّ! إِني أَذْنَبْتُ ذَنْبَاً آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِيْ، فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِيْ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَغَفَرَ لَهُ، ثمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثمَّ أَصَابَ ذَنْبَاً آخَرَ، وَرُبَّمَا قَالَ: ثمَّ أَذْنَبَ ذَنْبَاً آخَرَ، فَقَالَ: يَارَبِّ! إِني أَذْنَبْتُ ذَنْبَاً آخَرَ فَاغْفِرْ لي، فَقَالَ رَبُّهُ: غَفَرْتُ لِعَبْدِيْ؛ فَلْيَعْمَلْ عَبْدِيْ مَا شَاءَ».

وفي لفظ: «عَبْدِيْ! اِعْمَلْ مَا شِئْتَ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ»[2].

أي: ما دمت كلما أذنبت استغفرتني عن علم منك أني أغفر الذنب

---

(١) هاتان الروايتان عند مسلم.

(٢) رواه البخاري (٧٠٦٨)، ومسلم (٢٧٥٨).

وأعاقب عليه، وهذا العلم يدعو إلى التوبة والإقلاع مع الاستغفار.

وليس المراد الاستغفار باللسان خالياً عن الإقلاع؛ فإنَّه توبةُ الكذَّابين.

وروى البيهقي في كتاب «الزهد» عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ، فمشى ميلاً، ثم قال: «يَا مُعَاذُ! أُوْصِيْكَ بِتَقْوَىْ اللهِ، وَصِدْقِ الحَدِيْثِ، وَوَفَاءِ العَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَتَرْكِ الخِيَانَةِ، وَرَحْمَةِ اليَتِيْمِ، وَحِفْظِ الجِوَارِ، وَكَظْمِ الغَيْظِ، وَلِينِ الْكَلاَمِ، وَبَذْلِ السَّلاَمِ، وَلُزُوْمِ الإِمَامِ، وَالتَفَقُّهِ فِي القُرْآنِ، وَحُبِّ الآخِرَةِ، وَالجزَعِ مِنَ الحِسَابِ، وَقِصَرِ الأَمَلِ، وَحُسْنِ الْعَمَلِ.

وَأَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِماً، أَوْ تُصَدِّقَ كَاذِباً، أَوْ تُكَذِّبَ صَادِقاً، أَوْ تَعْصِيَ إِمَاماً عَادِلاً، وَأَنْ تُفْسِدَ فِيْ الأَرْضِ.

يَا مُعَاذُ! اُذْكُرِ اللهَ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ، وَأَحْدِثْ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةً؛ السِّرُّ بِالسِّرِّ، وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعَلاَنِيَةِ»[1].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَاللهِ إِنِّيْ لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوْبُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ»[2].

وروى الإمام أحمد، ومسلم عن الأغر المزني رضي الله تعالى

---

(١) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٤٨).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوْبُوْا إِلى اللهِ؛ فَإِنِّيْ أَتُوْبُ إِلَيْهِ فِيْ الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»(١).

ورويا، وأبو داود، والنسائي عن الأغر أيضاً: أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىْ قَلْبِيْ، وَإِنِّيْ لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِيْ الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»(٢).

قال العلماء: كان النبي ﷺ يُكثر من التوبة والاستغفار تشريعاً، وإرشاداً وإن كان معصوماً، وتوبته مما عسى أن يقع منه خلاف الأولى.

قال أهل المعرفة: إنَّ استغفاره كان عند ترقِّيه في النبوة من مقام إلى مقام أعلى منه، وكان ربما حصلت منه ملاحظة إلى المقام الذي ارتقى منه، وكان يعد تلك الملاحظة منه غَيناً بالإضافة إلى الذي صار إليه، فكان يستغفر من ذلك الغين، ويتوب من المقام الذي قبل مقامه، فيكون بذلك متخلقاً بمقام العبودية.

قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرُهم(٣).

قلت: لكن ينبغي أن يكون هذا في حق غير الحبيب ﷺ لتحققه

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢١١)، ومسلم (٢٧٠٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢١١)، ومسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٨٠).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٤٣١).

بالتقدم والعقل على سائر النبيين عليهم السلام.

وعندي أنَّ توبة الأنبياء عليهم السلام من رؤية عجزهم عن إدراك أعلى مقامات المعرفة التي هي لأجلها خُلِقَ الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىْ نَفْسِكَ»[١].

والأنبياء فمن دونهم يتعرَّفون فيعبدون على قدر معرفتهم، ثم تنتهي معرفتهم إلى العجز عن معرفتهم إياه سبحانه وتعالى، فلسان حالهم يقول: سبحانك! ما عرفناك حقَّ معرفتك، وإذا كان كذلك فما عبدوه حق عبادته، فلسان حالهم يقول: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

فهذا الاعتراف منهم يفضل العبادات لأنه غاية المعارف، وكان على العبد أن يعرف الله حق معرفته، فيعبده حق عبادته، لكنه عاجز عن ذلك، وقاصر عنه لأنه خلق، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩١]، وإنَّما كان كذلك ليكون أبداً في مقام الذلة والافتقار، وطلب المغفرة والعفو والتوبة، فلا يتزحزح عن مقام العبودية أبداً، وذلك هو المطلوب.

وما أحسن ما قيل: [من المنسرح]

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

عَجِزَ الواصِفُونَ عَنْ صِفَتِكْ اعْتِصامُ الوَرَى بِمَغْفِرَتِكْ
تُبْ عَلَينا فَإِنَّا بَشَرٌ[1] ما عَرَفْناكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكْ

ومن هنا تظهر لك الحكمة في طلب التوبة من جميع المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]؛ إذ لا يخلو المؤمن من تقصير في طاعة الله تعالى وغفلة عن ذكره.

ثمَّ هو في طاعته وذكره عاجز عن بلوغ حقه مقصر في طاعته، فكانت التوبة مطلوبة من كل واحد من المؤمنين في كل وقت من أوقاته، وحال من حالاته؛ ليكون تقصيره مستوراً وذنبه مغفوراً؛ لقوله ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ». رواه ابن ماجه، وغيره عن أنس رضي الله عنه، والطبراني، والحكيم الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه، والبيهقي، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

فالتائب من التقصير كمن لم يقصر أصلاً، فلا يتم لمؤمن مقام إلا بالتوبة من تقصيره في ذلك المقام، وبالتوبة ينال العبد تمام المحبة من الله تعالى؛ لأنَّ العبد كلما كان كاملاً في عبادة الله تعالى كان إلى الله أحب، ولا يبلغ كمال العبودية إلا بالتوبة والتطهير من ذنب الغفلة والتقصير، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) في «أ» و«ت»: زيادة: «سبحانك».

(٢) تقدم تخريجه

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١].

وكان ﷺ يكثر من التوبة والاستغفار، فمن أراد أن يحبه الله تعالى فليكثر منهما.

وروى ابن ماجه بإسناد حسن، عن عبدالله بن بُسْر، وأبو نعيم عن عائشة، والإمام أحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء ـ موقوفاً عليه ـ وقال الأوَّلان: قال رسول الله ﷺ: «طُوْبَىْ لِمَنْ وَجَدَ فِيْ صَحِيْفَتِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيْراً»(١).

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجَاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجَاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبْ»(٢).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨١٨) عن عبدالله بن بسر رضي الله عنه. قال الإمام النووي في «الأذكار» (ص: ٣٢٣): إسناده جيد.
وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.
وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٤٤٦) عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٧٧)، وكذا أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩).

وَيَسْتَغْفِرُوْنَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ»[1].

ورواه الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير» من حديث ابن عباس، ولفظه: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ»[2].

والطبراني في «الكبير» من حديث ابن عمرو، ولفظه: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لَخَلَقَ اللهُ خَلْقاً يُذْنِبُوْنَ ثُمَّ يَغْفِرُ لَهُمْ»[3].

والحكمة في ذلك: أن الإحسان إلى المحسن مكافأة، والإحسان إلى غيره كرم وإفضال، والله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

وفي الاستغفار والإكثار منه فائدة عظيمة، وهي أنه يؤدي بالعبد آخراً إلى التوبة والإقلاع عن الذنب ـ وإن كان يقع كثيراً من العبد مع الغفلة ـ فإنَّه في نفسه حسنة وشكر، وهو يقتضي المزيد، فقد يكون ذلك المزيد التوفيق إلى التوبة: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود: ٣].

وقال بعض العارفين: أكثِرْ من ذكر الله ولو مع الغفلة والغَيبة بالقلب عنه، فربما جرَّك الذكر إلى التذكر والحضور.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٨٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٩٤).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٤٥٤)، وكذا البزار في «المسند» (٢٤٤٩) موقوفاً.

والعبد له بعد الذنب عملان:

أحدهما: قلبي، وهو التوبة.

والثاني: لساني، وهو الاستغفار والاعتذار.

وهما مشروعان للعبد منذ عهد آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة: ٣٧]؛ أي: فتاب، فتاب الله عليه.

وقال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

وروى الأزرقي في «تاريخ مكة»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الدعوات»، وابن عساكر عن بريدة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا أَهْبَطَ اللهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِلى الأَرْضِ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعاً وَصَلَّى خَلْفَ المَقَامِ رَكْعَتَينِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ سِرِّيَ وَعَلانِيَتِي فَاقْبَلْ مَعْذِرَتِيْ، وَتَعْلَمُ حَاجَتِيْ فَأَعْطِنِيْ سُؤْلِيْ، وَتَعْلَمُ مَا عِنْدِيْ ـ وفي رواية: وَمَا فِيْ نَفْسِيْ ـ فَاغْفِرْ لِيْ ذُنُوْبِيْ، أَسْأَلُكَ إِيمَاناً يُبَاشِرُ قَلْبِيْ، وَيَقِيْناً صَادِقاً حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُنِيْ إِلاَّ مَا كَتَبْتَ لِيْ، وَرِضاً بِقَضَائِكَ؛ فَأَوْحَىْ اللهُ تَعَالىْ إِلَيْهِ: يَا آدَمُ! إِنَّهُ قَدْ دَعَوْتَنِيْ بِدُعَاءٍ اسْتَجَبْتُ لَكَ فِيْهِ، وَغَفَرْتُ ذُنُوْبَكَ، وَفَرَّجْتُ هُمُوْمَكَ وَغُمُوْمَكَ، وَلَنْ يَدْعُوَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ ذُرِّيَتِكَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلاَّ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِ، وَنَزَعْتُ فَقْرَهُ مِنْ بَينِ عَيْنَيْهِ، وَاتَّجَرْتُ لَهُ وَرَاءَ كُلِّ تَاجِرٍ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَإِنْ

لَمْ يُرِدْهَا»[1].

فانظر توبة آدم عليه السلام واستغفاره واعتذاره كيف كانت سبباً لبقائه في دنياه ممتَّعاً بما أوتيه فيها، منعَّماً بطاعة ربه حتى لحق به، سالماً من العجب، فالذنب الذي آخره توبة وندم وإقلاع واستغفار واعتذار خير من العبادة المقرونة بإعجاب وإدلال واعتزاز.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعُجْبَ الْعُجْبَ». رواه البيهقي في «الشعب» عن أنس رضي الله تعالى عنه[2].

وأخرجه الديلمي بنحوه من حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه[3].

---

(1) رواه الأزرقي في «تاريخ مكة» (1/ 349)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (1/ 170).
ورواه والطبراني في «المعجم الأوسط» (5974) عن عائشة رضي الله عنها.

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (7255). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (10/ 269): رواه البزار وإسناده حسن. وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (2/ 966): رواه البزار، وابن حبان في «الضعفاء»، والبيهقي، وفيه سلام بن أبي الصهباء؛ قال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: حسن الحديث.

(3) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (2/ 966) رواه الديلمي بسند ضعيف جداً.

ومتى علم العبد أنه وإن جاء بكل طاعة فلا يقوم بما يستحقه الله عليه، وأن ما قدر عليه من ذلك لا حول له فيه ولا قوة إلا بالله تعالى تخلَّص من العجب، وسلم منه؛ لأنه حينئذ ينكسر بالتقصير، ويلزم الذلة والافتقار، وبذلك سعادته وفلاحه، وخيره ونجاحه.

وروى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد في «الزهد» عن طَلْق بن حبيب رضي الله عنه أنه كان يقول: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإنَّ نِعَم الله أكثر من أن يحصيها العدد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين، وفي لفظ: توابين[1].

[من المتقارب]

عَلى بابِ عِزِّك يا رَبِّ قُمْنا ... بِذُلٍّ وَعَجْزٍ لَنا وَافْتِقارِ

فَلا زالَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِنا ... لِنَسْلَمَ مِنْ خالَةٍ وَاغْتِرارِ

فَنَلْقاكَ يا رَبَّنا في حُبورٍ ... مُجارَيْنَ مِنْكَ بِأَحْمى جِوارِ

دِيارُ الرِّضى حَبَّذا مِنْ دِيارٍ ... وَأَنْتَ لَنا الْجارُ يا خَيْرَ جارِ

مَنَنْتَ ابْتِداءً بِخَلْقٍ وَرِزْقٍ ... فَأَتْمِمْ لَنا خَيْرَ دارِ القَرارِ

وللتوبة فَوائِدُ:

*** إِحْداها:**

أن العبد ينالُ بها كمال العبودية.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٥٨).

* **الثَّانِيَةُ:**

أنه ينال بها محبة الله تعالى للآية المتقدمة.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد، وأبو يعلى بسند ضعيف، عن علي رضي الله تعالى عنه: أنَّه قال: [قال رسول الله ﷺ]: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ العبدَ المؤمنَ المُفتَّنَ التَّوَّابَ»[1].

وروى أبو نعيم عن بكر بن عبدالله المزني رحمه الله تعالى: أنَّ قصَّاباً أُولِعَ بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها إلى حاجةٍ لهم في قريةٍ أخرى، فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل؛ لأنا أشدُّ حباً لك منك لي، ولكني أخاف الله عز وجل.

قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخاف؟ فرجع تائباً، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه، فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل، فسأله قال: ما لك؟

قال: العطش.

قال: تعال ندعو حتى تُظلنا سحابة حتى ندخل القرية.

قال: مالي من عمل فأدعو.

قال: أنا أدعو، وأَمِّن أنت.

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (١/ ٨٠)، وأبو يعلى في «المسند» (٤٨٣). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٨٣).

قال: فدعا الرسول وأمَّن هو، فأظلَّتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه، ومالت السحابة معه، فقال له: زعمت أنَّه ليس لك عمل وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمَّنت، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك؛ لتخبرني بأمرك.

فأخبره، فقال: إنَّ التائب من الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه[1].

* الفائِدَةُ الثَّالِثَةُ:

أن التائب ينال بالتوبة رضا الله المعبَّر عنه بالفرح فيما رواه الشيخان عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوْبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىْ رَاحِلَتِهِ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىْ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِيْ ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِيْ وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[2].

وتقدم الحديث من طريق آخر.

* الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ:

أنه ينال المغفرة ومحو الذنوب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

وقال ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ»[1].

وروى الترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححاه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِيْ قَلْبِـهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ مِنْهَا، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتىَّ يَغْلِفَ بِهَا الْقَلْبُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِيْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالى فِي كِتَابِـهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]»[2].

وروى أبو أحمد الحاكم في «المواعظ» عن الحسن: أنَّه كان يقول: يا ابن آدم! لا تتمنى المغفرة بغير التوبة، ولا الثواب بغير العمل، ولا تغتر بالله؛ فإن الغرة بالله أن تتمادى في سخطه وتترك العمل فيما يرضيه، وتتمنى عليه مع ذلك مغفرته، فتغرك الأماني حتى يحل بك أمره؛ أما سمعته يقول: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[الحديد: ١٤]؟

يا ابن آدم! اعلم أنَّ مغفرة الله لمن أطاعه واجتنب سخطه، وتاب إليه من الخطايا، أما سمعته يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه: ٨٢]؟ اهتدى والله للسبيل الأقوم، واتَّبع آثار المسلمين،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٣٤) وصححه، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٥١)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٦).

وسلك سبيل الصالحين.

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «التوبة» عن أبي هريرة قال: بينما المسيح عليه السلام في رهط من الحواريين عند نهر جار وحمئة منتنة، أقبل طائر حسن اللون يتلون كما هو الذهب، فوقع قريباً فانتفض، فسلخ عنه مسكه، فإذا هو أقبح شيء حتى سلخ عنه مسكه أقيرع أحيبش، فانطلق يدب إلى الحمئة المنتنة، فتمعَّك فيها وتلطَّخ بنتنها، فازداد قبوحاً إلى قبوحه ونتناً إلى نتنه، ثمَّ انطلق يدب حتى أتى إلى نهر إلى جنبه ضَحْضَاح صافٍ، فاغتسل فيه حتى رجع كأنَّه بيضة مقشَّرة، ثمَّ انطلق يَدبُ إلى مسكه فتدرعه كما كان أول مرَّة.

قال: فكذلك مثل عامل الخطيئة حتى يكون في الخطايا، وكذلك مثل التوبة كمثل اغتساله من النتن في النهر الضحضاح، ثم راجع دينه حتَّى تدرع مسكه[1].

وروى أبو نعيم عن عكرمة رحمه الله تعالى قال: إنَّ الشيطان ليُزين للعبد الذنب حتى يكسبه، فإذا كسبه تبرَّأ منه، فلا يزال العبد يبكي ويتضرع إلى ربِّه ويستكين حتى يُغفر له ذلك الذنب وما قبله، فيندم الشيطان على ذلك الذنب حيث أكسبه إيَّاه فغفر له الذنب وما قبله[2].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٣١)، وكذا ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٤٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٣٥).

* **الفائِدَةُ الْخامِسَةُ:**

أنه ينال بالتوبة الرحمة؛ لأنَّ التوبة إحسان، ورحمة الله قريب من المحسنين.

وروى الأصبهاني في «الترغيب» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّادِمُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةَ وَالمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ المَقْتَ.

وَاعْلَمُوا عِبادَ اللهِ! أَنَّ كُلَّ عامِلٍ سَيَقْدُمُ على عَمَلِهِ، وَلا يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيا حَتَّى يُرى حُسْنَ عَمَلِهِ وَسُوءَ عَمَلِهِ، وَإِنَّما الأَعْمالُ بِخَواتِيمِها، وَاللَّيْلُ وَالنَّهارُ مَطِيَّتانِ؛ فَأَحْسِنُوا السَّيْرَ عَلَيْهِما إِلَى الآخِرَةِ، وَاحْذَرُوا التَّسْوِيفَ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً، وَلا يَغْتَرَّنَّ أَحَدُكُمْ بِحِلْمِ اللهِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧ ـ ٨]»[1].

* **الفائِدَةُ السَّادِسَةُ:**

أنه ينال ما رواه ابن عساكر، والأصبهاني في «الترغيب» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَابَ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوْبِهِ

---

(١) ورواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٣٠) وقال: وهذا بهذا الإسناد منكر.

وروى صدر الحديث الثعلبي في «التفسير» (١٠/ ١٥٩)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٥٢٠).

أَنْسَى اللهُ حَفَظَتَهُ ذُنُوْبَهُ، وَأَنْسَىْ ذَلِكَ جَوَارِحَهُ وَمَعَامِلَهُ مِنَ الأَرْضِ حَتَّى يَلْقَىْ اللهَ تَعَالى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ بِذَنْبٍ».

وروى ابن أبي الدنيا في «التوبة» عن يزيد الرقاشي رحمه الله تعالى قال: بلغني أنَّ من بكى على ذنب من ذنوبه نسي حافظاه ذلك الذنب[1].

وعن الخليل بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: بلغني أنَّ الله تعالى إذا رَضيَ عن العبد أنسى الحفظةَ ذنوبه، وأمر جوارحه والأرض فقال: اكتمْنَ عن عبدي.

قال: وبلغني أنَّه ما سبب لعبد خير إلا وهو يريد أن يتقبله، ولا نزع بعبد عن ذنب إلا وهو يريد أن يغفر له[2].

*** الفائِدَةُ السَّابِعَةُ:**

أنَّه ينال العزَّ بعد الذل، ولا ذل أشد من ذل المعصية، ولا عز أعظم من عز الطاعة، ولذلك كان عامَّة دعاء إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك. رواه ابن أبي الدنيا[3].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٢).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٣٦).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٥٥).

والتوبة من الإيمان فهي سبب للعز كما أنَّ المعصية سبب للذل.

وروى ابن أبي الدنيا عن المعتمر بن سليمان رحمه الله تعالى، عن أبيه قال: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مَذلَّته[١].

وروى أبو نعيم عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله تعالى، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله تعالى[٢].

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال: والله لئن تدقدقت بهم الهماليج، ووطئ الرجال أعقابهم؛ إنَّ ذل المعصية في قلوبهم، ولقد أبى الله أن يعصيضه عبدٌ إلا أذلَّه[٣].

*** الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ:**

إنَّ التائب ينور قلبه، ويقوي جسده لأنَّها طاعة، وهذا حكمها.

قال الله تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود: ٥٢].

وروى ابن أبي الدنيا في «التوبة» عن الحسن قال: إنَّ الرجل ليعمل الحسنة فتكون نوراً في قلبه، وقوةً في بدنه، وإنَّ الرجل ليعمل

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٨).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٤).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٩).

السيئة فتكون ظلمة في قلبه، ووهَناً في بدنه[1].

ورواه أبو نعيم عن الحسن، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَجَدْتُ الحَسَنَةَ نُوْراً في الْقَلْبِ، وَزَيْناً في الْوَجْهِ، وَقُوَّةً في الْعَمَلِ، وَوَجَدْتُ الخَطِيْئَةَ سَوَاداً فيْ الْقَلْبِ، وَشَيْناً في الْوَجْهِ، وَوَهَناً في الْعَمَلِ»[2].

وقلت ملمحاً بالحديث: [من الرمل]

أَطِعِ اللهَ وَإِنْ تَعْصِي فَتُبْ ... إِنَّ بِالتَّوْبَةِ يُمْحَى كُلُّ رَيْنْ

طاعَةُ اللهِ تُرى فِي عَمَلٍ ... نُورُ قَلْبٍ وَلِوَجْهِ العَبْدِ زَيْنْ

وَمعاصِي اللهِ وَهْنٌ وَسَوا ... دٌ لِقَلْبٍ وَهْيِ فِي الأَوْجُهِ شَيْنْ

هَكَذا نَرْوِيهِ عَنْ خَيْرِ الوَرَى ... أَحْمَدَ الْمَبْعُوثِ يَدْعُو الأُمَّتَيْنْ

فَعَلَيْهِ صَلواتٌ دائِماً ... مَا اهْتَدَى النَّاسُ بِنُورِ النَّيِّرَيْنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٩٠).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٦١) وقال: غريب.

قلت: ولا يرد على ذلك ما نشاهده من الظلمة وشدة بأسهم؛ فإنَّ المراد أنَّ بدن التائب والطائع يقوى بطاعةِ لله تعالى أخرى؛ لقوله ﷺ: «وَقُوَّةً في الْعَمَلِ»؛ يعني: الصالح لأنَّه المراد عند الإطلاق غالباً، والعاصي المصر يهين بدنه عن الطاعات.

وأمَّا قوة بدنه في شهواته وأغراضه فإنَّ الوهن خير له منها لأنَّها ابتلاء واستدراج.

وكذلك القول في حديث علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اتَّقَىْ اللهَ عَاشَ قَوِيَّاً وَسَارَ في بِلاَدِهِ آمِناً». رواه أبو نعيم[1].

وروى ابن أبي الدنيا في «التوبة» عن علي رضي الله تعالى عنه قال: جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والنغص في اللذة.

قيل: وما النغص في اللذة؟

قال: لا ينال شهوة حلالاً إلا جاءه ما ينغصه إياها[2].

وقال: حدثني أحمد بن الحارث بن المبارك عن شيخ من قريش قال: كتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: أما بعد! فإنَّ العصمة ثمرة التوبة، والله ولي عصمتك، فإيَّاه فاحمد عليها يزدك من طاعته،

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٧٥).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٣٥).

وإياك والعُجْب؛ فإنه أخوف ما أخاف عليك، والمعجب كالممتنِّ على الله تعالى، فالله أولى بالمنَّة فيه[1].

وأمَّا سواد القلب وظلمته، وشين الوجه وتشوهه بسبب المعصية فذلك مما لا يشهده من الناس في وجوه أهل المعصية إلا الخواصُّ من المؤمنين الذين ينظرون بنور الله تعالى، ووظيفة عوام المسلمين في ذلك التصديق بما جاء في الحديث مما يدل عليه والإيمان به؛ فإنَّ الإيمان به يجلو بصر العبد وبصيرته حتى يرى ذلك عياناً.

وأما الزين والنضرة في وجوه أهل الطاعة؛ فإنَّ عوام الناس يشاهدون ذلك غالباً إمَّا زيادة في إيمانهم بحال ذلك الطائع، وإمَّا ليؤيد ذلك الطائع عندهم ويُصان عن ابتذالهم.

وزين وجوه أهل الطاعة أكثر ما يخفى على الحاسدين.

ومن هنا يرى الناس العالم العامل مَهيباً كاملاً يتبركون به، ويأخذون عنه، ويراه قِرْنه في العلم نازلاً عن ذلك، وليس على العلماء شيء أشد ضرراً من الحسد ورؤية الكمال لأنفسهم، والنقص لغيرهم.

*** الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ:**

رقة قلب التائب، وحياؤه وتوقعه لرحمة الله تعالى، وقبول التوبة منه.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٤٦).

روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: جالسوا التوابين؛ فإنهم أرق شيءٍ أفئدة[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن عون بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: داروا الذنوب بالتوبة، ولرُبَّ تائب دعته التوبة إلى الجنة حتى أوفدته عليها.

وقال: قلب المؤمن التائب بمنزلة الزجاجة يُؤثِّر فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة وهم إلى الرقة أقرب.

وقال: جالسوا التوابين؛ فإنَّ الرحمة إلى قلوبهم أقرب[2].

قلت: وقد يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦]؛ فإنَّ التائب محسن.

وروى ابن أبي الدنيا عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى قال: الذنب على الذنب يميت القلب[3].

وقال ابن المبارك رحمه الله تعالى كما رواه ابن أبي الدنيا: [من المتقارب]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٢٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٦٥)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٣٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٥).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٥٦).

رُكوبُ الذُّنوبِ يُمِيتُ القُلُوبَ ... وَيُوْرِثُهَا الذُّلَّ إدْمانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنوبِ حَياةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيانُها[1]

وروى ابن أبي الدنيا عن عقبة بن الوليد، عن مسروق بن سفيان قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: إنَّ أول من مات إبليس، وذلك أنَّه أول من عصاني، وإنَّما أعد من عصاني من الموتى[2].

قلت: وأول من حيي بالتوبة آدم عليه السلام.

*** الفائِدَةُ العاشِرَةُ:**

إنَّ التائب يأمن بتوبته من شر النوائب، ويعطِفُ الله عليه قلوبَ الملوك والجبابرة.

روى ابن أبي الدنيا، والأصبهاني عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: قرأت في الحكمة: إنَّ الله تعالى يقول: أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي؛ فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم[3].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٤٢).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٠١)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٧٢).

﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ [يونس: ٩٨].

روى المفسرون؛ ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أنَّ قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم؛ أي: حين دعاهم إلى الإيمان فلم يجيبوه، وتوعَّدهم بالعذاب بعد ثلاث، وذهب عنهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، فلبسوا المُسوح، وأخرجوا المواشي، وفرَّقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجُّوا إلى الله أربعين صباحاً، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تدلَّى عليهم حتى لم يكن بينهم وبينه ميل[١].

وروى ابن أبي حاتم عن علي ﷺ قال: تيبَ على قوم يونس يوم عاشوراء[٢].

* **الفائِدَةُ الْحادِيَةَ عَشْرَةَ:**

التوسعة في الرزق، وحسن المعيشة.

قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ١ ـ ٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١١/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٩٨٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٩٨٨).

قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ يعني: في الدنيا بتوسعة الرزق، ونعمته من غير تكدير ولا سوء، بخلاف المصرين الذين لم يستغفروا، ولم يتوبوا إليه؛ فإنهم ـ وإن مُتِّعُوا في الدنيا ـ فإنَّ متاعهم مكدَّر حالاً أو مآلاً؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ١٢٦]؟

وفي الحديث: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ الاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ»[(١)].

وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[نوح: ١٠ ـ ١٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[هود: ٣]؛ يعني: الموت.

وهذه غاية تدل على أن المتقلِّب في الدنيا بين التوبة والاستغفار لا ينكب في دنياه ونعمته حتى يستوفي أجله؛ وإن حصل له في أثناء ذلك محنة فإنما هي لتمام التقصير، أو للترقية في المقام لقوله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً يُصِبْ مِنْهُ»[(٢)].

وفي الآية دليل على أن حفظ النعمة على العبد ـ خصوصاً عند موته ـ صالحة عظيمة، ولذلك جعلها الله تعالى ثواباً للعبد على التوبة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٣٢١) عن أبي هريرة ﷺ.

والاستغفار، ولما كان أكثر أصحاب الأموال يغفلون في نعمهم ونعيمها ورغدها عن الله تعالى وعن طاعته، وينهمكون في معاصيه لو لم يكن إلا منع الزكوات والحقوق كان من عقاب أكثرهم ابتلاؤهم بالفقر والحاجة خصوصاً عند الموت، وفي أواخر العمر عند الهرم والضعف، فأعظم نعمة في الدنيا سبوغ النعمة في أواخر العمر، ولذلك رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي وَانْقِطَاعِ عُمُرِيْ». رواه الحاكم وصححه، من حديث عائشة رضي الله عنها[1].

ولا يتنعم العبد بسعة رزقه إلا إذا قنع به ولم تتشوف نفسه إلى الزيادة؛ فإنه متى لم يقنع وتشوَّف إلى الزيادة انفتح عليه باب الطمع، فلا يتلذذ بما هو فيه، بل يتعذب بالتطلع إلى غيره، ومن هنا كانت القناعة كنزاً لا يَفنى، وكان القنع غنى.

وروى الأصبهاني في «الترغيب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهُمَّ قَنِّعْنِيْ بما رَزَقْتَنِيْ، وَبَارِكْ لِيْ فِيْهِ، وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ غَائِبَةٍ بخَيرٍ»[2].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٩٨٧)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٦١١). وحسن الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٢). ورواه البيهقي في «الدعوات الكبير» (١/ ١٧٤) وقال: عيسى بن ميمون منكر الحديث.

(٢) ورواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٧٨).

واعلم أنَّ العبد ما دام في نعمته ناظراً إلى أنها من الله تعالى بمحض الفضل ليس له فيها حول ولا قوة مستعيذاً بالله أن يَكِلَه بها إلى نفسه كان في أمْنٍ من زوالها.

وعندي أن الأحسن أن يكون هاء الضمير في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣] عائداً إلى ربكم في الآية؛ فإنَّ الثواب في نفسه فضل من الله تعالى.

وإن أعدنا الضمير على كل أو ذي كان المعنى ثواب فضله، والعبد إنَّما وصفه الله تعالى بذي فضل كرماً منه وفضلاً، وإلا فإنَّ ذلك الفضل الذي جاء به العبد من فضل الله وتوفيقه.

ويرجع معنى الآية على الوجه الأول إلى معنى قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[الرحمن: ٦٠]، فالعبد فيما تفضَّل الله به عليه من النعم يحتاج إلى دوام فضل الله فيه، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهُمَّ لاَ تَكِلْنِيْ إِلىْ نَفْسِيْ طَرْفَةَ عَينٍ، وَلاَ تَنْزِعْ مِنِّيْ صَالِحَ مَا آتَيْتَنِيْ». رواه البزار من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[1].

وروى مسلم، وأبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهُمَّ إِنِيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفَجْأَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيْعِ سَخَطِكَ»[2].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨١): رواه البزار، وفيه إبراهيم ابن يزيد الخوزي، وهو متروك.

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٩)، وأبو داود (١٥٤٥).

وروى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهُمَّ ارْزُقْنَا مِنْ فَضْلِكَ، وَلاَ تَحْرِمْنَا رِزْقَكَ، وَبَارِكْ لَنَا فِيْمَا رَزَقْتَنَا، وَاجْعَلْ غِنَانَا فِيْ أَنْفُسِنَا، وَاجْعَلْ رَغْبَتَنَا فِيْمَا عِنْدَكَ»[1].

وقال أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣]؛ يعني: في الآخرة[2].

وعندي: أنه أعم من ذلك في الدنيا وفي الآخرة؛ فإن الله تعالى قد يثيبُ على الفضل، والمراد به الطاعة في الدنيا بأن يوسع رزقه عليه، ويدفع عنه الآفات والبلايا، وتوفيقه إلى طاعة أخرى، ويُصلح له أهله وولده ورفيقه ودابته إلى غير ذلك، وذلك كله من فوائد التوبة والاستغفار المأمول بهما في الآية الكريمة، فافهم.

* **الفائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ:**

أنَّ التوبة ترقِّع ما خرَّقته الذنوب من الأستار.

روى ابن أبي الدنيا عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول الله ﷺ سُئِل: كم للمؤمن من ستر؟

قال: «هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىْ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا عَمِلَ خَطِيْئَةً هَتَكَ مِنْهَا سِتْراً، فَإِذَا تَابَ رَجَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ السِّتْرُ وَتِسْعَةٌ مَعَهُ، وَإِذَا لَمْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٦٦).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٩٩).

يَتُبْ هُتِكَ مِنْهَا سِتْرَاً وَاحِدَاً حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَنْ شَاءَ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ: إِنَّ بَنِي آدَمَ يُعيرُوْنَ وَلاَ يُغيرُوْنَ، فَحُفُّوْهُ بِأَجْنِحَتِكُمْ، فَيَفْعَلُوْنَ بِهِ ذَلِكَ، فَإِنْ تَابَ رَجَعَتْ إِلَيْهِ تِلْكَ الأَسْتَارُ كُلُّهَا، وَإِذَا لَمْ يَتُبْ عَجِبَتْ مِنْهُ الملائِكَةُ، فَيَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى: أَسْلِمُوْهُ، فَيُسْلِمُوْنَهُ حَتَّى لاَ يُسْتَرُ مِنْهُ عَوْرَةٌ»[1].

وسبق حديث جُبير بن نُفير في معناه في التشبه بالملائكة عليهم السلام.

وكان ابن السماك يتمثل كما رواه ابن أبي الدنيا: [من السريع]

يا مُذْنِبَ الذَّنْبِ أَما تَسْتَحِي ... وَاللهُ فِي الْخَلْوَةِ ثانِيكا

غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهالُهُ ... وَسَتْرُهُ طُولَ مَساوِيكا[2]

وروى ابن جهضم عن أحمد بن الفتح قال: قال لي بشر - يعني: الحافي - رحمه الله تعالى: يا أحمد! إن قوماً غرَّهم ستر الله، وفتنهم حسن ثناء الناس عليهم، فلا يغلبنَّ جهل غيرك لك على علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك من الاغترار بالستر والاتكال على حسن الذكر[3].

*** فائِدَةٌ:**

قال سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: الناس يعملون أعمالهم

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٠).

(٣) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٢١٢).

من تحت كَنَف الله، فإذا أراد الله تعالى بعبد فضيحة أخرجه من تحت كنفه، فبدت منه عورته[1].

وقال أبو إدريس الخولاني رحمه الله تعالى: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَهْتِكُ اللهُ عَبْدَاً وَفِيْهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»[2]. رواهما ابن أبي الدنيا في «التوبة»، والثاني حديث مرسل.

ورواه ابن أبي شيبة، وأبو نعيم من قول أبي إدريس، ولفظه: لا يَهتكُ اللهُ سِتر عبدٍ وفِيهِ مِثقَال حَبَّةٍ مِن خَير[3].

وفي معناه ما رواه البيهقي في «سننه» عن أنس رضي الله عنه قال: أُتِي عمر بن الخطاب بسارق، فقال: والله ما سرقت قط قبلها.

فقال له عمر: كذبت وربِّ عمر؛ ما أخذ الله عبداً عند أول ذنب، فَقَطَعَهُ[4].

قال ابن حجر في «أطرافه»: رواه ابن وهب في جامعه، وهو موقوف حكمه حكم الرفع، كتبته لصحة سنده.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٧٩)، وكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢١٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٥٦٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٢٤).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٠٥٤). قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ٢٢٤): إسناده قوي.

وروي معناه عن ابن شهاب، عن أبي بكر، وهو منقطع.

وروى ابن جهضم عن معروف الكرخي رحمه الله تعالى قال: يقول الله تعالى في بعض الكتب: ابن آدم! ما أجسرك! تسألني فأمنعك لعلمي بما يصلحك، ثم تلح عليَّ في المسألة، فأجود برحمتي وكرمي عليك، فأعطيك ما سألتني، فتستعين بما أعطيك على معصيتي، فأهم بهتك سترك، فتسألني فأستر عليك، ثم تعاود المعصية فأستر عليك، فكم من جميل أصنعه بك، وكم من قبيح تعمله معي، يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبداً.

وقال ابن مفلح الحنبلي في «آدابه»: هل يفضح الله عاصياً بأول مرَّة أم بعد التكرار؟

قولان للعلماء.

والثاني: مروي عن عمر، وغيره من الصحابة.

واختار ابن عقيل في «الفنون» الأول، واعترض على من قال بالثاني: ترى آدم عليه السلام كان عصى قبل أكل الشجرة بماذا؟ فسكت، انتهى[1].

وهذا الاعتراض غير وارد؛ لأنَّ معصية آدم كانت من باب اللَّمم والزلة، لا على سبيل القصد لمخالفة أمر الله تعالى، فلم يكن ذنباً يقتضي العقوبة والفضيحة.

---

(١) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٦٤).

وأيضاً فإنَّ إهباط آدم عليه السلام من الجنة لم يكن من باب رفع الستر عنه والعقوبة له، بل من باب التأديب والتكميل، ومثل ذلك إذا كان في أول مرة من الذنب كان أمنع للعبد من الذنب، وأنفع له من الانتهاك، وعادة الله تعالى كثيراً ما تجري بالستر مراراً على العاصي الذي يراد إمهاله، ثم أَخْذُه آخِراً لإقامة الحجة عليه والإعذار فيه كما أمهل الله تعالى فرعون وغيرَه، ثم أخذهم، أو على الذي جرى عليه في القضاء والقدر أمور من المعاصي لا بد له من استيفائها، ثم يعود الله عليه بالتوبة، أو يُجْرِي عليه العقوبة في الذنب تمحيصاً وتكفيراً كما في قصة السارق الذي قطعه عمر رضي الله تعالى عنه.

* **فائِدَةٌ أُخْرَى:**

من أراد أن يستر الله تعالى عليه فليستتر إذا ابتلي بالمعصية، وليستر على أخيه المؤمن ما عسى أن يطلع عليه من عورته؛ فإنَّ ذلك من مقتضيات الستر من الله، كما أنَّ الامتهان بالذنب، وفضيحة المسلمين من مقتضيات فضيحة العبد العاصي.

روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم: أنَّ رجلاً اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله ﷺ، فدعا له رسول الله ﷺ بسوط؛ وذكر الحديث، وفيه: ثم قال: «أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَنْتَهُوْا عَنْ حُدُوْدِ اللهِ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ القَاذُوْرَاتِ شَيْئاً فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَبْدَىْ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ»[1].

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١٥٠٨).

وروى الحاكم وصححه، والبيهقي في «السنن» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «اجْتَنِبُوْا هَذِهِ القَاذُوْرَاتِ الَّتِيْ نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا، فَمَنْ أَلَمَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ وَلْيَتُبْ إِلى اللهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ»[1].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن العلاء بن بدر قال: لا يُعذِّبُ الله قوماً وهم يستترون بالذنوب[2].

وروى مسلم، وأبو داود، والترمذي ـ واللفظ له ـ والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً في الدُّنْيَا سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِيْ عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِيْ عَوْنِ أَخِيْهِ»[3].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود عن أبي برزة رضي الله تعالى عنه: أَنَّ النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٦١٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٣٠). قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٥٧): صححه ابن السكن، وذكره الدارقطني في «العلل»، وقال: روي عن عبدالله بن دينار مسنداً ومرسلاً، والمرسل أشبه.

(٢) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٥/ ٣٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

قَلْبَهُ! لاَ تَغْتَابُوْا المُسْلِمِيْنَ، وَلاَ تَتَّبِعُوْا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيْهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»[1].

* **الفائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ:**

من فوائد التوبة أنَّ حملة العرش والطائفين به ـ وهم الكروبيون عليهم السلام ـ يدعون للتائبين، ويستغفرون لهم.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[غافر: ٧ ـ ٩].

* **الفائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ:**

أنَّ التائب يُبدل الله سيئاته حسنات.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾[الفرقان: ٧٠].

وهل هذا التبديل في الدنيا أو في الآخرة؟

قولان.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود (٤٨٨٠).

قال بالأول: قتادة، والحسن.

وبالثاني: مكحول، وعلي بن الحسن. روى ذلك عنهم عبد بن حميد[1].

والثاني أوفق للحديث الصحيح، ولا مانع أن يحصل التبديل لبعض الناس في الدنيا، وفي الآخرة جميعاً.

وروى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوْا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوْبِهِ، فَيُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُهَا وَيُنَحَّى كِبَارُهَا، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ يُقِرُّ لَيْسَ يُنْكِرُ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكِبَارِ أَنْ تَجِيْءَ، فَيُقَالُ: أَعْطُوْهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ عَمِلَهَا حَسَنَةً، فَيَقُوْلُ: إِنَّ لِيْ ذُنُوْباً لاَ أَرَاهَا هُنَا».

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[2].

يعني: تعجباً من إشفاق هذا أولاً من كبار ذنوبه أن تذكر له، ثم صار بعد ذلك يذكرها طمعاً في تبديلها حسنات كالصغائر.

وقد يُفهم من الحديث أن الكبائر لا تُبدَّل حسنات.

والآية تدل على أنها تُبدل لأنها جاءت بعد ذكر عظائم السيئات

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٢٨٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٧)، ومسلم (١٩٠)، والترمذي (٢٥٩٦).

من الشرك، والقتل، والزنا.

والألف واللام في (الرجل) في الحديث للعهد؛ أي: للرجل المؤمن التائب العامل الصالحات، وهو المعهود في الآية الكريمة.

وروى عبد بن حميد، وابن المنذر عن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى قال: إنَّ المؤمن يُعطى كتابه في ستر من الله فيقرأ سيئاته، فإذا رآها تغيَّر لها لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها، فيرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بُدِّلت حسنات، فعند ذلك يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[الحاقة: ١٩][1].

وروى البزار، والطبراني ـ واللفظ له ـ قال المنذري: وإسناده جيد قوي ـ قلت: وله شواهد ـ عن أبي طَويل شَطَبٍ الممدودِ رضي الله تعالى عنه: أنَّه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجَّة إلا أتاها، فهل له من توبة؟

قال: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟».

قال: أمَّا أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله.

قال: «تَفْعَلُ الخيرَاتِ وَتَتْرُكَ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خيرَاتٍ كُلَّهُنَّ».

قال: وغدراتي، وفجراتي؟

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٢٨٠).

قال: «نَعَمْ».

قال: الله أكبر، فما زال يُكبر حتى توارى[1].

وشطب ـ بالفتح ـ قد ذكره غير واحد في الصحابة، إلاَّ أن البغوي ذكر في «معجمه»: أن الصواب عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ـ مُرسلاً ـ: أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ شطباً، فقال الحديث.

والشطب في اللغة: الممدود، فصحفه بعض الرواة، فظنه اسم رجل[2].

وقوله: لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها؛ فالداجة فيه من الدَّج، وهو الإسراع والدبيب في السير.

قال ابن السكيت: ولا يقال: يدجون حتى يكونوا جماعة، ولا يقال ذلك للواحد، وهم الداجة، والدج.

قال: الداج، والداج: الأعوان والمُكَارون[3].

وفي الحديث: «هَؤُلاءِ الداجُّ، وَلَيْسُوا بِالْحاجِّ»، [وأمَّا الحديث: «ما تركتُ من حاجَةٍ ولا داجَةٍ إلا أَتيْتُ»][4] فكان حق الداجة في الحديث

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٣٥).

(٢) انظر: «الترغيب والترهيب» للمنذري (٤ / ٥٥)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٣/ ٣٤٩).

(٣) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ٤١٤).

(٤) ما بين معكوفتين زيادة من «الصحاح».

أن يكون مشدداً إلا أنه خُفِّف إتباعاً لحاجة، كما ذكره الجوهري في «الصحاح»[1].

وقال في «القاموس» في مادة: دوج: داج دوجاً: خدم، والداجة: تباع العسكر، وما صغُر من الحوائج، واتباع للحاجة، انتهى[2].

ومعنى الحديث أنه لم يترك كثيراً ولا قليلاً، ولا كبيراً ولا صغيراً إلا عمله، وتلبَّس به.

والحديث دال على أنَّ التبديل يقع في كبائر الذنوب وصغائرها؛ ألا ترى إلى قوله: «فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خيرَاتٍ كُلَّهُنَّ».

*** الفائِدَةُ الْخامِسَةَ عَشْرَةَ:**

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

والفلاح: دخول الجنة.

وروى ابن أبي الدنيا، وأبو يعلى، والطبراني بإسناد جيد، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ: سَبْعَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَبَابٌ مَفْتُوحٌ لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِـهَا مِنْ نَحْوِهِ»[3]؛ أي: من جهة ذلك الباب.

---

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ٣١٣) (مادة: دجج).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٢٤٢) (مادة: دجج).

(٣) رواه أبو يعلى في «المسند» (٥٠١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» =

وروى العسكري في «المواعظ» عن الحسن ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ».

قالوا: يا نبي الله! كيف يدخله الجنة؟

قال: «يَكُوْنُ نُصْبَ عَينيه تَائِبَاً مِنْهُ مُسْتَغْفِراً حَتىَّ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»[1].

في الحديث أنَّ دخول الجنة سبب التوبة، والتوبة إنما تكون من بعد الذنب.

وفي المثل: لا توبة إلا من بعد معصية، فهو سببها.

والذنب يتسبب عنه أمران:

التوبة: وهي من أبواب السعادة.

والإصرار: وهو من أبواب الشقاوة.

والتوبة طريق آدم عليه السلام، والإصرار طريق الشيطان.

ومما يناسب ما تقرَّر أن الذنب قد يكون سبباً لدخول الجنة، وللسعادة والخير: ما رواه أبو نعيم عن سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى أنَّه قال: لا يذنب المؤمن ذنباً حتى يكتسب معه خمسين حسنة.

فقيل له: يا أبا محمد! وكيف هذا؟

= (١٠٤٧٩). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٤٥): رواه أبو يعلى والطبراني بإسناد جيد.

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥٢).

قال: نعم يا دوست! إنَّ المؤمن لا يكتسب سيئة إلا وهو يخاف العقوبة عليها، ولو لم يكن هكذا لم يكن مؤمناً.

قال: وخوف العقاب عليها حسنة، ويرجو غفران الله لها، ورجاؤه لغفرانه حسنة، وهو يرى التوبة منها، ولو لم يرها لم يكن مؤمناً، ورؤية التوبة منها حسنة، ويكره الدلالة عليها، ولو لم يكره الدلالة عليها لم يكن مؤمناً، وكراهية الدلالة عليها حسنة.

ـ كأنَّه أراد بالدلالة اطلاع الناس عليه وهو مقيم على الذنب، أو أن يدل عليه وهو كذلك ـ.

قال: ويكره الموت عليها، ولو لم يكره الموت عليها لم يكن مؤمناً، وكراهية الموت عليها حسنة.

وهذه خمس حسنات، وهي بخمسين حسنة؛ الحسنة بعشر أمثالها.

قال: فهذه خمسون حسنة؛ فما ظنُّكم بسيئة يعتورها خمسون حسنة، ويحيط بها، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤]؟

وما ظنكم بثعلب بين خمسين كلباً، أليس يمزقونه؟

ثم بكى سهل، وقال: لا تحدثوا بهذا الجهال من الناس يتكلوا ويغتروا؛ فإنَّ هذه السيئة هي شيء عليه، وحسناته هي أشياء له، وما عليه فلله أن يأخذه به ويكون عادلاً بعقوبته عليه، وما له لا يظلمه الله ﷻ إيَّاه،

بل يوفيه ثوابه ولو بعد حين، ومن يصبر على نار جهنم ساعة واحدة؟

ولكن بادروا بالتوبة من هذه السيئة حتى تأمَنُوا العقوبة عليها، وتصيروا أحبَّاء الله؛ فإنَّ الله يحبُّ التوابين[1].

قلت: وهذه المعرفة التي أُلهمها سهل رضي الله عنه منتزعها من قوله ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ». أخرجه الطبراني في «الكبير» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه[2].

بل أبلغ من ذلك قوله ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِيْ مِن الَّذِيْنَ إِذَا أَحْسَنُوْا اسْتَبْشَرُوْا، وَإِذَا أَسَاؤُوْا اسْتَغْفَرُوْا». رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والبيهقي في «الشعب»[3].

وذلك أنَّ الاستبشار بالحسنة، والاستغفار من المعصية مبنيٌّ على الرجاء من الله تعالى، وهو من نتائج الإيمان به وبقدرته، وجوده وسعة رحمته، بل والاستغفار قد يكون مستخْرَجاً بالخوف من الله تعالى، وهو من نتائج الإيمان، وقد أشار إلى ذلك الحديث المتقدم الذي يقول الله تعالى فيه: «إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْباً فَقَالَ: يَارَبِّ! عَمِلْتُ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٠٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ١٢٩)، وابن ماجه (٣٨٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٩٢) عن عائشة رضي الله عنها. قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٧٠): رواه ابن ماجه، وفيه علي بن زيد ابن جدعان مختلف فيه.

ذَنْبَاً فَاغْفِرْ لِيْ، أَذْنَبَ عَبْدِيْ ذَنْبَاً فَعَلِمَ عَبْدِيْ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ»[1].

وهذا الذي جمعته هنا من فوائد التوبة مما أنعم الله عليَّ به من الاستنباط، ولم أره مجموعاً لغيري، وأرجو من كرم الله تعالى أن لا يحرمني التوبة ولا فوائدها بفضله وكرمه؛ إنَّ الله على كل شيء قدير.

وقلت: [من الرجز]

نـــالَ العُبُودِيَّـــةَ بِالتَّوْبَـــةِ مَـــنْ ... قَدْ تابَ وَحَـبَّ اللهَ وَالغُفْرانـا[2]

وَرَحْمَـــــةَ اللهِ وَإِنَّ اللهَ يُنـــــْـ ... ـــسِي ذَنْبَـهُ الْحُفَّــاظَ وَالْمَكانـا

وَالعِـــزَّ وَالقُـــوَّةَ وَالنُّـــورَ وَأَنْ ... يَـــرِقَّ قَلْبُـــهُ الَّـــذِي اسْـــتَكانا

وَالأَمْنَ مِـنْ نَوائِـبِ الـدَّهْرِ وَأَنْ ... يُوَسَّـــعَ الـــرِّزْقَ لَـــهُ إِحْـــساناً

وَيَرْقَعَ ما خَرَّقَهُ الـذَّنْبُ مِـنَ الـ ... أَسْتارِ حَيْـثُ اكْتَـسَبَ العِـصْيانا

وَأَنَّ أَمْــلاكَ الإِلَــهِ تَــسْأَلُ الــ ... ـلَّهَ لَـهُ غُفْـرانَ مـا قَـدْ كانـا

وَأَنَّ سَـــيِّئاتِهِ يُبْـــدِلُها الـــ ... ـــلَّهُ وَأَنْ يُدْخِلَـــهُ الْجِنانـــا

وَأَنَّ رَبَّ العــالَمِينَ يَمْـنَحُ الــ ... ـتَّائِبَ مِـنْ أَفْـضالِهِ الرِّضْـوانا

فَتُــبْ إِلَيْــهِ إِنَّــهُ الــرَّحْمَنُ مــا ... خابَ الَّذِي [قد] قَصَدَ الرَّحْمانا

واعلم أن التوبة فرض واجب من كل ذنب فعله المكلف، أو

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) كذا في «أ» و«ت».

عزم عليه كبيراً كان أو صغيراً.

وقيل: لا تجب عن الصغائر لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤].

ولحديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ». رواه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي[(١)].

فلو لم يتب عن الصغيرة، بل اجتنبَ الكبائرَ كُفِّرت الصغيرة، فلا يخاطب بعد ذلك بوجوب التوبة قطعاً.

ومهما وجبت التوبة فوجوبها على الفور؛ فإنها كما قال الغزالي: جزء من الإيمان، والإيمان واجب على الفور[(٢)].

وأيضاً فإنَّ ترك التوبة إصرار على الذنب، وقد مدح الله المؤمنين بعدم الإصرار، فقال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٥].

وروى اللالكائي، وغيره عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يُصِرُّوْنَ عَلَىْ مَا فَعَلُوْا

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٠٠)، ومسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٨).

وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ»(1).

وأيضاً فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾[آل عمران: ١٣٣].

وليس للمؤمن طريق إلى المغفرة من حيث كسبه الذي يمكن تكليفه به إلا التوبة، فيجب عليه المسارعة بها.

وأيضاً فإنَّ الله تعالى لما خاطب جميع المؤمنين بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[النور: ٣١] لم يوقِّت التوبة كما وقَّت الصلاة والصَّوم والصدقة، فوجب عليهم أن يُبادروا إلى امتثال أمره بالتوبة عقب كل ذنب لأنَّها طاعة لم توقَّت، وأمكن فعلها في الوقت، فتعيَّن صرفه لها.

قلت: والظاهر أنَّ فورية وجوب التوبة شريعة قديمة من عهد آدم عليه السلام، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٦ ـ ٣٧]؛ أي: فتاب بتلك الكلمات، فتاب الله عليه؛ أتى بالفاء التعقيبية عقب الزلة، فدل على أن آدم عليه السلام بادر بالتوبة.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[طه: ١٢٢] فهذا

---

(1) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١٠٤٨)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٥).

التراخي ـ إن سلم أنَّ ثمَّ للتراخي والترتيب ـ ليس بين توبة آدم وزلته، وإنما هو بين زلته وبين ظهور اجتباء الله له وتوبته عليه؛ فإنَّ آدم لما أُهبط إلى الأرض، وبادر إلى التوبة بكى زماناً طويلاً كما في الأثر حتى أوحى الله إليه بقبول توبته.

ويحتمل أنَّ ثم ترتيب الإخبار بالتوبة عليه، والاجتباء والهداية بعد الإخبار بالزلة، وعليه فلا يدل ذلك على تراخي التوبة عن الزلة؛ إذ لا يتحقق التراخي إلا بعد تحقق الترتيب.

وروى ابن أبي الدنيا، وعبدالله ابن الإمام أحمد، واللالكائي عن عثمان بن زائدة رحمه الله تعالى قال: قال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني! لا تؤخر التوبة؛ فإنَّ الموت قد يأتي بغتة[1].

ومن عجيب الاتفاق أنَّ من شعر البخاري أبي عبدالله محمد بن إسماعيل صاحب «الصحيح» رضي الله تعالى عنه كما رواه ابن حجر في ترجمته، وغيره: [من الخفيف]

اغْتَنِمْ فِي الفَراغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعَسى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَةْ

كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ غَيْرَ سَقِيمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَةْ[2]

وكذلك كان موته بغتة، وذهبت روحه الكريمة فلتة، فقد قال

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ١٢٢)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١٠٥٠).

(٢) انظر: «مقدمة فتح الباري» (١/ ٤٨١).

ورَّاقه محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا منصور غالب بن جبريل ـ وهو الذي نزل عليه أبو عبدالله البخاري بِخَرْتَنك ـ يقول: إنَّ البخاري أقام أياماً، واشتدَّ به المرض حتى وجَّه إليه رسول من سمرقند ليخرج كأنه إليهم، فلما وافى تهيَّأ للركوب، ولبس خُفه وتعمَّم، فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذ بعضده ورجل آخر معي يقوده إلى الدَّابة ليركبها، فقال رحمه الله تعالى: أرسلوني فقد ضعفت، فدعا بدعوات، ثم اضطجع فقضى.

وخرتنك ـ بفتح الخاء المعجمة، وإسكان الراء، وفتح التاء المثناة من فوق، وإسكان النون، وبعدها كاف كما ضبطه ابن حجر ـ: قرية من قرى سمرقند مات بها البخاري رحمه الله تعالى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومئتين عن إحدى وستين سنة رضي الله عنه[1].

وفي كلام لقمان المتقدم آنفاً إشارة إلى أنَّ من البواعث على التوبة التحقق بالموت، وأنه لا بُدَّ منه، وأنه قد يبغت العبد، وهذا أمر مشاهد في غيرك متواتر رؤية وسمعاً.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يتمثل كما رواه ابن أبي شيبة، وغيره: [من مجزوء الكامل المرفل]

تَنْفَكُّ تَسْمَعُ ما حَيِيْـ ـتَ بهالِكٍ حَتَّى تَكُونَهْ

---

(١) انظر: «تغليق التعليق» لابن حجر (٥/ ٤٤١).

وَالْمَـــرْءُ قَــدْ يَرْجُــو الرَّجــا ءَ وَالْمَـــــوْتُ دُونَــــــهُ[1]

والعاقل إذا طالع هذه الحقيقة لم يتأخر عن التوبة طرفة عين.

وروى ابن ماجه في كتاب الزهد من «سننه» بإسناد حسن، عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر يبكي حتى بلَّ الثرى، ثمَّ قال: «يَا إِخْوَانِيْ! لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوْا»[2].

أي: لمثل هذا المصرع فأعدوا؛ أي: تأهَّبوا وخذوا له عُدَّة، وهي ما يُعدُّ للحوادث.

وروى الخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وجدت جمجمة في الجاهلية مكتوب عليها: [من مجزوء الخفيف]

أُذْنَ حَـــــيٍّ تَـــسَـــمَّعِي اسْـــمَعِي ثُـــمَّ عِـــي وَعِـــي

أَنَـــا رَهِـــينٌ بِمَـــصْرَعِي فَاحْــذَرِي مِثْــلَ مَــصْرَعِي[3]

وروى العسكري في «المواعظ» عن إبراهيم بن عبدالله بن الجنيد قال: حدثني شيخ لنا قال: مررت بقبر فإذا على جانبه:

أُذْنَ حَيٍّ تَسَمَّعِي... البيتين.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٠٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٩٥). وحسن المنذري إسناده في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٢٠).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٥).

وبعدها

عِـــشْتُ تِـــسْعِينَ حَجَّــــةً

أَسْـــــلَمَتْنِي لِمَـــــــضْجَعِي

كَـــمْ تَـــرى الْحَـــيَّ ثابِـــتاً

فِـــــي دِيـــــارِ التَّزَعْـــــزُعِ

لَـــيْسَ زادٌ سِـــوى التُّقـــى

فَخُـــــذِي مِنْـــــهُ أَوْ دَعِـــــي

قال: ثم درت من الجانب الآخر فإذا عليه: [من الوافر]

إِذا مـــا كُنْـــتَ مُتَّخِـــذاً وَصِـــيَّاً

فَكُـــنْ فِيمـــا مَلَكْـــتَ وَصِـــيَّ نَفْـــسِكْ

سَتَحْـــصُدُ مـــا زَرَعْـــتَ غَـــداً وَتَجْنِـــي

إِذا وُضِـــعَ الْحِـــسابُ ثِمـــارَ غَرْسِـــكْ

قال: فسألت عن القبر، فقيل لي: قبر أبي العتاهية[1].

فمن أعظم المعونات على التوبة: قصر الأمل، وتوقع الأجل، والاستعداد للموت قبل حصول الفوت.

---

(١) وانظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٣/ ٢١٠)، و«الأغاني» للأصبهاني (٤/ ١١٧)، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (١٠/ ٢٤٣). ولم يذكروا البيتين الآخرين.

وروى ابن جهضم عن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى قال: الذي حجب الناس عن التوبة: طول الأمل.

قال: وعلامة التائب إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة[١].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] قال: هو التوبة[٢].

وأخرجه البيهقي في «الشعب» عن السدي[٣].

وقلت: [من مجزوء الرمل]

يـا ضَـعِيفَ الـرَّأْيِ لا يَـصْـ	ـلُحُ شَـيْءٌ مِـنْ مَماتِـكْ
ضـاعَتِ الأَوْقـاتُ مِـنْ عُمْـ	ـرِكَ فِـي فَـرْطِ سِـناتِكْ
لَـوْ عَلِمْـتَ العِلْـمَ لاسْـتَوْ	حَـشْتَ مِـنْ قُـبْحِ صِـفاتِكْ
تَـسْحَبُ الأَذْيـالَ فِـي زَيِّ	أَخِـي كِبْـرٍ وَفاتِـكْ
مـا الَّـذي أَعْدَدْتَـهُ يُجْـ	ـدِيكَ مِـنْ بَعْـدِ وَفاتِـكْ
كَـمْ إِلَـى كَـمْ تَلْتَهِـي فِـي	مـا أَرى مِـنْ تُرَّهاتِـكْ
تُـبْ إِلَـى رَبِّـكَ يـا مِـسْـ	ـكِينُ مِـنْ قَبْـلِ مَماتِـكْ

---

(١) وانظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ٩٠).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٥).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٩٩).

لَـــيْسَ كَالتَّوْبَـــةِ وَالإِحْـــــسانِ فِـــي تَطْهِيـــرِ ذاتِـــكْ
إِنَّهـــا أَحْـــسَنُ مـــا قَـــدَّمْـــتَ يومـــاً لِحَياتِـــكْ

ولمحت بالبيت الأخير إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٣ ـ ٢٤].

روى ابن أبي حاتم عن الضحاك رحمه الله تعالى في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ قال: يريد التوبة، يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾؛ عملت في الدنيا لحياتي في الآخرة[1].

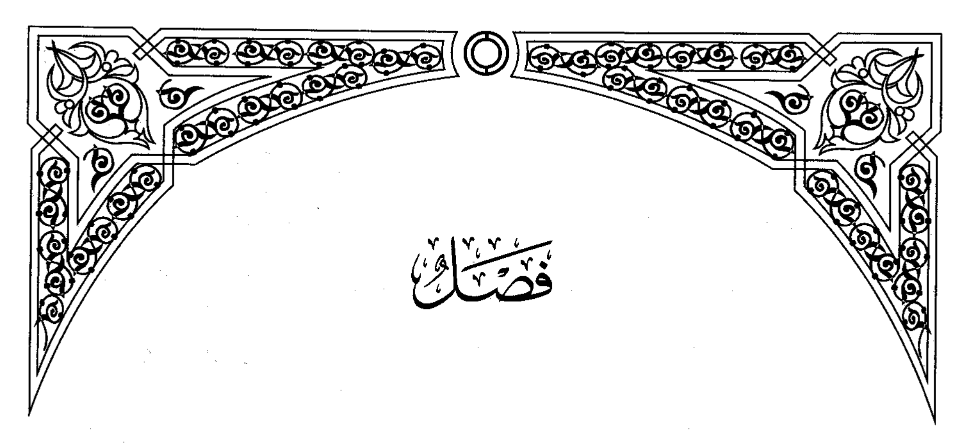
ولنا في التسويف: [من مجزوء الرمل]

لا تَقُـــلْ سَـــوْفَ أَتُـــوبُ فَعَـــسى خَطْـــبٌ يَنُـــوبُ
إِنَّ تَـــسْوِيفَكَ هَـــذا يـــا أَخِـــي إِثْـــمٌ وَحُـــوبُ

* * *

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٢٩).



فصل

ثمَّ الأصح أن نقض التوبة لا يبطلها بأن يتوب عن ذنب توبة عزم وإقلاع، ثم يعاود الذنب بعينه، بل معاودته ذنب آخر يحتاج إلى توبة أخرى.

وقال بعضهم: تبطل التوبة السابقة، إذا عاود الذنب.

ورُدَّ بأنَّ التوبة عبادة، وإذا وقع بعد العبادة ما يوجب الإتيان بمثلها لم يكن ذلك مبطلاً لها، ولا حجَّة له فيما رواه الطبراني بإسناد حسن، عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ فِيْمَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَىْ، وَمَنْ أَسَاءَ فِيْمَا بَقِيَ أُخِذَ بِمَا مَضَىْ وَمَا بَقِيَ»[1]؛ إذ يمكن حمله على ما لو لم يتب مما مضى؛ فإنَّ التوبة إحسان، وقد قال في الحديث المذكور: «مَنْ أَحْسَنَ فِيْمَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَىْ».

فقوله: «وَمَنْ أَسَاءَ فِيْمَا بَقِيَ أُخِذَ بِمَا مَضَىْ»؛ أي: من الذنب

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٨٠٦). وحسن الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٢).

الذي لم يغفر بإحسان.

ثم التوبة مقبولة لله تعالى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[الشورى: ٢٥] ما لم يغرغر العاصي بالروح بأن تبلغ حلقومه كالشيء الذي يتغرغر به، أو تأتي بعض آيات الله تعالى الكبرى المُنذرة بقيام الساعة على أثرها؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لم يُغَرْغِرْ». رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، [والترمذي] وحسَّنه، وابن حبان، والحاكم وصححاه، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٧ ـ ١٨].

والحديث تفسير لهذه الآية.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٣٥٣٧) وحسَّنه، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٥٩) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ورواه ابن ماجه (٤٢٥٢) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٩٢): ووقع في نسخ ابن ماجه المعتمدة: عبدالله بن عمرو؛ قال ابن عساكر في «أطرافه»: وهو وهم.

وروى ابن أبي شيبة عن أبي قلابة رحمه الله تعالى قال: إنَّ الله تعالى لمَّا لعن إبليس سأله النَّظِرة، فأنظره إلى يوم الدين.

فقال: وعزتك لا أخرج من جوف أو قلب بن آدم ما دام فيه الروح.

قال: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح(١).

وحدَّث به أبو قلابة بحضرة أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وأقرَّه عليه كما رواه ابن جرير، والبيهقي في «الشعب»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والمراد بالآيات آيات الساعة الكبيرة المذكورة في حديث حذيفة بن أسيد رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ في غرفة ونحن أسفل منه قال: فاطَّلع علينا، فقال: «ما تَذْكُرونَ؟».

قلنا: الساعة.

قال: «السَّاعَةُ لاَ تَقُوْمُ حَتَّى يَكُوْنَ عَشْرُ آيَاتٍ؛ الدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوْعُ الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِـهَا، وَثَلاَثَةُ خُسُوْفٍ؛ خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيْرَةِ الْعَرَبِ، وَنُزُوْلُ عِيْسَىْ، وَفَتْحُ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوْقُ النَّاسَ إِلىْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢١٧).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٤/ ٣٠١).

الْمَحْشَرِ تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوْا وَتُقِيْلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوْا». رواه الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، ومسلم، والأربعة[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام: ١٥٨]: طُلُوْعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِـهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ»[2].

وروى الإمام أحمد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوْجاً طُلُوْعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِـهَا، وَخُرُوْجُ الدَّابَّةِ عَلَىْ النَّاسِ، وَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلُ صَاحِبَتْهَا، فَالآخِرَةُ عَلَىْ أَثَرِهَا تَقْرِيْباً»[3].

قلت: وهذا الحديث يدل على أن طلوع الشمس من مغربها والدابة يكونان قبل الخسوفات الثلاثة المذكورة في حديث حذيفة بن أسيد؛ إذ الألف واللام للعهد؛ أي: أول الآيات المعهودة، وهي العشرة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٤٦٤)، ومسلم (٢٩٠١)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٨٠)، وابن ماجه (٤٠٥٥).

(٢) رواه مسلم (١٥٨).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٠١)، ومسلم (٢٩٤١)، وأبو داود (٤٣١٠)، وابن ماجه (٤٠٦٩).

فما ذكره ابن الجوزي، وأقره عليه القرطبي من أن بعض الخسوفات وقعت بعراق العجم والمغرب حتى هلك بسببها خلق لا يتطابق مع هذا الحديث(١).

والذي أقول: إنَّ الخسوفات المذكورة في الحديث خسوفات أخرى مهولة تقع بعد طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة، وهي أبلغ وأعظم من الخسوفات التي أشار إليها ابن الجوزي.

وقد نظمت الآيات العشر التي في حديث حذيفة قديماً فقلت:

[من الرمل]

عَشْرُ آياتٍ إذا ما اسْتُوْفِيَتْ	لَمْ يَكُنْ إِيْمانُ نَفْسٍ يَنْفَعُ
لا وَلا تَوْبَتُها مَقْبولَةٌ	وَبِها حَبْلُ الرَّجا يَنْقَطِعُ
فَدُخانٌ دابَّةٌ خَسْفٌ لَدى الـ	ـشَّرْقِ وَالغَرْبِ جَمِيعاً مُفْظِعُ
ثُمَّ خَسْفٌ بِالْحِجازِ وَكَذا الـ	ـشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها إِذْ تَطْلُعُ
ثُمَّ دَجَّالٌ وَعِيسى ثُمَّ يَأْ	جوجُ مَأْجُوجٍ وَسَدٌّ يُصْدَعُ
ثُمَّ نارٌ خَرَجَتْ مِنْ عَدَنٍ	تُلْجِىءُ النَّاسَ وَلا تَرْتَفِعُ
ساقَتِ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ	فَيُدانوا بِالَّذِي قَدْ صَنَعُوا
هَذِهِ الآياتُ إِنْ تَخْرُجْ فَلا	يَنْفَعُ الإِيْمانُ مِمَّنْ يُقْلِعُ
فَاعْجَلُوا بِالْخَيْرِ مِنْ قَبْلِ النَّوى	وَأَنِيبُوا قَبْلَ هَذا وَارْجِعُوا

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٧).

واعلم أنَّ بعض الآيات المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] الآية هو طلوع الشمس من مغربها بعينه كما روى الإمام أحمد، والترمذي، وأبو يعلى عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، والطبراني عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قالا: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨] «طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِـها»[1].

وروى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قال: طلوع الشمس والقمر من مغربهما مقترنين كالبعيرين القرينين، ثم قرأ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[القيامة: ٩][2].

وروى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، [والحاكم] وصححه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مضت الآيات غير أربعة: الدجال، والدابة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

قال: والآية التي يختم الله تعالى بها الأعمال: طلوع الشمس من

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣١)، والترمذي (٣٠٧١) وقال: هذا حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٥٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
والطبراني في «المعجم الصغير» (١٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٠١٩)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٣٨٩).

مغربها، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام: ١٥٨]، فقال: هو طلوع الشمس من مغربها[1].

ولذلك اقتصر عليه النبي ﷺ في حديث أبي موسى السابق: «إِنَّ اللهَ لَيَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوْبَ مُسِيْءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوْبَ مُسِيْءُ اللَّيْلِ حَتىَّ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[2].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبَهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»[3].

وروى الترمذي وصححه، والدارمي، والدارقطني، والبيهقي ـ واللفظ له ـ عن زر بن حبيش عن صفوان بن عَسَّال رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ قِبَلِ المَغْرِبِ لَبَاباً مَسِيْرَةَ عَرْضِهِ أَرْبَعُوْنَ عَاماً، أَوْ سَبْعُوْنَ سَنَةً فَتَحَهُ اللهُ تَعَالى لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَلاَ يُغْلِقُهُ حَتىَّ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ»[4].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٢٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٦٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) رواه الترمذي (٣٥٣٥) وصححه، والدارقطني في «السنن» (١/ ١٩٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٧٦)، وكذا ابن ماجه (٤٠٧٠).

وفي رواية للترمذي ـ وقال: صحيح ـ: قال زر: فما برح يحدثني حتى حدَّثني أن الله جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يُغلق ما لم تطلع الشمس من قبله؛ وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية[1].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي عن معاوية رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتىَّ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتىَّ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِـهَا»[2].

وروى الإمام أحمد، والبيهقي في «[شعب] الإيمان» عن عبد الرحمن ـ يعني: ابن عوف ـ ومعاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الهِجْرَةُ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيئَاتِ، وَالثَانِيَةَ أَنْ تُهَاجِرَ إِلَىْ اللهِ وَرَسُوْلِهِ، وَلاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِـهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِـعَ عَلَىْ كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيْهِ وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ»[3].

وذكر القرطبي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إذا

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٦) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٩٩)، وأبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧١١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢١٥).

طلعت الشمس من مغربها لا يُقبل من كافر إيمانه ولا توبته ولا عمله إذا أسلم حتى يراها إلا من كان صغيراً يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبِـل ذلك منه؛ قال: ومن كان مؤمناً مذنباً فتاب من الذنب قبل منه[1].

وهذا أخذه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من ظاهر الآية؛ إذ اقتصر فيها على الإيمان، وهو خلاف ما عليه الجمهور من أنَّه لا فرق في عدم قبول التوبة بعد طلوع الشمس من المغرب وبين الكافر والمسلم، والأحاديث المذكورة ناطقة نص فيها فيجب المصير إليها.

أمَّا الصغير إذا بلغ بعد طلوع الشمس من مغربها، فأسلم، قبل إسلامه قطعاً؛ فإنَّه مفطور على الإسلام، وقد استصحب الفطرة، وأمَّا إذا كفر بعد البلوغ أو أذنب، فلا يُقبل منه الإسلام ولا التوبة كغيره.

قال أهل العلم: وإنَّما لا ينفع نفساً إيمانها ولا توبتها وقت طلوع الشمس من المغرب لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما يخمد منه كل شهوة، ويفتر منه كل قوة، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بقرب الساعة كحال من حضره الموت، وغرغر بالروح في انقطاع الدَّواعي إلى المعصية بكل أنواعها وبطلانها من أبدانهم، ومن مات في مثل هذه الحالة لم تقبل توبته.

ثم إنَّ من عاين الآية المذكورة قبل الإيمان والتوبة لمَّا كان علمه بالله ورسوله ووعيده قد صار ضرورياً لم يقبل إيمانه وتوبته وإن امتدت

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٨).

حياته بعد ذلك؛ إذ رُوي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة حتى يغرس النخل.

وهذا ذكره القرطبي، وإنما يُروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص كما أخرجه ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر[1].

قال القرطبي: وإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ولا يتحدثوا عنه إلا قليلاً، فيصير الخبر عنه خاصاً، وينقطع التواتر عنه، فمن أسلم بعد ذلك، أو تاب قُبِل منه؛ والله أعلم[2].

قلت: لكنَّ الظاهر أن هذا لا يكون؛ إذ ورد أن باب التوبة يغلق لطلوعها من مغربها، ولم يرد أنه يفتح بعد ذلك.

قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «صَبِيْحَةَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا يَصِيْرُ فِيْ هَذِهِ الأُمَّةِ قِرَدَةٌ وَخَنَازِيْرُ، وَتُطْوَىْ الدَّوَاوِيْنُ، وَتَجُفُّ الأَقْلاَمُ، لاَ يُزَادُ فِيْ حَسَنَةٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَلاَ يَنْفَعُ نَفْسَاً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيْ إِيْمَانِهَا خَيْرَاً».

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إن الناس بعد الآية ـ يعني:

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٨)، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٦٠٠).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٧).

طلوع الشمس من المغرب ـ يصلُّون، ويصومون، ويحجُّون، فيتقبل ممن كان يتقبل منه قبل الآية. رواهما أبو الشيخ[1].

وما ذكره القرطبي من انقطاع التواتر بعد الآية يبعده أن الدنيا ـ وإن بقيت بعد الآية المدة التي ذكرت عن ابن عمرو ـ فإنَّ الآيات تتتابع في هذه المدة كما قال رسول الله ﷺ: «الآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُوْمَاتٌ فِيْ سِلْكٍ، فَانْقَطَعَ السِّلْكُ فَيَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضَاً». رواه الإمام أحمد، وغيره عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما[2].

فلا يقدم عن التواتر خبر بطلوع الشمس من مغربها، ولا ينقطع حتى تخرج الدابة، ثم يكون الخسوف واحداً بعد واحد قبل الدجال أو بعده، ثم يخرج عيسى عليه السلام بعد الدجال، فيقتل الدجال، ويمكُث في الأرض أربعين سنة، ثم يخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى عليه السلام حتى ينحاز هو والمؤمنون إلى جبل الطور، ثمَّ يكون الدخان بعد ذلك أو قبله، ثم تخرج النار من قعر عدن، فالناس في كل آية من هذه الآيات مع ما يتبعها من الأهوال والحوادث العظيمة بين مشاهد لها ومتواتر إليه خبرها، ومنهم من شاهد بعضها وتواتر إليه خبر بعضها، وهذا يحدث في قلوب الناس علوماً ضرورية بوقوع الساعة وحلول القيامة، فلا يقبل من أحد منهم خير إلا من كان عليه

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢١٩)، والرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص: ١٢٥).

أولاً فيبقى عليه بتوفيق الله تعالى؛ نسأل الله تعالى أن يعيذنا من الفتن والمِحَن، وأن يقبضنا على توبة مقبولة.

ثمَّ التوبة لها أركان:

أحدها: أن يقلع عن الذنب في الحال.

روى البزار، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «التائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، وَالْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ ﷻ»[1].

قال الفضيل بن عياض، وذو النون المصري رحمهما الله تعالى: استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين[2].

واعلم أنَّ الإقلاع عن الذنب إنما ينشأ من مطالعة زواجر الشرع، فينقدح من ذلك زِناد العقل، فيتولَّد منه نار الخوف من الله تعالى، فيحترق غُثاء الشهوة من النفس، ويذهب منه زَبَدُ الغفلة عن القلب، فيرتاع القلب ويتنبه، وينزجر بزاجر الإيمان، وزاجر العقل، وزاجر الشيب، وزاجر الموت، وغير ذلك، ويرجع إلى الله تعالى ويقلع عن الذنب، ولذلك قال بعضهم: اليقظة حرقة من جهة المولى لقلوب

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٧٨)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٧٢). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٤٩): روي موقوفاً، ولعله الأشبه.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (١ / ٣١٣)، و«الأذكار» للنووي (ص: ٣٢٣).

الخائفين تدلهم على طريق التوبة.

وروى أبو نعيم عن أبي بكر الكتاني رحمه الله تعالى أنه قال: روعة عبد انتباه من غفلة؛ وانقطاع عن حظ النفس، وارتعاد من خوف القطيعة أعود على المريدين من عبادة الثقلين[1].

وقد يسَّر الله تعالى لمن أراد به الخير طريق التوبة بالدواعي الداعية إليها، وهي فوائد التوبة التي عوَّلنا سابقاً عليها، وبالزواجر له عن الذنوب كزاجر الإيمان وزاجر الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلاَّ بُعْداً». رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، وغيره عن ابن مسعود موقوفاً عليه[3].

وروى المفسرون عن ابن عباس قال في الآية: في الصلاة منتهى

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٥٨).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٢٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): فيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس.

(٣) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٣).

ومُزْدجر عن معاصي الله تعالى[1].

ولا شك أنَّ من آمن بالله وبما جاء به رسله من وعيده في كتبه، وصدق بذلك أدى به تصديقه بذلك إلى أن يطيعه ولا يعصيه، وأن يقلع عن عصيانه إن كان متلبِّساً به، وإلا لم يكن تصديقه كاملاً ولا يقينه خالصاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَا آمَنَ بِالقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ». رواه الترمذي من حديث صهيب الرومي رضي الله تعالى عنه[2].

وزاجر العلم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر: ٢٨].

فبيَّن سبحانه وتعالى أن الخشية إنما تنبعث من العلم والمعرفة؛ لأنَّ العارف بالله تعالى يعلم ما لا يعلمه غيره من اطلاع الله تعالى عليه في أحواله كلها في سره وعلانيته، وذلك يزجره عن المعصية وعن الإقامة عليها.

قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيتك، فتلك خشيته. رواه ابن أبي حاتم[3].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٠/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٦٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٨) وضعفه.

(٣) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٣٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٦).

وقال الشافعي رضي الله عنه: [من مجزوء الكامل]

وَالعِلْـــمُ يَنْهَـــى أَهْلَـــهُ ... أَنْ يَمْنَعُـــوه أَهْلَـــهُ[1]

وقال أيضاً: [من مجزوء الرجز]

حَـــسْبِي بِعِلْمِـــي إِنْ نَفَـــعْ ... مَـــا الـــذُّلُّ إِلاَّ فِـــي الطَّمَـــعْ

مَـــنْ راقَـــبَ اللهَ نَـــزَعْ ... عَـــنْ سُـــوءِ مـــا كـــانَ صَـــنَعْ

مـــا طـــارَ طَيْـــرٌ وَارْتَفَـــعْ ... إِلاَّ كَمـــا طـــارَ وَقَـــعْ

*** فائِدَةٌ:**

روى الخطيب عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: وضع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للناس ثماني عشرة كلمة، حِكَمٌ كلُّها؛ قال: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك منه ما يغلبك.

ولا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

ومن عَرَّضَ نفسه للتهمة فلا يلومنَّ من أساء به الظنْ.

ومن كتم سرَّه كانت الخيرة في يده.

وعليك بإخوان الصدق تعِشْ في أكنافهم؛ فإنهم زينة في الوفاء، وعُدَّة في البلاء.

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥١/ ٢٩٣).

وعليك بالصدق وإن قتلك.

ولا تعرض فيما لا يعني.

ولا تسأل عما لم يكن؛ فإنَّ فيما كان شغلاً عما لم يكن.

ولا تطلبن حاجتك إلى من لا يحب نجاحها.

ولا تهاون بالحلف الكاذب فيهلكك الله.

ولا تصحب الفجَّار تتعلم من فجورهم.

واعتزل عدوَّك.

واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله.

وتخشع عند القبور.

وذُلَّ عند الطاعة.

واستعصم عند المعصية.

واستشر في أمرك الذين يخشون الله؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][1].

وزاجر الشيب:

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

---

(١) كذا عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢) إلى الخطيب في «المتفق والمفترق»، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٦٠).

قال عكرمة: النذير: الشيب. رواه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[1].

وقال الشاعر: [من الطويل]

كَفى الشَّيْبُ وَالإِسْلامُ لِلْمَرْءِ ناهِياً[2]

وقال الإمام أبو القاسم الرافعي رحمه الله تعالى: [من الطويل]

تَنَبَّـــهْ فَحَـــقٌّ أَنْ يَطُـــولَ بِحَـــسْرَةٍ
تلهُّـــفُ مَـــنْ يَـــسْتَغْرِقُ العُمْـــرَ نَومُـــهُ

وَقَـــدْ نِمْـــتَ فِـــي عَـــصْرِ الـــشَّبِيبَةِ غـــافِلاً
فَهُـــبَّ فَـــصُبْحُ الـــشَّيْبِ قَـــدْ جـــاءَ يَومُـــهُ[3]

وقلت: [من الخفيف]

نـــاحَ إِذا لاحَ الْمَـــشِيبُ صـــباحُ ... بَعْدَ لَيْلِ الْهَـوى وَطِيـبِ الغـرارِ
لا تَلُمْـــهُ إِذا بَكَـــى لِمَـــشِيبٍ ... ضَحِكَ الـرَّوْضُ مِنْـهُ بالأَزْهـارِ
بانَ مِنْـهُ الـشَّبابُ فَاغْتـاظَ مِمَّـا ... بانَ مِـنْ شَـيْبِ رَأْسِـهِ وَالعِـذارِ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٨٥).

(٢) عجز بيت لسحيم مولى بني الحسحاس، وصدره:

ودع ســـليمى إن تـجهـــزت غـاديـــا

كما في «الأدب المفرد» للبخاري (١٢٣٨).

(٣) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/ ٢٩٢).

لَيْسَ يَشْفِيهِ مِنْ أَسى الشَّيْبِ إِلاَّ ... أَنْ يَــراهُ مُهَيِّجــاً لاعْتِــذارِ

وَرُجُـوعٍ إِلَـى التُّقَـى بِمَتـابٍ ... مِـنْ قَبِـيحِ الـذُّنوبِ وَالأَوْزارِ

مَنْ يَتُبْ وَالْمَشِيبُ ثَـوبُ وقـارٍ ... ثُـمَّ يَعْـصِ أَحـالَ ثَـوْبَ الوقـارِ

إِنَّ مَـنْ دَنَّـسَ الْمَـشِيبَ بِعَيْـبٍ ... مِثْـلُ مَـنْ شَـوَّهَ البَيـاضَ بِقـارِ

زاجِـرُ الـشَّيْبِ قَـدْ أَتـاكَ نَـذِيراً ... فَتَــيَقَّظْ لِــذَلِكَ الإِنْــذارِ

وَكَفـى بِالْمَـشِيبِ نـاهِيَ نَفْـسٍ ... عَنْ هَواها فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي النَّهـارِ

ما لِما فاتَ مِـنْ شَبابِـكَ عَـوْدٌ ... أَبْعَدَ الشَّيْبُ مِنْـهُ قُـرْبَ الْمَـزارِ

إِنَّ شُـغْلاً بِمـا أَمامَـكَ أَوْلَـى ... مِـنْ تَمَنِّيـكَ فائِـتَ الأَعْمـارِ

دَعْ وَراءَ فَـلا رُجُـوعَ إِلَيْـهِ ... وَتَهَيَّـأْ لِمـا أَمامَـكَ جـارِي

وَابْتَـعِ الْجـارَ قَبْـلَ أَنْ تَتَبـوَّا ... الدَّارَ وَاللهُ ذُو العُلى خَيْرُ جارِ

إِنَّ شَـيْئاً دَعـا لأَبْهـى سِـبابٍ ... فِـي نَعِيمٍ لَخَيْـرُ شَـيْءٍ وَدارِي

إِنَّ دارَ النَّعِـيمِ دارُ رِضَـى اللَّـ ... ـهِ تَعـالَى وَفَـضْلِهِ خَيْـرُ دارِ

وزاجر الدهر، وهو ما فيه من النوائب والصُّروف:

روى ابن السني في «عمل يوم وليلة» عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَىٰ بِالدَّهْرِ وَاعِظاً، وَالْمَوْتِ مُفَرِّقاً»(١).

وينسب للخطابي: [من الوافر]

(١) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٥١١).

أَنِسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي ... فَطابَ الأُنْسُ لِي وَنَما السُّرورُ
وَأَدَّبَنِي الزَّمانُ فَلا أُبالِي ... هُجِرْتُ فَلا أُزارُ وَلا أَزُورُ
وَلَسْتُ بِسائِلٍ ما دُمْتُ حَيًّا ... أَسارَ الْجُنْدُ أَمْ رَكِبَ الأَمِيرُ[1]

وقلت: [من الوافر]

كَفَى بِالدَّهْرِ أَنْ يَعِظَ الأَناسِي
وَيَزْجُرَ كُلَّ مَغْرُورٍ وَناسِي
تَرى عِبَراً وَلَمَّا تَعْتَبِرْها
عَذِيرَكَ مِنْ فُؤادٍ مِنْكَ قاسِي
فَكَمْ كاسٍ بِهِ أَمْسَى عَرِيًّا
وَعارٍ فِيهِ أَصْبَحَ وَهْوَ كاسِي

ومن ألطف ما قيل في الاتعاظ من الزمان قول أبي العتاهية: [من السريع]

ماذا يُرِيكَ الزَّمانُ مِنْ غِيَرِهْ ... وَمِنْ تَصارِيفِهِ وَمِنْ عِبَرِهْ
طُوبَى لِعَبْدٍ ماتَتْ وَساوِسُهُ ... وَاقْتَصَرَتْ نَفْسُهُ عَلى فِكَرِهْ
طُوبَى لِمَنْ هَمُّهُ الْمَعادُ وَما ... أَخْبَرَهُ اللهُ عَنْهُ مِنْ خَبَرِهْ

---

(١) انظر: «العزلة» للخطابي (ص: ٩٤) لكنه قال: أنشدني بعضهم، وقد عزاها بعضهم للخطابي؛ كالثعالبي في «التفسير» (٣/ ٤٧).

طُوبَى لِمَنْ لَمْ يَعْصِ الإِلَهَ وَلا حالَ وَلَمْ يَتَّهِمْهُ فِي قَدَرِهْ

طُوبَى لِمَنْ لا يَزِيدُ إِلاَّ تُقًى لِلَّهِ فِيما يَزْدادُ مِنْ كِبَرِهْ

قَدْ يَنْبَغِي لامْرِئٍ يَرى نَكَبا تِ الدَّهْرِ أَنْ لا يَنامَ مِنْ حَذَرِهْ

بِقَدْرِ ما ذاقَ ذائِقٌ لِصَفا ءِ العَيْشِ يوماً يَذُوقُ مِنْ كَدَرِهْ

كَمْ مِنْ عَظِيمْ مُسْتَوْدَعٍ جَدَثاً قَدْ أَوْقَرَتْهُ الأَكُفُّ مِنْ مَدَرِهْ

أَخْرَجَهُ الْمَوْتُ عَنْ دساكِرِه وَعَنْ فَساطِيطِهِ وَعَنْ حُجَرِهْ

ما أَسْرَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلى الـ إِنْسانِ فِي سَمْعِهِ وَفِي بَصَرِهْ

وَفِي خُطاهُ وَفِي مَفاصِلِه نَعَمْ وَفِي شَعْرِهِ وَفِي بشرِهْ

الوَقْتُ آتٍ لا شَكَّ فِيهِ وَلا تَنْظُرْ إِلَى طُولِهِ وَلا قِصْرِهِ

لَمْ يَمْضِ مِنَّا قُدَّامَنا أَحَدٌ إِلاَّ وَمَنْ خَلْفَهُ عَلَى أَثَرِهْ

فَلا كَبِيرٌ يَبْقَى لِكَبْرَتِهِ وَلا صَغِيرٌ يَبْقَى على صِغَرِهْ

وزاجر الموت:

روى الطبراني في «الكبير» عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال: «كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظاً، وَبِاليَقِيْنِ غِنَىً»[1].

وروى سعيد بن منصور عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: أنه قال موعظة بليغة وغفلة سريعة: كفى بالموت واعظاً، وكفى بالدهر

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٣٠٨): رواه الطبراني، وفيه الربيع بن بدر، وهو متروك.

مفرقاً، اليوم في الدُّور، وغداً في القبور[1].

ولجدي شيخ العارفين الشيخ رضي الدين ملمحاً بحديث: [من مجزوء الرجز]

قَـــالَ مُحَمَّـــدٌ رَسُـــو ... لُ اللهِ قَـــوْلاً صَـــادِقاً

تَرَكْـــتُ فِـــيكُمْ واعِظَيْـــ ... ـــنِ صَـــامِتاً وَناطِقـــاً

الْمَـــوْتُ وَالقُـــرْآنُ كَـــيْ ... يَـــصْدُقَ هـــذا واثِقـــاً

وذكر السيوطي عن بعضهم قال: مَنْ أكثر ذكر الموت أُكرِمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم التيمي قال: شيئان قطعا عني لذاذةَ الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله تعالى[3].

وروى ابن الجوزي في كتاب «ذم الهوى»: أنَّ عبدالله بن حسن ابن الحسين كان يطوف بالبيت، فلقي امرأة جميلة، فلما نظرت إليه وإلى جماله مالت نحوه، وطمعت فيه، فأقبل عليها وقال: [من البسيط]

أَهْـــوى هَـــوَى الـــدِّينِ وَاللَّـــذَّاتُ تُعْجِبُنِـــي

فَكَيْـــفَ لِـــي بِهَـــوى اللَّـــذَّاتِ وَالـــدِّينِ

---

(١) انظر: «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» للسيوطي (ص: ٢٨)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢١٧) بلفظ قريب.

(٢) انظر: «شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور» للسيوطي (ص: ٢٧).

(٣) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٨٨) عن عبد الأعلى التيمي.

نَفْـــسِي تُـــزَيِّنُ لِـــيَ الـــدُّنْيا وَلَـــذَّتَها

وَزاجِــري مِــنْ حِــذارِ الْمَــوْتِ يَثْنِيْنِــي[1]

وزاجر العقل[2]:

وجميع الزواجر ترجع إليه كما بينته في «منبر التوحيد».

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَاعِظَاً مِنْ نَفْسِهِ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ». رواه الديلمي ـ بإسناد جيد ـ من حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها[3].

وروى الإمام أحمد، والحاكم ـ وصححه ـ عن النوَّاس بن سمعان رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً صِراطَاً مُسْتَقِيْمَاً، وَعَلَىْ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُوْرَانِ فِيْهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعلى الأَبْوابِ سُتورٌ مُرْخاةٌ، وَعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يَقولُ: يا أَيُّها النَّاسُ! ادْخُلوا الصِّراطَ جَميعاً، وَلا تُعَرِّجوا، وَداعٍ يَدْعو مِنْ فَوْقِ الصِّراطِ، فَإِذا أَرادَ الإِنْسانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ قالَ: وَيْحَكَ! لا تَفْتَحْهُ. فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ.

فَالصِّراطُ: الإِسْلامُ، وَالسُّتورُ: حُدودُ اللهِ، وَالأَبْوابُ الْمُفَتَّحَةُ:

---

(1) انظر: «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص: ٢٥).

(2) تسويد ونقطتان بعده.

(3) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١١٥٣): رواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أم سلمة، بإسناد حسن.

مَحارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلى رَأْسِ الصِّراطِ: كِتابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْق: واعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مَسْلِمٍ»؛ يَعْنِي: العَقْل[1].

* تَنْبِيهٌ:

عَلِمَ مما تقدم بأَنَّ من ترك الذنوب لا للخوف من الله تعالى، بل لأمر آخر كالإفلاس والخوف من عقوبة السلطان وتعزيره، فليس بتائب لأنه غير مقلع عن الذنب؛ لأَنَّ الإقلاع ينشأ عن الخوف من الله، أو الإقلاع المعتد به هو الذي ينشأ عن الخوف من الله تعالى.

ولطف بعض الشعراء في قوله: [من الوافر]

يَقُولُ أَبو سَعِيدٍ إِذْ رَآنِي ... عَفِيفاً مُنْذُ عامٍ ما شَرِبْتُ
عَلى يَدِ أَيِّ شَيْخٍ تُبْتَ قُلْ لِي ... فَقُلْتُ عَلى يَدِ الإِفْلاسِ تُبْتُ[2]

الركن الثاني من أركان التوبة:

الندم على فعل الذنب من حيث إنه ذنب؛ بأن يستحضر جرأته على الله تعالى، وتعرضه لمقته بارتكاب الذنب مع علمه بأَنَّ الله تعالى يعلم ظواهره وبواطنه، لا يخفى عليه من أحواله شيء.

ولما كان الندم معظم أركان التوبة قال رسول الله ﷺ: «النَّدَمُ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤ / ١٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٤٥).

(٢) البيتان لابن الهبارية. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٤٥٥).

تَوْبَةٌ». رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم ـ وصححه ـ عن ابن مسعود ﷺ، والحاكم، والبيهقي عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن وهب قال: قرأت في مزامير داود عليه السلام: هل تدري من أغفر له من عبادي؟ الذي إذا أذنب ذنباً ارتعدت فرائصه وأعضاؤه، فذلك الذي آمر ملائكتي أن لا تكتب عليه ذلك الذنب[2].

وقولنا: (من حيث إنه ذنب) احتراز عما لو ندم على الذنب لمعنىً آخر؛ كأن يندم على شرب الخمر لإضرارها ببدنه أو ماله، أو على الزنا لحيائه من الناس وهتك ستره عليهم، وفضيحته عندهم، لا للخوف من الله تعالى ومن عقوبته؛ فإنَّ ذلك الندم لا ينفعه.

ولو ترك الذنب، وعزم أن لا يعود إليه، ولم يندم على ارتكابه فيما سلف لم يكن تائباً لأنَّ عدم ندمه على ذنبه دليل على قلة حيائه من الله تعالى، وعدم مبالاته بوعيده، وجرأته على الله تعالى.

وقد روى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٧٦)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦١٢) عن ابن مسعود ﷺ.
والحاكم في «المستدرك» (٧٦١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٢٩) عن أنس ﷺ.

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٧٠).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَذْنَبَ وَهُوَ يَضْحَكُ دَخَلَ النَّارَ وَهُوَ يَبْكِيْ»[1].

وروى الطبراني، وأبو نعيم من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «أَوْحَىْ اللهُ تَعَالَىْ إِلَىْ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الرِّضَا بِقَضَائِيْ، وَلَنْ تَعْمَلَ عَمَلاً أَحْبَطُ لِحَسَنَاتِكَ مِنَ الكِبْرِ: يَا مُوْسَىْ! لاَ تَضْرَعْ لأَهْلِ الدُّنْيَا فَأَسْخَطُ عَلَيْكَ، وَلا تَخَفْ بِدِيْنِكَ لِدُنْيَاهُمْ فَأُغْلِقَ عَلَيْكَ أَبْوَابَ رَحْمَتِيْ، يَا مُوْسَى! قُلْ لِلْمُذْنِبِيْنَ النَّادِمِيْنَ: أَبْشِرُوْا، وَقُلْ لِلْعَامِلِيْنَ الْمُعْجَبِيْنَ: اخْسَرُوْا»[2].

وتقدم من حديثه: «النَّادِمُ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةَ، والْمُعْجَبُ يَنْتَظِرُ الْمَقْتَ»[3].

وقال سَرِي السَّقَطي، وسهل التستري رحمهما الله تعالى: التوبة أن لا تنسى ذنبك[4].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: التوبة النصوح أن

---

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٩٦)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٨١٠).

(2) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٢٧) وقال: غريب، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٠٩).

(3) تقدم تخريجه.

(4) انظر: «تفسير السلمي» (١/ ١٨٣)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٧١٨١).

يكون الذنب بين عينيه ولا يزال كأنه ينظر إليه[1].

وهذا من هؤلاء الشيوخ إشارة إلى الندم.

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ـ ولم يفصح عن رفعه ـ ورواه البيهقي مرفوعاً، وموقوفاً إلى النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ يَرَىٰ ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ، وَالْمُنَافِقُ يَرَىٰ ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَأَطَارَهُ»[2].

وقال ابن أبي الدنيا في «التوبة»: قال الحسن بن عبد الرحمن: أنشدني أبو عثمان المؤدب: [من البسيط]

لا تَنْسَ ذَنْبَكَ إِنَّ اللهَ سَاتِرُهُ
وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ ذَنْبٍ تُباشِرُهُ

خَفْ غِبَّ ذَنْبِكَ وَارْجُ اللهَ مُزْدَجَراً
لَعَلَّ رَبَّكَ بَعْدَ الْخَوْفِ غافِرُهُ

كَمْ مِنْ هَوًى لَكَ مَقْرونٍ بِمَعْصِيَةٍ
أَصْبَحْتَ تَرْكَبُهُ وَاللهُ سَاتِرُهُ

بَرَّقْتَ ظاهِرَكَ الْمَدْخُولَ باطِنُهُ
إِنْ صَحَّ باطِنُ عَبْدٍ صَحَّ ظاهِرُهُ

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٠)، «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٥٩٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٠٤).

أَسِـــرَّ مـــا شِـــئْتَ إِنَّ اللهَ يَعْلَـــمُ مـــا
يُخْفِيـــهِ قَلْبُـــكَ لا تَخْفـــى سَـــرائِرُهُ
اعْمَـــلْ فَإِنَّـــكَ تُجْـــزَى مـــا عَمِلْـــتَ بِـــهِ
مَهْمـــا عَمِلْـــتَ فَـــإِنَّ اللهَ خَابِـــرُهُ
لا شَـــيْءَ أَحْـــسَنُ مِـــنْ شَـــيْءٍ تُقَدِّمُـــهُ
مـــا كـــانَ مِـــنْ حَـــسَنٍ فَـــاللهُ شـــاكِرُهُ
لا يَبْـــرَحُ العَبْـــدُ أَعْمـــالاً يُقَلَّـــدُها
أَلَـــيْسَ فِـــي عُنُـــقِ الإِنْـــسانِ طـــائِرُهُ
البِـــرُّ أَكْـــرَمُ زادٍ وَالتُّقـــى شَـــرَفٌ
وَالْخَيْـــرُ أَجْمَـــعُ لا تُبْلَـــى ذَخـــائِرُهُ[1]

* تَنْبِيهٌ:

وردت أخبار تدل على الاكتفاء في التوبة بالندم، فروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن المبارك بن فضالة عن الحسن ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ بِهِ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ».

قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟

---

(١) انظر: «التوبة» لابن أبي الدنيا (٧٤).

قال: «يَكُوْنُ نَصْبَ عَيْنَيْهِ تَائِباً نَادِماً حَتَىْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ»[1].

وروى أبو نعيم بسند ضعيف، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَإِذَا ذَكَرَهُ أَحْزَنَهُ، فَإِذَا نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَحْزَنَهُ غفرَ لَهُ»[2].

ولابن أبي الدنيا نحوه في «التوبة» من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[3].

روى الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَدَامَةُ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لأَتَىْ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُوْنَ لِيَغْفِرَ لَهُمْ». وإسناده ضعيف[4].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٧٦). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٨٦): فيه صالح المري، وهو رجل صالح، لكنه مضعف في الحديث.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٩٢)، وكذا العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٥٨) وأعله بمضر بن نوح السلمي، وقال: لا يعرف بالنقل، وحديثه غير محفوظ.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٨٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٨٣). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٨٦): فيه يحيى بن عمرو بن مالك النكري ضعيف.

وروى العسكري في «المواعظ» عن علي ﷺ قال: إني لأرجو أن يكون كفَّارة للعبد من ذنبه ندامته عليه[1].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن صالح المُرِّي رحمه الله تعالى قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود! اسمع مني والحقَّ أقول: إنَّه من ذكر ذنوبه في الخلاء فاستحيى عند ذكرها، سترتُها عن الحفظة وغفرت له.

يا داود! اسمع مني والحقَّ أقول: إنه من عمل من الذنوب حشو الأرض من شرقها إلى غربها، ثم ندم عليها حلب شاة، سترتها عن الحفظة وغفرتها له.

يا داود! اسمع مني والحقَّ أقول: إنَّه من عمل حسنة واحدة أدخلته جنتي.

قال داود: إلهي! وما تلك الحسنة؟

قال: يكشف عن مكروب كربة ولو بشق تمرة[2].

ومن هنا: ذهب جمع إلى أنَّ التوبة الندم فقط، ومنهم من قال: الندم هو التوبة، وما أوجبوه من الإقلاع والعزم أن لا يعود من لازمه، ونقله الأستاذ أبو القاسم القشيري عن بعض أهل التحقيق.

---

(١) ورواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١٠٥٠).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٠٠).

الركن الثالث من أركان التوبة:

العزم على أن لا يعاود الذنب: فلو عزم على معاودة الذنب في وقت التوبة لم تصح توبته لمناقضة حاله للتوبة؛ فإنَّ عزمه على الذنب دليل تعلق قلبه به وعدم إقلاعه عنه، فلو عزم في وقت التوبة أن لا يعود، ثمَّ خطر له بعد مدة أن يعاود الذنب وعزم عليه، فتوبته صحيحة، وهذا العزم ذنب آخر، فإن همَّ بالمعاودة ولم يعزم لم يؤاخذ به.

ونقل الثعلبي، وغيره عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[القيامة: ٣ ـ ٥]: يقول الله تعالى: ما يجهل ابن آدم أنَّ ربه قادر على جمع عظامه بعد الموت، ولكنه يريد أن يَفْجُرَ أمامَه؛ أي: يمضي قدماً في معاصي الله تعالى راكباً رأسه لا ينزع عنه ولا يتوب[1].

وروى ابن أبي الدنيا في «الأمل»، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[القيامة: ٥]؛ قال: يُقدِّم الذنب ويؤخِّر التوبة[2].

وروى ابن جرير عنه أنه قال: يعني: الأمل؛ يقول: أعمل ثم أتوب[3].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٨٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ١٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٧٣).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٩/ ١٧٧).

وروى المفسرون، والحاكم وصححه، والبيهقي عنه: أنَّهُ قال في الآية: يقول: سوف أتوب.

﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[القيامة: ٦]؛ قال: يقول: متى يوم القيامة؟

قال: فبيَّن له بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾[القيامة: ٧][1].

وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يسأل بلسان قاله، أو بلسان حاله سؤال استبعاد، كأنه يجعل الاعتذار عن فجوره وعزمه على ركوب آثامه أنَّ يوم القيامة بعيد، فيطيل أمله، ويسيء عمله، وينسى أجله، فلا يُصْلِح خلله.

وأنشد ابن أبي الدنيا في «كتاب الموت» لبعضهم: [من البسيط]

قُلْ لِلْمُؤَمِّلِ إنَّ الْمَوْتَ فِي أَثَرِكْ
وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ الأَمْرُ مِنْ نَظَرِكْ

فِيما مَضَى لَكَ إِنْ فَكَّرْتَ مُعْتَبَرٌ
وَمَنْ يَمُتْ كُلَّ يَوْمٍ فَهْوَ مِنْ نُذُرِكْ

دَارٌ تُسافِرُ عَنْهَا فِي غَدٍ سَفراً
فَلا تَؤُوبُ إذا سافَرْتَ مِنْ سَفَرِكْ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٣٢).

تُـــضْحِي غَـــداً سَـــمراً لِلـــذَّاكِرِينَ كَمـــا

صارَ الَّـذينَ مَـضَوا بِـالأَمْسِ مِـنْ سَـمَرِكْ[1]

واعلم أنَّ ما ذكرناه من أركان التوبة الثلاثة لا بُدَّ منه في كل توبة من كل ذنب.

ويزاد في التوبة من مظالم العباد ركن رابع، وهو رد المظالم إلى أهلها، أو الاستحلال منهم حتى يسامحوه ويعفو عنه، وذلك كالقتل، والسرقة، والغصب، والرشوة، والربا، وأكل مال اليتيم، والضرب، والشتم، والقذف، والغيبة، والنميمة، والسعاية، وخيانة الرجل في فراشه.

فإن تعذَّر عليه ذلك كأن مات صاحب المظلمة ولم يكن له ورثة تستوفي ما له قبل التائب من الحقوق، أو يعفو عنه، أو غاب عنه المطلوب وتعذَّر عليه الوصول إليه، أو خشي من ذكر المظلمة للمظلوم أن يتعدَّى عليه زائداً عن حقه في نفس أو مال أو عرض كأن يكون قذف مُتَجَوِّهاً يخشى سطوته، فطريقه أن يستغفر للمظلوم، ويستكثر من الحسنات ليوفي يوم القيامة من حسناته، ويكثر من الاستغفار، والتضرع، والحزن، والأسف على ما صدر منه؛ فعسى أن يكون ذلك كافياً له.

وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه:

---

(١) انظر: «قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (ص: ٥٣).

عجبت لمن يهلك والنجاة معه.

قيل: ما هي يا أمير المؤمنين؟

قال: الاستغفار[1].

وقد حدثنا والدي رحمه الله تعالى في السنة التي مات فيها، وهي سنة أربع وثمانين وتسع مئة عن مشايخه قضاة القضاة: أبي يحيى زكريا الأنصاري، والبرهانين القلقشندي، وابن أبي شريف، عن الحافظ [أبي] الفضل بن حجر العسقلاني قال: قرأت على أحمد بن بلغاق، وأخبرنا عبد الرحمن بن محمد الذهبي قالا: أخبرنا إسحاق بن يحيى، أنا يوسف بن خليل الحافظ، أنا مسعود بن أبي منصور وخليل بن أبي الرجاء قالا: أنا أبو علي المقري، أنا أبو نعيم، ثنا أبو بكر عن أبي الهيثم، ثنا محمد بن أبي العوام، ثنا يزيد بن هارون، ثنا صدقة بن موسى، ثنا أبو عمران المقري، عن يزيد بن بابنوس، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدَّوَاوِيْنُ عِنْدَ اللهِ ثَلاَثَةٌ: دِيْوَانٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ، وَدِيْوَانٌ أَمْرُهُ إِلَىْ اللهِ، وَدِيْوَانٌ لا يَتْرُكُهُ اللهُ؛ فَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِيْ لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾[المائدة: ٧٢]، وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِيْ أَمْرُهُ إِلَىْ اللهِ فَظُلْمُ العَبْدِ لِنَفْسِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىْ يَتَجَاوَزُ اللهُ عَنْهُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِيْ لاَ يَتْرُكُهُ اللهُ فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً القِصاصُ لاَ مَحالَةَ».

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٠٩).

قال الحافظ أبو الفضل: هذا حديث غريب أخرجه أحمد بن يزيد ابن هارون، فوافقناه بعلو، وصححه الحاكم[1].

وأخرجه من وجه آخر عن يزيد، وفيه نظر؛ لأنَّ صدقة بن موسى ليس من شرط «الصحيح»، انتهى.

قلت: ولا ينزل الحديث عن درجة الحسن لأنَّ رجاله ثقات، وغاية ما فيه أنَّ صدقة مختلف فيه.

وقلت عاقداً للحديث: [من الطويل]

رَوَيْنــا دَواوِيــنَ العُــصاةِ ثَلاثَــةً
عَــنِ الْمُــصْطَفى الْمُخْتــارِ قُطْــبِ الرِّســالَةِ

وَدِيــوانُ شِــرْكٍ لَــيْسَ يُغْفَــرُ بَــلْ لِمَــنْ
أَتــاه خُلــودٌ فِــي عَــذابِ النِّكايَــةِ

وَدِيــوانُ ظُلْــمِ الــنَّفْسِ مَغْفِــرَةُ الكَرِيــ
ــمِ إِنْ شــاءَ فَــضْلاً مِنْــهُ يَــومَ القِيامَــةِ

وَديــوانُ ظُلْــمِ النَّــاسِ بَعْــضٍ لِبَعْــضِهِمْ
فَلَــيْسَ بِمَتْــروكٍ لِعَظَــمِ الْجِنايَــةِ

وقد أكثر الناس من الكلام على التوبة، وما ذكرناه هو ما عليه

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٧١٧)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢٤٠).

جماهير العلماء.

وقد ذكرنا من أحوال الصوفية وغيرهم في التوبة جملة صالحة في كتاب «منبر التوحيد»، وأشرنا فيه إلى لطائف رقيقة ومسائل دقيقة، فراجعه إن شئت موفقاً بتوفيق الله، ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة، وأن يقبضنا على أكمل حالة تقربنا إليه وتزلفنا لديه، وفي أفضل زمان نتلبس فيه بأفضل طاعاته وأعظم عباداته التي تظفر العبد بمرضاته، وتُسكنه روضاتِ جنَّاته، مُطالِعاً لجمال وجهه الكريم، ممنوناً عليه بنظرة التكريم ونضرة النعيم.

روى الحافظ أبو القاسم بن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ عَافِنِيْ بِقُدْرَتِكَ، وَأَدْخِلْنِيْ فِيْ رَحْمَتِكَ، وَاقْضِ أَجَلِيْ فِيْ طَاعَتِكَ، وَاخْتِمْ لِيْ بِخَيْرِ عَمَلِيْ، وَاجْعَلْ ثَوَابَهُ الجَنَّةَ»[1].

وروى الطبراني عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَسْأَلُكَ فَوَاتِحَ الخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، وَالدَّرَجَاتِ العُلَى مِنَ الجَنَّةِ»[2].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «المنامات» عن الهيثم بن معاوية، قال: حدثني فلان قد سماه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت:

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٦٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣١٦)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (١٩١١).

يا رسول الله! ادع لي.

فحَسَر عن ذراعيه، فدعا وقال: «لِيَكُنْ كُلَّ ما تَدْعو: اللَّهُمَّ اخْتِمْ لَنا بِخَيْرٍ»[1].

وأنشد والدي عن بعض مشايخه، عن الحافظ أبي الفضل بن حجر رحمهم الله تعالى: [من الطويل]

ثَــلاثٌ مِــنَ الــدُّنْيا إِذا هِــيَ حُــصِّلَتْ
لِـشَخْصٍ فَـلا يَخْـشَى مِـنَ الـضَّرِّ وَالـضَّيْرِ

غِنًــى عَــنْ بَنِيهــا وَالــسَّلامَةُ مِــنْهُمُ
وَصِــحَّةُ جِــسْمٍ ثُــمَّ خاتِمَــةُ الْخَيْــرِ[2]

وروى الحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يَطُوْلَ عُمُرُهُ وَيَرْزُقَهُ اللهُ الإِنابَةَ»[3].

وروى هو وشيخه ابن حبان في «صحيحه» عن عمرو بن الحمق رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرَاً عَسَّلَهُ».

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (ص: ٧٥).

(٢) انظر: «اليواقيت والدرر» للمناوي (١/ ١٥٢).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٦٠٢)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٦٨).

قالوا: وما عَسَّله؟

قال: «يُوَفِّقُ لَهُ عَملاً صالِحاً بَيْنَ يَدَيْ رِحْلَتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيْرانُهُ؛ أو قال: مَنْ حَوْلَهُ»[1].

ورواه الإمام أحمد ـ وسنده حسن ـ والطبراني من حديث أبي عنبة رضي الله تعالى عنه وقال: «يُوَفِّقُ لَهُ عَملاً صالِحاً قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»[2].

والعَسْل ـ بمهملتين، وسينه ساكنة ـ: حسن الثناء.

وروى الإمام أحمد ـ بسند صحيح، واللفظ له ـ والترمذي، وأبو يعلى، والبزار، والطبراني، وابن حبان، والحاكم وصححاه، عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ عَلَيْكُمْ أَنْ لاَ تَعْجَبُوْا بِأَحَدٍ حَتَّىْ تَنْظُرُوْا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ؛ فَإِنَّ العَامِلَ يَعْمَلُ زَمَاناً مِنْ عُمُرِه أَوْ بُرْهَةً مِنَ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَنْهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلاً سَيِّئاً، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ البُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّءٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلاً صَالِحاً، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْراً

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٢٥٨) واللفظ له، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٨٣٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٥): رواه أحمد والطبراني، وفيه بقية، وقد صرح بالسماع في «المسند» وبقية رجاله ثقات.

اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ».

قيل: كيف يستعمله؟

قال: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ اللهُ عَلَيْهِ»[1].

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْراً طَهَّرَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ».

قالوا: وما طهور العبد؟

قال: «عَمَلٌ صَالِحٌ يُلْهِمُهُ حَتَّىٰ يَقْبِضَهُ عَلَيْهِ»[2].

وروى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْراً بَعَثَ لَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعَامٍ مَلَكاً يُسَدِّدُهُ وَيُوَفِّقُهُ حَتَّى يَمُوْتَ عَلَىٰ خَيْرِ أَحَايِيْنِهِ، فَيَقُوْلَ النَّاسُ: قَدْ مَاتَ فُلَانٌ عَلَىٰ خَيْرِ أَحَايِيْنِهِ، فَإِذَا حَضَرَ وَرَأَىٰ مَا أَعَدَّ لَهُ جَعَلَ تَتَهَوَّعُ نَفْسُهُ مِنَ الحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ تَخْرُجَ هُنَاكَ حِيْنَ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ

---

(1) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٠٦)، والترمذي (٢١٤٢) وقال: حسن صحيح، وأبو يعلى في «المسند» (٣٨٢١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٩٤١)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤١)، والحاكم في «المستدرك» (١٢٥٧).

(2) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٩٠٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٥): رواه الطبراني من طرق؛ وفي بعضها «غسله» بدل «طهره»، وفي إحدى طرقه بقية بن الوليد، وقد صرح بالسماع، وبقية رجالها ثقات.

شَرّاً قَيَّضَ اللهُ لَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعَامٍ شَيْطَاناً يُضِلُّهُ وَيُغْوِيهِ حَتَّى يَمُوْتَ عَلَىْ شَرِّ أَحَايِيْنِهِ، فَإِذَا حَضَرَ وَرَأَىْ مَا أُعِدَّ لَهُ جَعَلَ يَبْتَلِعُ نَفْسَهُ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَخْرُجَ، فَهُنَاكَ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1].

وهذا الحديث تقدم من طريق آخر.

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: انظروا الناس عند مضاجعهم؛ فإذا رأيتم العبد يموت على خير ما ترونه فارجوا له الخير، وإذا رأيتموه يموت على شر ما ترونه خافوا عليه، فإذا كان شقياً ـ وإن أعجب الناس بعض عمله ـ قيَّض له شيطاناً فأرداه وأهلكه حتى يدركه الشقاء الذي كتب عليه، وإذا كان سعيداً ـ وإن كان الناس يكرهون بعض عمله ـ قيَّض له ملك فأرشده وسدده حتى تدركه السعادة التي كتبت له[2].

وقلت ملماً بهذا المعنى: [من الرجز]

إِذا أَرادَ اللهُ خَيْراً بِامْرِئٍ ... لِكَوْنِهِ مِنْ صَفْوَةِ الأَنامِ

يَبْعَثُ مَنْ يَهْدِيهِ مِنْ أَمْلاكِهِ ... إِلَيْهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعامِ

حَتَّى يَقولَ النَّاسُ إِنَّهُ قَضى ... مِنْ عُمْرِهِ فِي أَفْضَلِ الأَيَّامِ

يا رَبِّ فارْحَمْنا وَسَدِّدْ أَمْرَنا ... فِي مَبْدَأِ الأُمورِ وَالْخِتامِ

---

(١) ورواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٥٩١)، وابن المبارك في «الزهد» (٩٧٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٧٠).

وَامْـنُنْ عَلَيْنـا عِنْـدَما تُمِيتُنـا   بِالـصِّدْقِ وَالإِيمـانِ وَالإِسْـلامِ
وَاجْعَلْ إِلَهِي كِلْمَةَ التَّوْحِيدِ فِـي   وَقْـتِ الْحِمـامِ آخِـرَ الكَـلامِ

ومن هنا كان السلف يستحبون أن يكون موتهم عقب عمل صالح؛ إمَّا جهاد، وإمَّا حج، وإما صيام رمضان، وإمَّا غير ذلك من الأعمال الصالحات.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى أنه كان يقول: لا يزال أحد حديث عهد بعمل صالح؛ فإنه أهون عليه حين ينزل به الموت أن يتذكر عملاً صالحاً قد قدَّمه[1].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم وصححه، عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[2].

وروى الطبراني في «الكبير» عن أنس ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىْ وُضُوْءٍ أُعْطِيَ الشَّهَادَةَ»[3].

---

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٣٥٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود (٣١١٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٢٩٩).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٩١). قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ٢٠): وله طرق متعددة عن أنس، قال العقيلي: لا يثبت منها شيء.

وروى أبو نعيم عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: قال [لي] ابن عباس رضي الله عنهما: لا تنامن إلا على وضوء؛ فإنَّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه[1].

وروى الإمام أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، والضياء في «المختارة» عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ عَلَىْ شَيْءٍ بَعَثَهُ اللهُ عَلَيْهِ»[2].

وروى الطبراني في «الكبير»، والحاكم وصححه، عن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ عَلَىْ مَرْتَبَةٍ مِنْ هَذِهِ المِرَاتِبِ بُعِثَ[3] عَلَيْهَا: رِبَاطٌ، أَوْ حَجٌّ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ»[4].

وروى مسلم، وابن ماجه، وغيرهما عن جابر رضي الله تعالى عنه، والدارقطني في «الأفراد» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «الكنى» عن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه؛ كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»[5].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٩٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣ / ٣١٤)، وأبو يعلى في «المسند» (٢٢٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٢).

(٣) في «أ» و«ت»: «مات» بدل «بعث».

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٦٣٧)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ١٩).

(٥) رواه مسلم (٢٨٧٨) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٣٠) ولفظه سيأتي قريباً.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَىٰ نِيَّاتِهِمْ»[1].

وروى ابن ماجه، والضياء في «المختارة» عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ نِيَّاتِهِمْ»[2].

وكان أخي ولي الله العارف به أبو عبدالله شهاب الدين أحمد الغزي رحمه الله تعالى لا يجلس مجلساً فيه من يتوسم فيه الصلاح والخير إلا قال: يا إخواني! رَقُّوني رَقُّوني؛ أي: اسألوا الله لي أن يرقيني في طاعته، ويقربني إليه؛ فإن المرء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، وأنا لا أحب أن أُبعث على هذه الحالة التي أنا عليها، وكان يبكي ويستغيث كلما كان في مجلس رضي الله تعالى عنه، واتفق له أنه مات في الحمام، وكان مكبوداً بعد تمام الطهارة، فترجى له الشهادة للحديث المتقدم.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: لا خير في الدنيا إلا لرجلين، رجل تائب، أو رجل يعمل في الدرجات[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٩٢)، وكذا ابن ماجه (٤٢٢٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٣٠) وقد تقدم.

(٣) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٨٣).

وروى أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب» عن علي رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك، وتباهي الناس في عبادة ربك؛ إن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله تعالى.

[و]لا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبة، ورجل يسارع في دار الآخرة[1].

وقلت: [من السريع]

لا خَيْرَ فِي الدُّنْيا لِعَبْدٍ سِوى ... مُسارِعٍ فِي الْخَيْرِ أَوْ تائِبِ

كَما رَوَيْناهُ عَنِ الْمُرْتَضَى ... بابِ العُلُومِ ابْنِ أَبِي طالِبِ

ويوضح معنى بعض كلامه ما رواه الإمام أحمد، وابن ماجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِيْ مِنْ الَّذِيْنَ إِذَا أَحْسَنُوْا اسْتَبْشَرُوْا، وَإِذَا أَسَاؤُوْا اسْتَغْفَرُوْا»[2].

وروى الحفاظ عبد الرزاق، وسعيد بن منصور في كتاب «الصلاة»، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[النصر: ١] كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِيْ؛

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٥).

(٢) تقدم تخريجه.

إِنَّكَ أَنْتَ التَوَّابُ الرَّحِيْمُ»[1].

وروى الحاكم وصححه، عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «سُبْحانَكَ ربَّنا وَبِحَمْدِكَ»، فلما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[النصر: ١] قال: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»[2].

وروى مسلم، وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثر من قول: سبحان الله وبحمده، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال: «خَيَّرَنِيْ رَبِّيْ أَنِّيْ سَأَرَىْ عَلاَمَةً فِيْ أُمَّتِيْ، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوْبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[النصر: ١ ـ ٣]»[3].

وروى الشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، عنهما[4] رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيْ»؛ يتأوّل

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٥)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٦٦٣).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٨٤٩)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٨).

(٣) رواه مسلم (٤٨٤).

(٤) أي: عن ابن مسعود وعائشة رضي الله عنها.

القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[1].

وروى ابن جرير عن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، فقلت له، فقال: «إِنِّي أُمِرْتُ بِها»، وقرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى آخر السورة[2].

وروينا في كتاب «التوبة» لابن أبي الدنيا قال: حدثني عوف بن إبراهيم قال: حدثني أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني رحمه الله تعالى قال: إذا ذكرت الخطيئة لم أشته أموت؛ أقول: أبقى لعلِّي أتوب[3].

وقلت في المعنى: [من البسيط]

إِذا ذَكَرْتُ ذُنوبِي مَعْ خَطِيئاتِي
لَمْ أَشْتَهِ الْمَوتَ فِي حالِ الْمُجافاةِ

وَقُلْتُ أَبْقى عَسَى أَنِّي أَتُوبُ إِلَى
رَبِّي وَأَلْبَسُ أَثْوابَ الْمُصافاةِ

---

(1) رواه البخاري (٧٨٤)، ومسلم (٤٨٤)، وأبو داود (٨٧٧)، والنسائي (١٠٤٧)، وابن ماجه (٨٨٩).

(2) رواه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٥٥).

(3) رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٨).

وَإِنْ ذَكَــرْتُ نَــدى رَبِّــي وَرَحْمَتَـــهُ
أَحْبَبْــتُ إِذْ قُمْــتُ مَــوْتِي كُــلَّ أَوْقَــاتِي

أَقُـــولُ عَلِّـــي أَرى رَبِّـــي بِرَحْمَتِـــهِ
تُمْحَــى ذُنوبِــي وَتُعْفَــى كُــلُّ زَلاَّتِــي

يَــا رَبِّ لا بُــدَّ لِــي أَنِّــي أَمُــوتُ وَأَنْ
يَعُــدَّنِي الــدَّهْرُ فِــي دِيــوانِ أَمْــواتِ

فَـــلا تُمِتْنِـــيَ إِلاَّ حِـــينَ تُزْلِفُنِـــي
إِلَيْـــكَ بِـــاللُّطْفِ يَـــا رَبَّ البَرِيَّـــاتِ

وَقَــدْ لَبِــسْتُ مِــنَ الأَحْــوالِ أَشْــرَفَها
فِــي خَيْــرِ وَقْــتٍ وَفِــي أَسْــمى الْمَقامــاتِ

فَلِــي عَوائِــدُ مِــنْ جَــدْواكَ تُطْمِعُنِــي
فَــوْقَ الَّــذِي رُمْــتُ مِــنْ تِلْــكَ العَطِيَّــاتِ

يَــا رَبِّ كَــلاَءَةَ محفــوفٌ بِعَوْنِــكَ يَــا
مَــلاَذِيَ خُــذْ بِيَــدِي فِــي وَقْــتِ عَثَراتِــي

وَلا تَكِلْنِــي إِلَــى نَفْــسِي وَلا أَحَــدٍ
سِــواكَ يَــا رَبِّ يَــا أَنْهَــى الإِراداتِ

وقلت في المناجاة والتوسل والمناداة: [من مجزوء الرمل]

رَبِّ مَتِّعْنِـــي بِقُـــرْبٍ مِنْـكَ يـا أَقْـصى مَرامِـي

وَأَبِـحْنِي مِنْـكَ لُطْفـاً فِـي حياتِي وَحِمـامِي

جُـدْ بِعِرْفـانٍ لِسِرِّي وَلِرُوحِـي بِـالغَرامِ

وَلِقَلْبِـي بِيَقِـينٍ يَرْتَقِـي أَعْلـى مَقـامِ

وَإِذا حَلَّـتْ وَفـاةٌ أَعْطِنِـي حُسْنَ الْخِتـامِ

سُـقْ إِلَـى لُقْيـاكَ رُوحِـي بَـيْنَ أَمْـلاكٍ كِـرامِ

تَتَلَقَّـانِيْ بِلُطْـفٍ وَتُحَيِّـي بِالـسَّلامِ

فَبِـمَحْضِ الفَـضْلِ جُـدْ لِـي أَوْ بِـذُلِّي فِـي الْمقـامِ

لا بِأَعْمـالِي فَمـا لِـي غَيْـرُ أَعْمـالٍ ذِمـامِ

يـا إِلَهِـي بِالتِّهـامِي خـاتَمِ الرُّسْـلِ الكِـرامِ

وَعَلَيْـهِ كُـلَّ حِـينٍ صَلواتِي وَسـلامِي

وإني لأرجو ممن يسَّر لي جمع هذا الكتاب وتأليفه كما يسَّر لي تقسيمه وتصنيفه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم نافعاً لمن شاء الله تعالى من عباده، هادياً لهم إلى الصراط المستقيم، وأن يجعلني به وسائر ما ألفته وأمليته من معلِّمي الخير أستنير به قبري، وأنتفع به يوم حشري.

فقد روى الإمام أحمد في «الزهد» عن كعب رحمه الله تعالى قال: أوحى الله ﷻ إلى موسى عليه السلام أن علِّم الخير وتعلمه؛ فإني منور

لمعلِّم الخير ومتعلِّمه في قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم[1].

وأنا العبد الفقير إلى الرب الغني الكبير الماثل بين يديه الضارع إليه، داعياً بما رواه ابن أبي شيبة، والنسائي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَىْ الخَلْقِ: أَحْيِنِيْ مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرَاً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرَاً لِي.

اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَى وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِيْ الفَقْرِ وَالغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيْمَاً لاَ يَبِيْدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىْ وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَىْ لِقَائِكَ فِيْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ.

اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِيْنَةِ الإِيْمَانِ، وَاجْعَلْنَا هَادِيْنَ مُهْتَدِيْنَ»[2].

وروى البخاري ـ وهو آخر حديث في «صحيحه» ـ وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٦٨)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٤٨) موقوفاً، والنسائي (١٣٠٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٢٦).

حَبِيْبَتَانِ إِلَىْ الرَّحْمَنِ، خَفِيْفَتَانِ عَلَىْ اللِّسَانِ، ثَقِيْلَتَانِ فِيْ المِيْزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيْمِ»(١).

وروى النسائي، والطبراني ـ ورجالهما رجال «الصحيح»(٢) ـ والحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ والضياء في «المختارة» عن جبير ابن مطعم رضي الله تعالى عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوْبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِيْ مَجْلِسِ ذِكْرٍ كَانَتْ كَالطَّابَعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِيْ مَجْلَسِ لَهْوٍ كَانَت كَفَّارَةً لَهُ»(٣).

وروى أبو داود، وابن حبان في «صحيحه» عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما ـ موقوفاً عليه ـ وعن أبي هريرة ﷺ ـ مرفوعاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَاتٌ لا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِيْ مَجْلِسِ لَهْوٍ، أَوْ مَجْلِسِ بَاطِلٍ عِنْدَ قِيَامِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهِنَّ عَنْهُ، وَلاَ يَقُوْلُهُنَّ فِيْ مَجْلِسِ خَيْرٍ وَمَجْلِسِ ذِكْرٍ إِلاَ خَتَمَ اللهُ لَهُ بِهِنَّ كَمَا يَخْتِمُ بِالخَاتَمِ عَلَىْ الصَّحِيْفَةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوْبُ إِلَيْكَ»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧١٢٤).

(٢) كذا قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٦٤).

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٥٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٧٠).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٥٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٩٣).

وروى أبو نعيم، ومحي السنة البغوي في «تفسيره» عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: من أحبَّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢][1].

وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالمِكْيَالِ الأَوْفَى مِنَ الأَجْرِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلْيَقُلْ فِيْ آخِرِ مَجْلِسِهِ حِيْنَ يُرِيْدُ أَنْ يَقُوْمَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[2].

وروى سعيد بن منصور في «الصلاة»، وأبو يعلى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أراد يسلم من صلاته قال: «﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٢٣)، والبغوي في «التفسير» (٤/ ٤٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٣٤).

(٣) رواه أبو يعلى في «المسند» (١١١٨)، وعنده: «كان يقول بعدما يسلم» بدل «كان إذا أراد يسلم من صلاته».

ورواه الخطيب من حديثه، ولفظه: كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يسلم من صلاته: «﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]»[1].

قال مؤلفه العبد الفقير إلى عفو ربه القدير: هذا آخر كتاب «حُسْنُ التَّنَبُّهِ لِما وَرَدَ فِي التَّشَبُّهِ»؛ مَنَّ الله تعالى بإتمامه، ولم آلُ جهداً في جمعه وإحكامه، صحبني فيه من الله تعالى التوفيق، فسلكت فيه من الطريق أوضح طريق، واللهَ المسؤول أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، موجباً للفوز بجنات النعيم.

وقد شرعت في تأليفه على رأس الألف، وكمل تبييضه قبل العشر، إلا أني زدت فيه بعد ذلك أشياء مهمة، وجَرَّدتُ لتحريره مَطيَّة العزم والهمَّة، فتمَّ في هذه النسخة المباركة في سحر الليلة التي يُسْفِر صباحها عن يوم الأربعاء سادس عشري جمادى الآخرة، سنة ثمان وثلاثين وألف، أحسن الله ختامها بمنِّه[2].



---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٣٨).

(٢) جاء في آخر النسخة الخطية المرموز لها بـ «أ»: «**والحمد لله رب العالمين، والصلاة والتسليم على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.**

وافق الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يومَ الخميس رابعَ عشرَ شهرِ ربيعِ الآخر، سنةَ اثنتين وأربعين وألف، على يد الفقير إلى رحمة ربه القدير: عبدِ الرحمن بن محمدٍ بن عمادِ الدين الغزولي الكاتب.

والحمدُ لله وحده».



الفهرس العام للكتاب





الفهرس العام للكتاب

الموضـــوع	الجزء والصفحة

باب

بيان الحكم الظاهرة في تأخير هذه الأمة

القِسْمُ الأَوَّلُ

فِي ٱلتَّشَبُّهِ بِمَن وَرَدَ ٱلأَمْرُ بِالتَّشَبُّهِ بِهِم وَٱلاقْتِدَاءِ بِهُدَاهُم وَهَدْيِهِم

(١)

بَابُ

ٱلتَّشَبُّهِ بِالمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم ٱلسَّلَام

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضــــوع	الجزء والصفحة

الموضــــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٢)

بَابُ
التَّشَبُّهِ بِالأَخْيَارِ مِنْ بَنِي آدَمَ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٣)

بَابُ

ٱلتَّشَبُّه بِالصَّالِحِيْنَ رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة
٣ ـ ومنها: المحافظة على ما اعتاده من الأوراد	٣٥٧/٢
٤ ـ ومنها: الحِلْم وكظم الغيظ واحتمـال الأذى والعفـو عن الناس والصفح الجميـل عنهم والإحسان إليهم والإعراض عن الجاهلين	٣٥٩/٢
٥ ـ ومنها : حسن الخلق	٣٦١/٢
٦ ـ ومنها: الرفق	٣٦٢/٢
٧ ـ ومنها: الأناة، والتُّؤَدَةُ	٣٦٤/٢
٨ ـ ومنها: قِرَى الضيف، وإكرامه، والبشاشة في وجهـه، وطيب الكلام، وطلاقة الوجه عند اللقاء	٣٦٦/٢
٩ ـ ومنها: الوعظ، والاقتصاد فيه، والاستنصات فيه، وتفهمه للسَّامع	٣٦٨/٢
ـ تنبيه	٣٦٩/٢
١٠ ـ ومنها: الخشوع والخضوع بين يدي الله تعالى، والسكينـة والوقار، خصوصاً في إتيان الصَّلاة وطلب العلم	٣٦٩/٢
١١ ـ ومنها: إهداء الهدية وقبولها، ما لم تكن رشوة، والمكافأة عليها، وإتحاف الصديق والقريب بالشيء، وإعطاء ولده الشيء إذا دخل عليك	
١٢ ـ ومنها: إدخال السرور على قلوب المؤمنين، والتـودد إليهم، والتـردد إلـى إخـوانـه منـهم من غير إذلال لنفسـه في طـلب دنيا	٣٧٧/٢
١٣ ـ ومنها: التهنئة، والتبشير بالخير لإخوانه المؤمنين	٣٧٩/٢

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٤)

بَابُ
التَّشَبُّه بِالشُّهَدَاءِ

(٥)

بَابُ
التَّشَبُّه بِالصِّدِّيقِيْنَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٦)

بَابُ
التَّشَبُّهِ بِالنَّبِيِّينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضــــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٧)

بَابُ

ذِكْرُ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

القسم الثاني من الكتاب

في النهي عن التشبه بمن ورد النهي عن التشبه بهم، والنهي عن طرقهم

النوع الأول من القسم الثاني

في النهي عن التشبه بالشيطان، لعنه الله تعالى،

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

النوع الثاني من القسم الثاني من الكتاب
في النهي عن التشبه بالكفار

(١)

باب
النهي عن التشبه بقابيل القاتل لأخيه هابيل

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٣)

بَابُ
ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِكَنْعَانَ بْنِ نُوحٍ

(٤)

بَابُ

ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِعَـادٍ

(٥)

بَابُ

النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِثَمُودَ

(٦)

بَابُ

ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِالرَّهْطِ ٱلتُّسْعَةِ مِنْ ثَمُودَ

(٧)

بَابُ

ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلتَّشَبُّهِ بِنَمْرُودَ وَقَوْمِهِ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٨)

بَابُ
النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٩)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِقَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الموضــــوع	الجزء والصفحة

(١٠)

بَابُ

النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(١١)

بَابُ
النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الكِتَابِ

الموضــــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضــــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضــــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(١٢)

بَابُ
النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالأَعَاجِمِ وَالمَجُوسِ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(١٣)

بَابُ
النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ وَالمُشْرِكِين

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(١٤)

بَابُ

النَّهيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْمُنَافِقِيْنَ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

النوع الثالث من القسم الثاني من الكتاب
في النهي عن التشبه بالفسقة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(١)

بَابُ

النَّهْيِ عَنْ تَشَبُّهِ الْعَاقِلِ بِالْمَجَانِينِ وَالْحَمْقَى

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٢)

بَابُ

النَّهيُ عَنْ تَشَبُّهِ الحُرِّ بِالرَّقِيقِ وَعَكْسِهِ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٣)

بَابُ
النَّهي عَن تَشَبُّهِ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ وعَكْسِهِ

(٤)

بَابُ
النَّهي عَن تَشَبُّهِ الرِّجَالِ بِالصِّبيَانِ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

(٥)

بَابُ

تَشَبُّهُ ٱلفَقِيرِ بِٱلغَنِيِّ وَعَكْسِهِ

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة

الموضـــوع	الجزء والصفحة